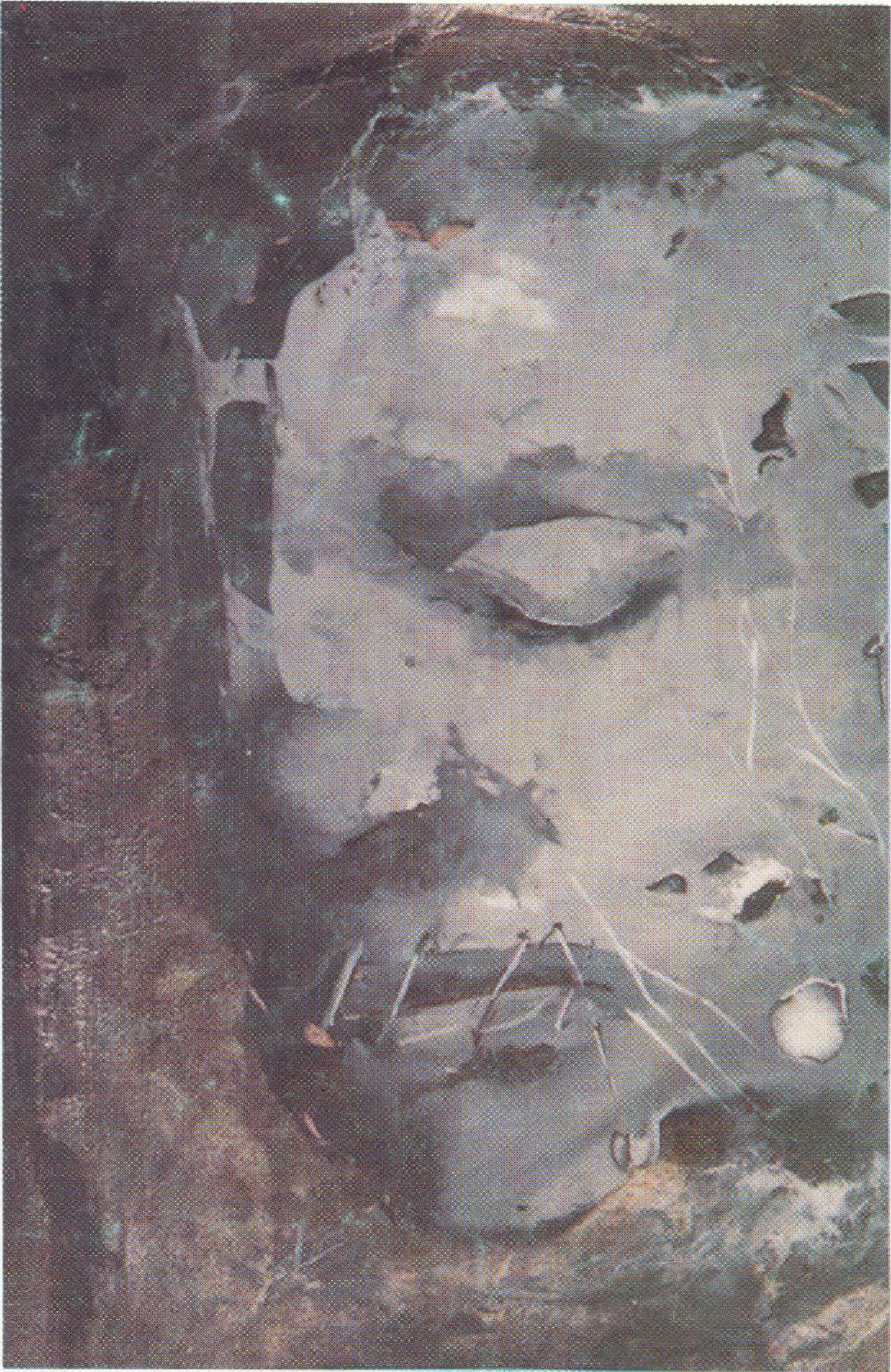
المستقبل العربي



268



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير : د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

268

العددان ٢ شباط - ٣ آذار - ١٩٩٦

فهرست العدد

ملف العدد

الولايات المتحدة الأمريكية من الداخل

أدب وفن

لوحة الغلاف الأول للفنان صباح الطاهر (اضراب عن الطعام) / رفحاء /

لوحة الغلاف الأخير للفنان محمد جبار / رفحاء /

افتتاحية

من المحرر

■ بمناسبة الذكرى الخامسة لحرب الخليج الثانية بثت القناة الأولى لتلفزيون BBC تحقيقاً من ثلاث حلقات حول الحرب ، خلفياتها ، ممهداتها ومجرياتها . منظور التحقيق لا يخرج ، في نهاية المطاف ، عن الرؤية الرسمية ، الامريكية ــ البريطانية ، لكارثة شعبنا تلك ، التي سموها « عاصفة الصحراء » ، وسماها صدام « أم المعارك » . في الحلقة الأخيرة شاهدنا بعض الدمار والهلاك والمذلّة المريعة التي حلت بعراقنا وجنوده وأهله . وبعد مشاهد احتفالات واشنطن بانتصارها اختتم التحقيق بلقطةٍ لنيران الآبار الكويتية التي أحرقها صدام ، فقال المعلق : إنه النفط... من أجله حارب الغرب في الخليج . . وانتصر !

تلك هي الحقيقة الأهمّ بعد سيل من أنصاف الحقائق والأضاليل ، وأكذبها أن غاية الحرب هي تحرير الكويت التي نكبها صدام بجريمة الغزو طمعاً بثرواتها النفطية أساساً . لقد كان النفط المشؤوم حاضراً في كارثة الخليج الأولى أيضاً طيلة سنواتها الدامية بتشجيع وسلاح الغرب وأموال أصحابه العرب لنظام صدام رغم سجله الأسود في انتهاك حقوق الانسان العراقي ، ذلك السجل الذي استثمروه لتبرير حرب الخليج الثانية ، وبها تواصل مسلسل الدماء والدمار والآلام . وها هي العقوبات الاقتصادية تستكمل المسلسل...

رغم كل ذلك لا يكف صدام عن القول انه انتصر ، وها هو ، في الذكرى الخامسة لام الكوارث يقول من شاشة التلفزيون : « ان الله كان معنا وإن روح أمتنا المجيدة كانت حاضرة في نفس كل مقاتل... ولأن العراقيين قد استوعبوا دروس الأمة في الكر والفر فقد استحضروا اقتدارهم فهزموا العدو بمنعه من الاجهاز على قاعدة إقتدار الأمة المؤمنة ومركز اشعاعها الأكثر مدى وتأثيراً وبذلك فوت العراقيون على العدو فرصة

الاجهاز على الأمة . . » الى آخر هذا الكلام الذي قد يصدقه بعض الناس في المغرب العربي ، وربما حتى في ما تبقى من فلسطين لأهلها . أما العراقيون فما زالوا يحصدون الفاقة والسقام وهلاك الأطفال في ظل العقوبات التي تزيدهم على القهر عذاباً . . .

وكلام صدام لا يعني كذلك أولئك الذين يتصدون في الغرب لأضاليل المنتصرين الفعليين في « عاصفة الصحراء » . فبمناسبة ذكراها الخامسة اشتركت صحيفة (الغارديان) وهي تصنف ضمن تيار « يسار الوسط » البريطاني ، مع القناة الرابعة (غير الحكومية) لتلفزيون لندن في اجراء تحقيق بثته القناة ونشرت مضامينه الكاتبة (اوكين) في (الغارديان) . فترجمناه باختصار لقراء « الثقافة الجديدة » لانه يسلط أضواء على أكاذيب الدعاية الامريكية ـ البريطانية التي خدعت أغلبية الناس فأيدوا تلك الحرب النفطية وما زالوا صامتين ازاء محنة شعبنا المنهك بالعقوبات .

مازال الجدال قائماً حول الطرف الذي يتحمل المسؤولية الأولى عن الكوارث التي حلت بالعراق وأهله ، نظام صدام أم امريكا وشريكاتها ؟ لقد عاش العراقيون بعض تجليات سياسة امريكا في المنطقة ، على الأقل أثناء حربي الخليج . ومنذ خمس سنوات تمسك هي وصدام طرفي حبل العقوبات الخانق . وحسب أقوال بعض صناع سياستها فان النظام الذي سيخلفه مطالب بالرضوخ لتبعات حربي الخليج ، وكان هنري كيسنجر أصرحهم حين اعترف ان مشكلة امريكا ليست مع صدام بل مع العراق . فأي مستقبل مظلم يراد لأجيالنا القادمة ؟

نحن بحاجة الى رفد معرفتنا لسياسة امريكا تجاهنا بمعرفة أوسع لواقع هذه القوة الأعظم التي تقود « النظام العالمي الجديد » بفضل جبروتها الاقتصادي والعسكري . فهي مازالت أهم معاقل النظام الرأسمالي الذي تريد تعميمه وترسيخه الى الأبد . فلا غرابة ان تحظى مظاهر تناقضات مجتمعها باهتمام العالم .

وكانت آخر مثل هذه المظاهر المثيرة قطع الرواتب عن مئات الألوف من موظفي الخدمات الحكومية بسبب النزاع على نسبة التقشف في الميزانية بين « البيت الأبيض » والجمهوريين المسيطرين على الكونغرس . لكل هذه الاعتبارات كُرس ملف هذا العدد لمواد عن أحوالها الاقتصادية ، الاجتماعية وحياتها السياسية . كما يضم العدد مادتين عن مشكلة المياه وأخرى حول عودة نفط العراق الى السوق العالمية ، وهي شؤون لصيقة بمصالح ومشاريع امريكا وحليفاتها في المنطقة . .

أواسط ك٢ ١٩٩٦

خمس سنوات على أم الكوارث

أضاليل «عاصفة الصحراء»

ماكي اوكين

قبل شهرين تلقيت صورة فوتوغرافية للمجأنا الواقع في أسفل فندق الرشيد ببغداد وذلك مساء بدء حرب الخليج يوم ١٩٩١/١/١٧ . ارضية الملجأ مفروشة بالبطانيات وفي احدى زواياه عجوز يمسد خد طفل ، وفي مقدمة الصورة كنا ثلاثة مراسلين والبسمة تعلو وجوهنا . لِم لا ؟ فقد طمأنت وزارة الحرب الامريكية مسؤولي شبكة CNN ان أهداف القصف الجوي لا تشمل فندق الرشيد حيث بقي ٣٤ صحفياً أجنبياً لتغطية الحرب . كنا آمنين وسط أضخم عملية خارجية تشارك فيها بريطانيا منذ حرب جزر المالويل .

كنا نتمتع بوقتنا . احدى المراسلات البريطانيات اشترت لغرفتها ببغاء استراليا أصفر، لم يساورنا القلق من الموت بالغاز السام . وكانت صواريخ كروز تتحاشى الفندق ونحن نحتسي البيرة في صالة الاحتفالات المقفرة. بعض الليالي كنا نصعد الى الطوابق العليا لنرى المشهد بصورة أفضل كمن يجلس في أفضل مقاعد السينما . لكننا لم نرَ دماء . ويا لهامن مسخرة! فقد قتل زهاء أربعين الف انسان في تلك الحرب، لكن الدم غاب عن الأبصار تماماً . كان هناك وميض ، وكانت ثمة بقع حمر تفلت من الرقيب ، لكن مشاهد الحرب كانت شيقة في أغلب الأحيان : صواريخ (ستيلث) ، قنابل ذكية ، صواريخ تقرأ ما في الذهن، وميض القذائف المضادة للطائرات في عتمة الليل، وطائرات (اف ١٦) تلعب لعبة الحرب.

يوم انتهت الحرب ذهبت الى محطة الباصات في جنوب بغداد، بُعيد المغرب ، فوجدت الشارع مزروعاً بنساء منتحبات . كان العراقيون الذين نجوا من المجزرة

على الطريق بين الكويت والبصرة قد أخذوا يعودون الى أهلهم وجراحهم مازالت دامية . كانت الباصات والشاحنات تحمل آثار القصف والنساء يترامين عليها لجر ذويهن ، أو للسؤال والتوسل : «أين هو ، هل رأيته؟ ألم يأت معكم؟» . كان بعضهن يتداعى على الركبتين لدى سماع خبر الغائبين . وراحت أخريات يهرولن من باص، الى شاحنة ، الى سيارة بحثاً عن الأزواج والأبناء والأحباء . انهم السبعة والثلاثون الفاً من الجنود الذين لن يعودوا أبداً . هكذا تواصل مشهد اليأس والدموع الذي لم أر له مثيلاً طيلة عمري .

مسلسل التضليل:

بعد يوم عدت الى الوطن ورأسي مازال مترعاً بوجوه تلك النسوة . وفي الطائرة التقطت نسخة من مجلة (نيوزويك). كانت صورة الجنرال شوارزكوف على الغلاف ، وفي داخلها وصف متهلل لعملية طريق الكويت ـ البصرة : وقوع الجند الهاربين في فخ ذلك الطريق لينهال عليهم وابل القنابل الموجهة بالليزر.

اجهشت بالبكاء في الطائرة ، بكيت للنساء في محطة الباصات ولانني عرفت سوء ما فعلنا بالحرب والحقيقة والدم . انها حكاية الأكاذيب في سبيل النصر، حكاية تسخيرنا ، نحن العاملين في وسائل الاعلام كما تساق الحمير لكي لا نرى سوى ما يريد عسكريو امريكا وبريطانيا أن نرى : حرباً لطيفة نظيفة. انها حكاية الأكاذيب ، اليوم بعد خمس سنوات ، التي مازالت تقال حول ما حدث لآلاف من مرضى جند الحلفاء الذين تعرضوا للأسلحة الكيماوية . لقد بدأت الرائحة في ولاية فلوريدا بصورتين التقطهما قمر أطلقته الشركة التجارية الروسية (سيوز كارتا).

في ٢ آب ١٩٩٠ احتلت القوات العراقية الكويت . وفي اليوم ذاته اجتمعت الحكومة الامريكية. يومها كانت الحرب مجرد احتمال ليس الا. ففي سيرته الذاتية يتذكر شوارزكوف المزاج الذي كان سائداً حين قال له رئيس الأركان الجنرال پاول: «أتصور اننا يمكن أن نشن الحرب اذا ما احتلت السعودية. أشك اننا نشن حرباً في سبيل الكويت». ولكن المزاج تغير خلال أيام قليلة. فحين اجتمع شوارزكوف بپاول للمرة الثانية طلب منه التهيؤ للانتقال الى السعودية . ويقول شوارزكوف في مذكراته :

> «باغتني الطلب . فلابد ان اشياء كثيرة قد حدثت منذ لقائنا ولا يريد پاول التحدث عنها. فقد قرّ قرار الرئيس بوش على ارسال قواتنا .»

أما ما حدث فهو اجتماع بوش مع السيدة تاتشر أثناء زيارته لولاية كولورادو، ويقول وزير خارجية تاتشر آنذاك ، دوغلاس هيرد :

«لقد صلّبت تاتشر عزيمة بوش». أما المستشار للأمن القومي سكوكروفت الذي كان الساعد الأيمن لبوش يومئذ، فيؤكد ذلك بالقول : «لقد قوت عزيمته .. وما فعلتْ هو انها اعطته الثقة بصواب القرار النابع من غريزته.»

أخذت امريكا وبريطانيا تعدان للحرب منذ الأسابيع الأولى لأيلول. فدون أن يلاحظ أحد ، أخذ جدول العمل يتغير، فلم يعد الانسحاب العراقي من الكويت أمراً مقبولاً لوحده. وقد اتخذ مجلس الأمن قرارات جديدة ، وأخذ بوش يصم صدام بالهتلرية من خلال شبكة CNN . كان بوش وتاتشر قد عزما أمرهما ، وباتت مهمتهما اقناع العالم ان صدام سيبتلع السعودية بعد الكويت . فاستخدما لهذا الغرض صوراً من الأقمار الصناعية تظهر ان ما يفوق ربع مليون من القوات العراقية في وضع هجومي على الحدود السعودية. ولكن هذه الصور مازالت حتى اليوم محاطة في امريكا بالسرية لاعتبارات «الأمن القومي» حسب قول سكوكروفت.

لم يفطن المشاهد العراقي الى مغزى كل ذلك. لقد أخطأ صدام في تقدير قوة رد فعل الغرب على احتلال الكويت . لكنه ما لبث أن أدرك خطأه. فقد لمحت له السفيرة الأمريكية ، گلاسپي بصورة مواربة ان غزوة صغيرة لنتش اثنين من آبار النفط ليست ذات بال. لكن استيلاءه على الكويت غير مسموح به . فأدرك من تلميحها انه تجاوز حده. فنشرت صحف بغداد في اليوم التالي صورة لجنود منسحبين من الكويت وقالت ان عددهم عشرة الاف. وأعلم صدام مجلس الأمن انه ينوي سحب قواته من الكويت ، وأكد الشيء ذاته للملك حسين . ولكن الأوان قد فات لان بوش وتاتشر كانا يريدان الحرب ، ويعملان لاقناع الرأي العام في بلدينا بان صدام حسين مهووس بمغامرة هتلرية للاستيلاء على الشرق الأوسط . واستندا في ذلك الى صور سرية من الأقمار الصناعية.

حكاية الصور

تقع غرفة الأخبار لجريدة (سينت بيترزبورغ ـ فلوريدا) في الطابق السابع من احدى البنايات العالية التي تتميز بها مراكز المدن الامريكية، وهي واسعة ، بيضاء مكيفة الهواء تماماً ولا يسمح قط بالتدخين فيها . ولا توحي من النظرة الأولى انها

ستكون منبعاً لاحدى القصص الأكثر اثارة منذ سنوات : انها قصة تضليل بوش للامريكان كي يؤيدوا حرب الخليج.

كانت (جين هيلر) كاتبة في تلك الجريدة المحلية ، وهي من المرشحين خمس مرات لنيل جائزة بوليتزر ، وجاءت مرتين في المرتبة الثانية. فطلبت من الجريدة الموافقة على شراء صورتين من صور الأقمار الصناعية المعنية لقاء ٣٢٠٠ دولار وذلك بعد ان قرأت خبراً يقول ان هناك قمراً صناعياً تجارياً يدور لالتقاط صور الكويت. فأرادت رؤية الصور الوحيدة غير الحكومية التي تدعم اتهام العراق بتحشيد جيشه على حدود الكويت مع السعودية . فوافقت الشركة الروسية (سيوز كارتا) على بيع الصورتين، لكن جين هيلر لم تعثر على اثر يؤكد زعم المسؤولين الامريكان ان العراق قد حشد ٢٦٥ الفاً من الجند و ١٥٠٠ دبابة على الحدود بين الكويت والسعودية. وهي تقول «كانت الصورتان من الوضوح بحيث يمكن رؤية مطار الرياض وقد ازدحم بصفوف الطائرات الامريكية». وعرضت الصورتان على اثنين من المختصين بتحليل الصور. يقول الخبير في تحليل الصور في جامعة (جورج واشنطن) بيتر زيمرمان : «نظرت الى الصورتين مع احد زملائي ، فهتف كلانا معاً : اين هم العراقيون؟» كان بوسعنا أن نرى بوضوح الطريق الرئيسي الذي يشق الكويت جنوباً نحو السعودية . كانت الرياح قد غطته بطبقة من الرمل لم يظهر عليها ما يدل على مرور جيش عليه. وقد رأينا في الصورتين معسكرات خاوية كان بالوسع استخدامها من قبل الجند المزعومين .فكتبت جين هيلر تلك القصة في جريدتها . وجاء في مقدمتها : «حان الوقت لتكليف كاتبة الروايات البوليسية (اغاثا كرستي) للذهاب الى الشرق الأوسط كي تؤلف رواية وليكن عنوانها : «قضية تلاشي العدو». وتقول جين هيلر الآن : «لو ان قصتي نشرت في صحيفتي (نيويورك تايمس) أو (واشنطن بوست) واسعتي الانتشار لتدفقت حمم الجحيم من عقالها . لكنها نشرت في جريدة محلية بفلوريدا عاصمة متقاعدي العالم، فلا أحد يثق بما نقول.

حكاية أطفال الحاضنات

جلس روبرت غراي في مطعم فندق (هوليداي إن) بمنتجع «تامپا في فلوريدا. وكان صبره قد أوشك على النفاد لطول مقابلتي ولكنه استطاع اخفاء حنقه لانه خبير في العلاقات العامة. غداة غزو الكويت تلقى عرضاً من الكويتيين المقيمين في امريكا لتتولى شركته مهمة الدعاية لقضيتهم لقاء مليون دولار شهرياً، وهو أضخم

عقد في تاريخ العلاقات العامة. وكان قد تولى الدعاية لحكومات اندنوسيا وتركيا وهايتي على عهد راؤل سيدراس، ولتجمع اللاجئين الكوبيين المعادين لكاسترو. فانطلقت مكاتبه الاثنا عشر وموظفوه المئة في حركة على مدار الساعة لكسب الرأي العام، والتأثير على الكونغرس الذي خيم عليه التردد في ارسال القوات الامريكية الى الخليج. ومن وسائل التأثير قصة موت الأطفال الرضع الذين أخرجهم الجنود العراقيون من الحاضنات والقوا بهم على الأرض الباردة فهلكوا. فقبيل اقدام الكونغرس على التصويت الحاسم استمع الى شهادة مؤثرة عن قتل الأطفال القتها فتاة كويتية قالت انها كانت ممرضة متطوعة في مستشفى عدن للولادة بالكويت في الأيام الأولى من الاحتلال. ولم يكن الذين استمعوا الى شهادتها المؤثرة يعلمون انها في الحقيقة ابنة سفير الكويت في امريكا.

بعد ستة أشهر على نهاية الحرب زرت مسكن الممرضات القريب من مستشفى عدن بالكويت فالتقيت بالمرضة الفليبينية Myra Ancog Cooke التي مازالت تعمل في المستشفى، وهي كاثوليكية ورعة. قالت انها واصلت العمل أثناء الاحتلال بمشيئة الله للعناية بالمرضى. وقد عهد اليها بردهة الأطفال بالتناوب مع زميلتها الفليبينية Freida Contrais - Naig للمبيت مع الرضع في غرفة الحاضنات. وما سمعته منها زرع في نفسي أولى بذور الشك حول القصص المختلقة وانصاف الحقائق التي رافقت التهيئة لحرب الخليج. قالت: «نوديت يومها لمشاهدة محطة CNN التي كانت تتحدث عن ردهة الأطفال. شاهدنا فتاة لا نعرفها تتحدث عن اخراج العراقيين للأطفال من الحاضنات. فقلت لفريدا: هذا شيء مضحك. لم نر هذه الفتاة، اذ لم تعمل هنا أبداً. لم نفكر بالأمر كثيراً، ما أثار اهتمامنا أنهم يتحدثون عن المستشفى الذي نعمل فيه». وبعد أشهر، اعترفت منظمة العفو الدولية بالخطأ حين صدقت القصة التي وصفها بالتلفيق (اندرو وايتلي) المسؤول في قسم مراقبة الشرق الأوسط.

لقد وردت قصة أطفال الحاضنات على لسان الرئيس بوش في خمس خطابات وعلى لسان أعضاء مجلس الشيوخ سبع مرات دعماً لقرار الحرب. ولم تخجل شركة العلاقات العامة من خداع وسائل الاعلام في العالم ومجلس الأمن والكونغرس الامريكي على لسان ابنة سفير الكويت المراهقة التي «دربتها» الشركة لخداع الرأي العام. لقد كان العالم يريد ان يصدق ان الجيش العراقي الغازي يقترف الاغتصاب والتعذيب والقتل في الكويت. فاستُقبلت دون تمحيص أخبار عن

الاف القتلى حين استطاعت الشركة، بالتعاون مع كويتيين في الداخل، تهريب ٢٤ شريط فيديو لتتلقفها وسائل الاعلام الجماهيري المتعطشة للأخبار المثيرة . فساعد كل ذلك التلفيق على تهيئة المزاج اللازم للحرب.

أثناء حرب الخليج كان حضور العديد من المراسلين ومصوري التلفزيون يعطي الناس الانطباع بانهم يرون ويعلمون أكثرمن أبائهم وأجدادهم الذين كانوا يستمعون وسط خشخشة الراديو الى أنباء المعارك على جبهات الحروب السابقة . لكنهم مخطئون . فطيلة أيام الحرب لم تكن هناك صورة واحدة أو فلم تلفزيوني لجنود التحالف أثناء الحرب بل كانت صوراً تأخذ للجنود وهم يكتبون الرسائل الى أهلهم ليس إلا.

ان سكوكروفت، المستشار الأول لبوش اثناء الحرب، يدير الآن شركة للاستشارات لا تبعد كثيراً عن البيت الأبيض . فهو يفهم الدعاية والحاجة الى تأييد الجمهور. فهو يقول عن قصة الحاضنات : «لم نعرف حينها انها قصة مختلقة... ولا أعتقد ان المسألة كبيرة الأهمية في آخر المطاف. أعرف أن الأمور داخل الكويت لم تكن بالسوء الذي أظهرته وسائل الاعلام ، لكن لاريب أن الحالة لم تكن حفلة رقص. فالكويتيون لم يعاملوا معاملة لطيفة من العراقيين. لذا كان من المفيد تعبئة الرأي العام لضمان موافقة مجلس الشيوخ على قرار الرئيس بوش ، وأظن أن الموافقة كانت بأغلبية خمسة أصوات ... كانت القضية ضخمة، كان النزاع هاماً لكل العالم.»

الإعلاميون في عهدة «الرعاة»

في ذروة الحرب العالمية الأولى قال لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني لمحرر صحيفة (غارديان) : «لو علم الناس حقاً ماذا يجري فان الحرب تتوقف غداً لكنهم، بالطبع، لا يعلمون ولا يستطيعون ان يعلموا». وعلى غرار لويد جورج كان مدبرو حرب الخليج يفكرون، ولذلك أقاموا نظاماً للسيطرة على وسائل الاعلام لابعاد فظائع الحرب عن صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون. ولم تكن المهمة سهلة حين كان ٢٥٠٠ من العاملين في الاعلام يحاولون تغطية أحداث الحرب، انه نظام ابتكره البريطانيون أثناء حرب جزر (المالويل) وبلغ ذروة الكمال على يد الامريكان في حرب الخليج. وهو نظام مطبق حين يغطي المراسلون عمليات القوات الامريكية والبريطانية أو قوات الأمم المتحدة . فأثناء حرب الخليج خصص الجيش الامريكي ١٥٠ من

«الرعاة» في الميدان ليضمنوا بقاء نشاط المراسلين ضمن السياق المطلوب . فيجري اختيار مراسل تلفزيوني وصحفي ومصور ليؤخذوا تحت اشراف القيادة الى الميدان كي ينقلوا العمليات تحت رقابة صارمة، ثم ينقل هؤلاء مشاهداتهم الى المراسلين المنتظرين في الفندق. تقول الصحفية لوسي سبايكل : «كان هناك حوالي عشر قصص تقدم للمراسلين فيكررونها المرة تلو المرة عن وصول الوحدات العسكرية ، قلة الرسائل للجنود، حرارة الطقس أو برده، كثرة الرمال، مشاكل القذارة، مساهمة النساء في الحرب، أزواج وزوجاتهم في الجبهة، هل يجب أن تشارك النساء في القتال؟». أما (كنث جاركيل) صاحب أشهر صورة عن الحرب (جثة جندي محترق على طريق الكويت ـ البصرة) فقد تقاعد لينزوي في مزرعة خارج مدينة شيكاغو، وكف عن تغطية أحداث الحروب. فهو يقول : «أعتقد حقاً ان من المجدي المغامرة بحياتي من أجل الحقيقة. مشكلتنا كانت عدم القدرة على الوصول الى الحقيقة». ورغم نشر صورته تلك في جريدة (اوبزرفر) البريطانية، فانها أهملت في امريكا . لقد زعموا ان الحرب خلت من الدماء.

طمر الجنود في خنادقهم

عاد العريف جو كوين عقب الحرب الى بلدته في كارولينا الشمالية ليجد يافطة ترحب به معلقة على واجهة مطعم للهامبرغر، فقد نال الوسام البرونزي . كان يريد الاستراحة من عناء الحرب، لكن البلدة لم تدعه وشأنه. خلال «عاصفة الصحراء» كان العريف من أوائل الجنود الامريكان الذين اجتازوا حدود العراق على جرّافة مسلحة، ومهمته دفن الجنود العراقيين الأحياء في خنادقهم وتسوية الأرض عليهم جيداً كي تمر القوات المتدفقة وراءه بكل يسر . ولا يدري العريف كم دفن من العراقيين ولكنه، في السنة الخامسة بعد ذلك ، يتذكر جيداً كيف عملت جرافته :

> «كان الرمل ناعماً بحيث ما ان تمسه الشفرة حتى ينهال على جانبيها في الخندق. فلم نكن بحاجة الى تكرار الجرف عليه . فكنا نتحرك بسرعة خمسة أو ستة أو سبعة أميال في الساعة على امتداد الخندق دون أن نراه . كان بوسع المرء أن يمضي في الردم وقد أغمض عينيه . الجنود الذين رأيناهم كانوا مصعوقين، لا أظنهم أدركوا ماذا جرى.»

مصادر في بغداد وواشنطن قدرت عدد الجنود المدفونين في الخنادق بين الف

الى الفين . ومن الذين نجوا جندي سمى نفسه واصف واعتذر عن اعطاء هويته خوفاً على أهله :

«وأنا هارب من الخندق شاهدت بعض الجنود يحاولون التسليم لكنهم طمروا بجرافات اعتيادية او بدبابات ركبت عليها شفرات الجرافات. بعض الجنود ساروا نحو المهاجمين رافعين الذراعين للتسليم، لكن الدبابات قضت عليهم . لا استطيع وصف مشاعري . كان بعض الجنود اصدقائي، ناكل وندردش معاً . مشهد موتهم كان مريعاً . رايت جرافة تشطر جسد أحد الجنود من بطنه، الى شطرين».

من الصحفيين الذين اختيروا لمعاينة منطقة الحدود مراسل وكالة (يونايتد بريس انترناشنال) الذي قال : «كنا عشرة برفقة «الراعي» المكلف بمرافقتنا فحرص على ضبطنا . ولم أكن أعرف شيئاً عن خطة استخدام الجرافات. وهكذا حال بقية الصحفيين . فلم يدعنا «الراعي» نقترب من موقع الخنادق».

في صالات الفنادق كان المراسلون يستمعون كل يوم الى تقارير ضباط التحالف وهم يشيدون بدقة اصابات القنابل «الذكية» ولكن ذلك مخالف للحقيقة. فأغلب القنابل القيت على الجبهة حيث قتل أكثر من ٣٠ الف جندي. وكانت احشاؤهم تندلق بتأثير القنابل المصممة لامتصاص الهواء من الخنادق ومات الاف منهم على طريق الكويت ـ البصرة أثناء الانسحاب غير المشروط الذي إتُفق عليه في موسكو. لقد هلكوا في ختام «عاصفة الصحراء» اذ أمطرتهم الطائرات بحممها كما يتبارى الرماة على قتل ديوك الرومي، مما دعا الجنرال باول الى القول : «يجب أن نتوقف الآن. فطيارونا لا يقتلونهم الا من أجل القتل». وهذا ما نقله عنه أحد الذين حضروا آخر اجتماع لمجلس الحرب.

محنة ضحايا السلاح الكيماوي أيضاً

في سيرتيّ حياتهما تحدث شوارزكوف وباول عن الخوف الذي هيمن عليهما في الأشهر التي سبقت الحرب من استخدام السلاح الكيماوي العراقي فقد حصل الجواسيس على معلومات عن نجاح العراقيين في اختيار صواريخ محملة بالسلاح الكيمياوي . لكن المؤسستين العسكريتين في امريكا وبريطانيا مازالتا، منذ الحرب، ترفضان الاعتراف باستخدام الجانب العراقي لأسلحة كيماوية، وربما بيولوجية ايضاً، بجرعات واطئة لغرض اشاعة الذعر بين قوات العدو، والتسبب بمشاكل الغثيان في صفوفها، وربما لتحذير بوش وتاتشر من مغبة الايغال في الحرب.

اشتركت القناة الرابعة في تلفزيون لندن مع صحيفة (غارديان) في تحقيق دام أربعة أشهر وتمخض عن شواهد كثيرة على ان مثل هذه الأسلحة قد استخدمت فعلاً، وأن الاف المحاربين مازالوا يصارعون الوهن الذي حل بجهاز المناعة في أجسادهم مما يبقيهم عرضة لطائفة واسعة من العلل. الا ان السلطات عموماً لم تهتم بمصابهم بل عزت الأعراض التي يشكون منها الى أوهام الحرب وحكاياتها .

ليس من الصعب فهم السبب الذي دعا في حينها الى إخفاء حقيقة استخدام تلك الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية ، فمن شأن انتشار أخبارها اضعاف المعنويات واشاعة الرعب في صفوف قوات التحالف. لكن التكذيب الرسمي مازال سارياً بعد خمسة أعوام على الحرب رغم معاناة محاربين عديدين وموت بعضهم . فشكواهم تتنوع من العلل : بعضهم يتعرق ليلاً، وآخرون يعانون الكآبة ، وآخرون أصيبوا بالسرطان.

في أوائل ١٩٩٥ اضطرت وزارة الدفاع الامريكية، وفقاً لقانون حرية المعلومات، ان تكشف الوثائق الرسمية التي سجل فيها ارتياب قيادة القوات بحصول هجمات بالسلاح الكيماوي والبيولوجي . وجاء في السجل ان الفرق العلمية عثرت على آثار لغازات الخردل والسارين والتابون واللويزيت في ميدان القتال. ولكن السلطات الامريكية والبريطانية اعتبرت تلك التقارير مخاوف لا أساس لها . كان عدد الاختبارات التي أجريت يتجاوز الخمسين، ومعظمها على يد الفرق التشيكية. فقد اكتشفت آثار غاز الأعصاب في سبع حالات وتحققت من ذلك في المختبر المتنقل . لكن القيادة الامريكية والبريطانية كانت تطلب من وحداتها «عدم الالتفات الى التقارير التشيكية» وقد حير ذلك الموقف العقيد سميهلك الذي قاد احدى الوحدات التشيكية المكلفة بتقصي آثار الأسلحة الكيماوية أثناء الحرب. فهو يقول : «بعد كل مرة نكتشف أثراً كان الامريكان يرسلون فريقهم لاعادة الاختبار . لكن أجهزتهم أقل حساسية من أجهزتنا . فكانوا يكررون الاختبار الى ان تزيل الرياح الأثر الذي عثرنا عليه». وتفيد السجلات ان البريطانيين والفرنسيين والروس قد اكتشفوا أيضاً غازات كيماوية في الرياح التي تهبّ من العراق بعد قصف المحطات الكيماوية والبيولوجية ، ومما يشهد على التعرض للتأثير الكيماوي / البيولوجي هلاك الاف من الجمال والغنم والكلاب في ميدان القتال.

لقد كافح عضو مجلس الشيوخ، دونالد رايكل ، من أجل حمل السلطات الامريكية على الاعتراف بمرض حرب الخليج ، ولهذا الغرض قدم الى المجلس تقريرين عن الموضوع أعدهما مساعده (جيمس تويت) المقتنع بان العراقيين استخدموا مواد كيماوية وبيولوجية أو جراثيم مكيّفة بالهندسة الوراثية ، وان قدراتهم أذهلت الغرب.

الدكتور (هيرب سميث) كان قبل الحرب قد اجتاز بنجاح اختبار اللياقة البدنية الشديد في قوات (المارين) الامريكية، لكنه الآن يعاني الأوجاع ويتنقل على الكرسي السيار . وهو يعاني من انهيار تام لجهازه العصبي . قد أقنعه حدثان بوجود أسلحة كيماوية وبيولوجية في ميدان القتال أولهما شاهده خارج مدينة الكويت يوم تحريرها : رأيت طيوراً تسقط من السماء: في اليوم التالي أخذوا يأتونني بهذه الطيور لعلمهم انني طبيب بيطري». وبعد ذلك بثلاثة أيام صادف قطيعاً من الجمال الفاطسة. وما أثار ارتيابه هو العثور على ذباب ميت على جثث الجمال، فهو يقول :

«ما أهلك الجمال أهلك الذباب معها». وأكد مهندس كيماوي عراقي لاجيء في بريطانيا ان صدام قد راكم الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في برنامج مكثف ، وأوضح المهندس سبب عدم اكتشاف مراقبي الأمم المتحدة لهذه الأسلحة : «ان الأسلحة تنقل من مكان إلى مكان آخر خلال أيام أو حتى في اليوم الواحد ، فمن المتعذر العثور عليها جميعاً. مازال هناك ٤٠٪ منها مخفية».

لقد جمع محقق القناة الرابعة و(غارديان)الأدلة العيانية من جنود عديدين في بريطانيا وامريكا . انهم ينتمون الى وحدات مختلفة ولم يسبق لهم التحادث . لكنهم يدلون بالشهادة ذاتها عن هجمات بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية.

يوم ٢٠ كانون الثاني ١٩٩١ كان (روي بتلر) ضمن وحدة هندسية معسكرة في ميناء الجبيل السعودي . أيقظوه عند الثالثة فجراً فوجد السماء فوقهم أشبه بكرة ضخمة من النار :

«سمعنا انذار الهجوم الكيماوي فعدونا الى الملاجئ . وحين وصلت شعرت بالحرقة في وجهي ويديّ وبقية أنحاء جسدي المكشوفة، وأخذت شفتاي بالخدر . وشاهدناما يشبه الضباب أو المطر. قبعنا في الملجأ ونحن ببدلات الكيماوي . وحين ثبتنا مؤشر الراديو على الموجة التي يتخاطب عليها الجنود البريطانيون سمعناهم يقولون ان أجهزة مراقبة السلاح الكيمياوي عندهم قد اكتشفت غازي الخردل والسارين. ولكن

في اليوم التالي قيل لنا في ساحة العرضات ان الانفجار نجم عن اختراق طائرة نفاثة حاجز الصوت وان جهاز الانذار قد انطلق بفعل وجود أبخرة نفطية .. مع العلم ان الأبخرة النفطية لم تطلق انذار الكيماوي من قبل ابداً. لقد حاربت في فيتنام وأعرف هذا الدوي. لم يكن بفعل اختراق حاجز الصوت بل كان بفعل انفجار صاروخ. أمرنا الضابط الا نأتي على ذكر هذا الحادث.»

يعاني الجندي البريطاني (ريشارد ترنبول) من مرض انتفاخ الرئة بعد تعرضه للسلاح الكيماوي في هجوم بصاروخ سكود اثناء حرب الخليج، وهو شأن الامريكي (بتلر) مازال منذ خمس سنوات يعاني الاسهال المستمر وأوجاع المفاصل والربو . وتظهر على زوجته أعراض مماثلة. ويقول البريطاني الآخر (تيري ولكر) الذي كان معسكراً في الميناء السعودي نفسه :

«بعد الانفجار انطلقت أجهزة اكتشاف غاز الأعصاب التي كانت عندنا وعددها ٢٧. لم أستطع ارتداء البدلة الواقية بالسرعة اللازمة . فشعرت بحرقة لاهبة في جلد رأسي وعنقي وظهري. ظننت انني أوشك على الهلاك ، ففكرت بزوجتي وطفلي ؛ ماذا سيفعلون بدوني؟ ثم جاء ضابط ليأمرنا ان نبقى بالبدلات الواقية . وفي اليوم التالي قالوا ان الدوي أحدثته طائرة اخترقت حاجز الصوت ، وأمرونا بعدم التحدث عن الموضوع.

في ٢٥ تشرين الأول ١٩٩٥ قدمت لجنة مجلس العموم لشؤون الدفاع تقريرها حول مصيبة المحاربين ، وفيه وجهت انتقاداً شديداً لوزارة الدفاع بالقول: «يرعبنا ان وزارة الدفاع لم تهتم حتى بجمع المعطيات لتسهيل القيام بدراسة وبائية عن مشكلتهم رغم مرور أكثر من أربع سنوات على حرب الخليج، وسنتين على تأليف مجلس للتحقيق». وذكر التقرير ان المصابين يمنعون من الاطلاع على أضابيرهم الطبية.

أما في أمريكا حيث سجل ما يزيد على ٧٠ ألفاً من مرضى حرب الخليج ، فقد شكلت ١٢ فريقاً لدراسة أمراضهم، وفي بريطانيا أقام ٧٩٥ من زملائهم الدعوى على وزارة الدفاع بسبب اهمال مصابهم.

ترجمة: الثقافة الجديدة .

عن الملحق الاسبوعي لصحيفة الغارديان

لندن ١٦/١٢/١٩٩٥

أمريكا من الداخل

أرقام ومؤشرات

• عدد السكان ٢٥٨ مليون نسمة عام ١٩٩٣ والمعدل المتوقع لحياة المولودين الآن ٧٦ سنة .

• حسب التقرير السنوي للبنك الدولي عام ١٩٩٣ كان الناتج القومي الإجمالي لأمريكا ٦٢٥٩,٩ مليار دولار يليه في الضخامة ناتج اليابان البالغ ٤٢١٤,٢ مليار دولار . أما معدل هذا الناتج للفرد من السكان فجاءت أمريكا في المرتبة الخامسة بواقع ٢٤٧٤٠ دولاراً بعد النرويج ، الدانمارك ، اليابان وسويسرا التي كانت في القمة بواقع ٣٥٧٦٠ دولاراً . (ومن مفارقات عالم اليوم أن هذا المؤشر كان معدله ٣٠٠ دولار فقط في البلدان الأفقر (مع استبعاد الصين والهند) وكان ٩٠ دولاراً فقط في تنزانيا) .

• وحسب التقرير ذاته كان معدل النمو السنوي للناتج الأمريكي ١,٧٪ بين ١٩٨٠ - ١٩٩٣ . لكن القوة الشرائية لمداخيل العاملين ، أي دخلهم الحقيقي ، استمر في الهبوط بين ١٩٧٤ - ١٩٩٤ حسب الإحصاء

الرسمي ، إذ هبطت حصة أربعة أخماس الأسر من ٥٦,٥٪ إلى ٥٠,٩٪ من مجموع المداخيل الأسرية فيما ارتفعت حصة الخُمس الأغنى من ٤٣,٥٪ إلى ٤٩,١ من هذا المجموع . ولو أخذنا الخمسة بالمئة في قمة الثراء فإن حصتها ارتفعت من ١٦,٥٪ إلى ٢١,٢٪ من المجموع .

- وحسب الإحصاء الرسمي أيضاً فإن ربع العاملين بدوام كامل يكسبون أقل من ١٤ ألف دولار سنوياً وهو خط الفقر حالياً . ومجموع السكان الذين يشملهم هذا الفقر يبلغ حوالي ٤٠ مليون نسمة . ويتوقع زيادة عددهم لو تحققت مطالب التقشف التي تصر عليها الأكثرية النيابية الجمهورية .

- عام ١٩٩٥ بلغت النسبة الرسمية للعاطلين عن العمل ٥,٦٪ من مجموع القوى العاملة ويتوقع زيادة النسبة في العامين التاليين نظراً للتباطؤ المتوقع في نمو الإقتصاد .

- مجموع المساجين ١,٥ مليون فرد ، نصفهم من السود بينما نسبة السود ١٤٪ فقط من السكان .

- عام ١٩٩٢ جمع كلنتون العشرين مليون دولار المسموح بها قانوناً لحملته القادمة وعليه أن يغطي بقية التكاليف من «كيسه» ، علماً أن ما أنفقه بوش من كيسه فوق التبرعات القانونية بلغ ٣٨ مليون دولار وذلك في الحملة الإنتخابية لعام ١٩٩٢ التي بلغت فيها نفقات مرشحي الرئاسة والكونغرس والولايات ما مجموعه ١١٢٨ مليون دولار .

أمريكا من الداخل

الاثرياء يزدادون ثراءً

وليم كريدر

هناك ما يبعث على الحيرة حقاً، فيما تنشره صفحات المال في الصحف: الحكومة تسعى الى دفع الاقتصاد الى التباطؤ، آخذة بعين الاعتبار انخفاض البطالة الى حد كبير، والأجور الوسطية ربما ستشرع في الارتفاع فعلاً في الوقت الذي أخذ فيه هذا الاقتصاد أخيراً بالتحسن. من تمثّل الحكومة اذن؟ ولماذا يحدث هذا ؟ لأن الأغنياء هم الذين يديرون البلاد. ان الحكومة، في هذا المثال، هي ليست البيت الأبيض حيث يقيم كلنتون، كما هي ليست الكونغرس الذي يهيمن عليه الجمهوريون ويراسه نيوت كنكرج ؛ الحكومة الفعلية هم طاقم الموظفين الغامضين الذين يوجهون الاقتصاد الامريكي فعلاً : هم أعضاء مجلس الاحتياط الفدرالي، أي البنك المركزي، الذين يعملون في مبنى فخم قريباً من البيت الأبيض. ان المجلس الفدرالي ـ وليس رئيس الجمهورية ـ هو الذي يوجه الاقتصاد من خلال السيطرة على عرض (أي كمية) النقود والائتمان في البلاد؛ اذ قرر المجلس الفدرالي أن يشد العنان وان يرفع من سعر الفائدة أكثر فأكثر حتى يهمد الاندفاع الراهن للاقتصاد أوحتى يتلاشى ويتحول الى ركود اقتصادي.

ان قرار المجلس الفدرالي هو موقف سياسي لكنه يعرض هذا الموقف وكأنه تدبير اقتصادي خال من الغرض. ان السياسة المالية تدور دائماً، حول السؤال التالي : الدفاع عن مصالح مَن، والتضحية بمصالح مَنْ؟ ان النتائج التي تسفر عنها هذه السياسة هي أعمق من أي شيء يتناقش حوله كلنتون وكنكرج الآن. ان

الديموقراطيين والجمهوريين يتنافسون من أجل كسب ودّ الطبقة المتوسطة المصارعة باقتراح تخفيضات مختلفة في الضرائب لصالح العوائل. لكن النتائج الفعلية لأي شيء ينجزونه هنا هي ضئيلة بالمقارنة بما فعله المجلس الفدرالي حتى الآن بهذه المجموعة من السكان.

ان المجلس الفدرالي (البنك المركزي) برفع السعر الأساسي للفائدة، قد فرض بالنتيجة «زيادة في الضريبة» على جميع المستهلكين وأصحاب الأعمال، رافعاً أعلى فأعلى، شهرياً، دفوعات الرهون على البيوت مثلاً، ورافعاً الأسعار الحقيقية على كل شيء، من السيارات حتى المشتريات اليومية ببطاقة الائتمان. والمجلس الفدرالي. وهو ينفذ ارادته، لا مناص من ان يختار الرابحين والخاسرين في هذه العملية. وهكذا يخسر المقترضون - وهم الأغلبية الساحقة في المجتمع الامريكي - بينما تربح المجموعة الصغيرة نسبياً من مقرضي المال الكبار المتنفذين من الفائدة الأعلى للقروض التي يقدمونها.

ان هذه السياسة تبعث على حيرة لها ما يبررها. فمهما يكن من أمر، ليس من المعقول ان تعمد الحكومة الى لجم الاقتصاد حين شرعت البلاد تخرج أخيراً من الأزمة الأخيرة. ان الاقتصاد الآخذ بالتوسع يخلق فرصاً جديدة للعمل، والبطالة قد انخفضت. واستثمار رؤوس الأموال قد تنشّط، ولكن معدلات الأجور لازالت متدنية من حيث القدرة الشرائية، والمستهلكين لا يزالون يعانون من الديون الكثيرة، والدخل المتوسط للعوائل الأمريكية لم يتحسّن بعد في ظل هذا الانتعاش كما يحدث عادة في أطوار الانتعاش خلال الدورة الاقتصادية.

فما الذي يخشاه، اذن، المجلس الفدرالي ؟ انه شبح الأجور اذا أخذت بالارتفاع، وما يعقبها من تضخم. فطبقاً لما يقول به رئيس المجلس الفدرالي كرينسبان فان الاندفاعة الراهنة اذا استمرت، فان أسواق العمل ستتوتر، وستصبح الاتحادات العمالية والعمال المنفردون في وضع يستطيعون فيه المطالبة بأجور أعلى. حينئذ قد يُضطر أصحاب الأعمال الى رفع الأسعار ولحماية معدلات الربح، وان هذا، في النهاية، سيسود كل الاقتصاد، واذا ما اشتدت وطأة التضخم، فانه سيقود الى هبوط في قيمة النقود ويُرمى بقرارات الشركات في لجة المخاطر.

إن التجربة المرة للتضخم في الأسعار الذي تصاعد عاماً بعد عام في أواخر السبعينات، والذي تحول الى هاجس في السلوك الاقتصادي للجميع، لا تزال تلوح أمام المجلس الفدرالي، ولهذا قرر ان يخوض المعركة الأخيرة وأن يكسبها هذه المرة.

لكن الجديد الآن، ان المجلس الفدرالي يزعم بان له الحق في اللجوء الى ضربة وقائية – ان يضرب العمل بمطرقته حين لا تزال سوق العمل تترنح وقيمة الأجور آخذة بالتدني، أي ان يخوض معركة تضخم الأسعار قبل أن تلوح أية بادرة على وجوده، وحجة المجلس الفدرالي في هذا ان الناس حالما يتوقعون تضخماً في الأسعار، فان الجميع، من مدراء الأعمال حتى المستهلكين، سيتصرف على هواه، وحينئذ يتفاقم التضخم ويغدو من العسير ايقافه. لذلك يتعيّن كبحه قبل حدوثه. بيد ان هذا المنطق الملتوي، وما تنجم عنه من آثار مدمرة على الاقتصاد، لم يجرؤ على التصدّي له أحد من الساسة البارزين، باستثناء قلة من أعضاء الكونغرس الشرفاء.

في العام الماضي ارتفعت مؤشرات أسعار المستهلك بوتيرة معتدلة نوعاً ما (٢,٧٪). الا ان معدل الأجور لعام ١٩٩٤، اذا ما روعي فيه أثر التضخم، كان ٧,٤٠ دولار في الساعة مقابل ٧,٦٤ دولار في الساعة عام ١٩٨٩. غير ان لغة الاقتصاديين تحابي مصالح قطاعات بعينها. فاذا مازادت الأجور قيل ان ذلك تضخم.. ولكن اذا ما زادت أسعار الأسهم سميّ ذلك ازدهاراً اقتصادياً.

بصراحة، ان المجلس الفدرالي ينتهج ستراتيجية غايتها استمرار الهبوط في الأجور الامريكية – رغم وعود كلنتون واضرابه من الساسة، في المناسبات، بعزم الحكومة على قلب هذا الاتجاه. الا ان كلنتون لم يحرك ساكناً فيما واصل المجلس الفدرالي سياسته. لعله يخشى ان يوصف باللبرالي غير المسؤول، أو ربما يتفق مع فهم المجلس الفدرالي للأولويات ولكنه لأغراض الدعاية، يبدي أعمق تعاطفه مع المتضررين.

حقاً، ان بعض المتقاعدين ذوي الدخول الثابتة، وبعض الناس الذين يمتلكون مبالغ مدّخرة، سيستفيدون من سياسات المجلس الفدرالي. بيد ان معظم الثروة المالية في الولايات المتحدة يتركز، والى حد بعيد، في أيدي قلة صغيرة جداً من الناس. ان ٨٥٪ من الثروة المالية التي يمتلكها الأفراد هي من نصيب ١٠٪ فقط من العوائل. لكن هذه الاحصاءات، ويا للغرابة، لا يشار اليها في المناقشات العامة، ويحسب المحررون الماليون في الصحف ان كل امرئ يملك الأسهم على غرارهم.

ان المجلس الفدرالي اذا ما حفّز على الانكماش العام وتعاظمت البطالة من جديد، فان الاقتصاد المالي سيحظى بازدهار جديد. حينذاك سيعمد المعلقون الاقتصاديون الى وصف هذه المحنة بكلمات مسيحية ورعة كقولهم انها بمثابة فاصلة غير مريحة يتناول خلالها الجميع دواء مزعجاً لشافاة تخمة ماضية. ولكن

المفارقة هي ان قطاعات معينة فقط يتوّجب عليها ان تتناول هذا الدواء المزعج وهم، على العموم، ليسوا من المتخمين.

لاشك ان كل امرئ تقريباً سيعاني اذا ما تجاوز التضخم في الأسعار حدود السيطرة تماماً، هكذا يحاجج المجلس الفدرالي. لكن السياسة النقدية تدور حول المخاطر التي يراد تحمّلها والمخاطر التي يراد تجنبها. فاذا أخذنا بالاعتبار التدهور العام في المستوى الامريكي للمعيشة، فان المجلس الفدرالي يتعيّن عليه أن يحمّل الشريحة العليا في المجتمع هذه المخاطر ـ وبذلك يسمح للنمو الاقتصادي بأن يتواصل بكل قوته.وذلك هو ما يعزز استثمار المزيد من رأس المال مما يوسّع الطاقة الانتاجية للبلاد ويخلق فرصاً جديدة للعمل ويرفع الأجور. ولكن حين يخنق النمو الاقتصادي يتوقف الاستثمار الجديد للمال وما يترتب عليه من ازدهار.

واذا أخذنا بالحسبان وعود الجمهوريين بتشريع تخفيضات رئيسية في الضريبة بالنسبة لمالكي رأس المال الأثرياء، فان عام ١٩٩٥ سيولد نسخة مشوّومة من التضارب المدمّر في السياسات الاقتصادية الذي حدث في عام ١٩٨١ حين عمد الرئيس ريغان الى فرض تخفيضات واسعة في الضريبة بينما كان المجلس الفدرالي يحفّز على كبح الاقتصاد عن طريق التضييق على عرض الائتمان. نظرياً قد تحفّز تخفيضات الضريبة الانتعاش في اقتصاد منكمش، لكن هذا قد لا يحدث اذا رفع المجلس الفدرالي أو المستثمرون العالميون سعر الفائدة.

ان المستثمرين سيدركون،عاجلاً أم آجلاً، لعبة الجمهوريين : تخفيض الضرائب أولاً، ثم تقليص الانفاق الفدرالي من بعد، والأفضل، بعد انتخابات ١٩٩٦، وستكون النتيجة : تعاظم العجز الفدرالي لعام ١٩٩٦، وهذا وحده سيزيد خوف المستثمرين من التضخم، وسيدفع المجلس الفدرالي للضغط على الفرامل أكثر فأكثر.

ان هذا السناريو يشبه عراك الديوك. فأي طرف من الحكومة ستطرف عيناه ويتراجع؟ عدا ما كشف عنه مؤخراً، فان كلا الجانبين لم تطرف عينه بعد. وبالنتيجة، استمر العجز الهائل منذ عهد ريغان الى الآن، وانما كذلك المستوى العالي لمعدل الفائدة الذي خنق الاقتصاد في عهده.

لقد تلقى كلنتون حتى الآن عدداً من الضربات لكنه مقبل على ما هو أشد إيلاماً، الا وهو الركود الاقتصادي، فلو حدثت تقلصات جادة في النشاط الاقتصادي خلال السنة الانتخابية ١٩٩٦ فان كلنتون مقضيٌ عليه لا محالة. ومثل

هذه الحالة أدت الى هزيمة الرئيس كارتر عام ١٩٨١، ومثله حدث لجورج بوش عام ١٩٩٢، وكما كانت الحال مع الركود في عهدي كارتر وبوش، فان المجلس الفدرالي يهندس ركود كلنتون الآن. لقد رفع المجلس الفدرالي معدل الفائدة ست مرات في عام ١٩٩٤، وهو عازم على مواصلة عملية العصر أوالشدّ هذه في العام الحالي لابطاء النمو الاقتصادي، واذا ما استطاع بلوغ هذا الهدف وقلب مسيرة الاقتصاد الى ركود حقيقي، اذاك سيتهرب من المسؤولية ويعرب عن أسفه بأحاديث مراوغة ذات وجهين عن تعقيدات السياسة المالية.

«ما نهدف اليه هو تجنب ركود غير ضروري ومدمّر»، هذا ما أفصح عنه كرينسبان رئيس المجلس الفدرالي، في الكونغرس عام ١٩٨٩، ووعد يومها، بديلاً عن ذلك بتخفيف الضغوطات المعتادة من أجل أجور أعلى وأسعار أعلى. فاذا كان كرينسبان، صادقاً في قوله، فان خطأه الكبير تجلى في ركود عام ١٩٩٠ وعواقبه المرعبة التي تمثلت في موجة افلاس الشركات وتفشي البطالة وتصاعد نفقات الضمان الاجتماعي لاغاثة العاطلين.

ربما سيوفّق كرينسبان في سياسته هذه المرة، ولكن لا يمكن الركون لمثل هذا الاحتمال. فالأمر العُجاب في النظام الاقتصادي الأمريكي انه ما ان تشرع ماكنته بالدوران في اتجاهاته المختلفة، كما هو الشأن الآن، حتى يصبح من العسير ابطاؤه. وهذا بالضبط ما يدفع المجلس الفدرالي الى مواصلة ضربه على الرأس بنسب الفائدة الأعلى فأعلى، كما يضرب البغل العنيد حتى يذعن.

ان عدداً من المحللين يتنبأ باذعان البغل بشكل أو بآخر.. لا أحد يستطيع أن يحدد متى سيحدث هذا بالضبط، الا ان احصاءاتهم تفترض ان دورة الاقتصاد ستصل ذروتها ثم تأخذ بالانحدار عام ١٩٩٦.

فاذا ما حدث الأمر على هذا النحو، فان التوقيت سيكون شؤماً على الحياة السياسة الأمريكية. فالناخب الذي بات نهباً للقلق والغضب جراء الاضطرابات الاقتصادية سيتوفر لديه سبب جديد ليصب جام غضبه على كلنتون. ربما سيوجه الناخبون بعض اللوم الى الأغلبية الجديدة للجمهوريين في الكونغرس. ولكن، كما هي الحال دائماً، فان رئيس الجمهورية ينسب لنفسه، كالعادة، الفضل في الأخبار الجيدة ـ كما فعل كلنتون ـ ويعاني أكثر من غيره حين تسوء الأمور.

ان الجدال الاقتصادي انما هو حول السلطة السياسية ـ السلطة غير المحدودة للمجلس الفدرالي لتوجيه الاقتصاد نيابة عن قطاعات معينة، وجبن

الساسة من كلا الحزبين عن تحدّي قراراته. فلو جرى اصلاح المجلس الفدرالي، وأُخضع الى رقابة المجتمع، والى مزيد من المساءلة المباشرة أمام المسؤولين المنتخبين، حينئذ لن تكون النقاشات الاقتصادية ولا الخيارات الصعبة غير مجدية. وحينئذ يمكن ان تعلو أصوات أخرى كثيرة في الحوار ـ لاسيما أصوات الناس الذين هم أكثر من غيرهم ضحية النظام الراهن.

ان الطبيعة غير الديمقراطية للمجلس الفدرالي ستبدو واضحة للعيان أكثر في أواخر هذا العام حين يحين موعد تجديد رئاسة ألآن كرينسبان للمجلس. فهو من الجمهوريين المحافظين (شأن أغلب حكام المجلس) وقد عُين لأول مرة من جانب ريغان.والآن توشك دورته الثانية على الانتهاء في مطلع ١٩٩٦. اذاك ستتوفر لكلنتون الفرصة لاختيار الرئيس الذي يرغب فيه ـ ولكن ليس قبل انتهاء ولايته هو، وحينئذ سيكون قد فات الأوان لاجراء اي تغيير. هذا خلل. فان أي رئيس يُلام على سياسات المجلس الفدرالي ويتعين عليه ان يكون له بعض السلطة على من يديره.

فاذا ما أخذنا في الحسبان ما يتحلى به كلنتون من ضعف عام، فانه ربما سيقوم بتجديد رئاسة كرينسبان. لماذا؟ لأن الجمهوريين الآن يهيمنون على مجلس الشيوخ الذي يصادق على تعيين حكام المجلس الفدرالي الجدد، وهم واثقون من انهم سيحولون دون تعيين مرشحي كلنتون غير المحافظين كما ينبغي. يستطيع الجمهوريون أن يماطلوا في المصادقة على التعيين الى ما بعد انتخابات ١٩٩٦ أملاً بالفوز بالبيت الأبيض أيضاً. وفي محادثات خاصة سلَّم المستشارون الاقتصاديون للرئيس كلنتون بهذا، آخذين في حسابهم ان كرينسبان ربما سيكون الاختيار الوحيد الذي يحظى بقبول الجمهوريين.

هكذا فان الانتخابات الرئاسية ستجري عام ١٩٩٦، الا ان الحكومة الحقيقية في واشنطن لن تتبدل حتى لو ان الناخبين أبعدوا كلنتون (....) ان المصالح المالية الجبارة ـ من البنوك التجارية حتى مستثمري الوول ستريت ـ تتعبأ دائماً حول مجلس الاحتياط الفدرالي وهي تريد النظام الذي يجري العمل به الآن، أما جمهور الاجراء فلا يعرف من الذي يسبب له المتاعب، ولأي غرض ؟

ترجمة كامل علي

عن مجلة: ROLLING STONE

أمريكا من الداخل

احتضار الحلم الأمريكي

مايك بايكريف

عاشت أمريكا أياماً غريبة في عام ١٩٩٤، فقد هزتها سلسلة من الفضائح والجرائم المثيرة، مثل إيذاء المغني مايكل جاكسون للأطفال جنسياً، ومحاكمة اللاعب الزنجي سيمسون بتهمة قتل زوجته وعشيقها الأبيض. فمثل هذه الأمور الصغيرة تحولت إلى هواجس وطنية ألهت الأمريكان عما يشعرون به من قلق على بلادهم. لكن هذا القلق انفجر في الإنتخابات الأخيرة التي أسفرت عن سيطرة الجمهوريين المحافظين على الكونغرس، وذلك للمرة الأولى منذ ٤٠ سنة.

هل يمكن أن تصاب الأمم بالانهيار العصبي؟ ماذا دهى أمريكا؟ لقد انتهت الحرب الباردة، الآن على الأقل. وانتهى الإنكماش الإقتصادي حالياً على الأقل، وأصبحت أمريكا وسط الإنتعاش سابقة أوروبا بشوط طويل. وهي ماتزال أغنى بلدان العالم. وطبقتها الوسطى، الواسعة جداً، تعيش حياة أطول وأفضل صحة وراحة وضماناً من أية جماعة أخرى عبر تاريخ العالم.

مع كل ذلك، فإن استطلاعات الرأي ووسائل الإعلام تطفح بالقلق حول أوضاع البلاد. فمجلة (تايم) تتساءل: «لمن ينتعش اقتصادنا؟» أما صحيفة (لوس أنجلز تايمز) فتشخص العلة بكونها «نوبة القلق الأمريكي» ووصفت الزمن بكونه «عصر القلق الجديد». إنه الخوف على تلاشي «الحلم الأمريكي» ذاته، وهو خوف يشار إليه تلميحاً ولكن الحاجة إلى نفيه برهان على أنه موجود.

حالياً تدور الأزمة الأمريكية حول الرئيس كلينتون، غير أنه لم يخلق هذه الأزمة. فقد انتخب رئيساً في غمار موجة من التفاؤل، لكنه واجه، منذ البداية

هجوماً مستمراً، ابتداء من اتهام الصحافة له بالضعف وعدم الكفاءة، إلى تهمة اليمين المتطرف له بجريمة القتل. فقد صدمه هذا الإنتقاد بسعته وشدته. ثم جاءت النتائج المدمرة للإنتخابات. غير أن الخلاف حول كلينتون، هو في حقيقته خلاف حول أمريكا. فالظروف تتغير من حولها، وهي منقسمة على نفسها حول الحاجة إلى تغيير نفسها.

أراد كلينتون أن يكون رئيساً إصلاحياً. لكن، كما سنرى، فإن الحياة السياسية الأمريكية تنطوي على مقاومة مؤسسية للإصلاح الإجتماعي. فطيلة القرن الحالي، كان التغلب على هذا المأزق المألوف يتطلب أزمة خارقة غير سياسية. وقد حصل ذلك مرتين فقط. فالكساد العظيم في الثلاثينيات وكساد أوائل الستينيات الشديد هما بالضبط فترتا إصلاحات إجتماعية هامة. والأزمة الراهنة تنطوي على عناصر من تلكما الأزمتين معاً، لكن بصورة خفية وأقل احتداماً. فهناك الاضطراب الإقتصادي وتفشي الفقر، من جهة، ويأس السود وعنفهم في المدن، من الجهة الثانية. والأزمة من الخطورة ما يكفي لإحداث الألم، لكن هذا الألم لم يبلغ الشدة التي تفرض التغيير فرضاً.

انتخب الأمريكان كلينتون لأنهم أرادوا التغيير، لكنه ما ان يقترح تغييراً محدداً حتى يرفضوه. وكما هو الحال في بريطانيا، فإن إدراك الناس أن بلادهم في انحطاط مع ما يرافقه من مشاكل معقدة، هذا الإدراك يمكن أن يدفعهم إلى البحث عن حلول يمينية ذات طابع تبسيطي، مثل العودة إلى أيام العز حين سادت الثقة الوطنية والتوسع الامبراطوري. ونجد مثل هذا الحل المزعوم في شخصية ريغان وفي خطابه. ما كان ريغان محض دخان. فقد شهدت الثمانينيات تحولاً نحو اليمين في السلطة السياسية في أمريكا وفي بريطانيا معاً. فقد استطاعت تاتشر ورهطها أن تفرض الكثير من هذا التحول في بريطانيا باستخدام الصلاحيات الخارقة التي تمتلكها السلطة التنفيذية البريطانية. أما في أمريكا فكان ريغان ورجاله أكثر تعبيراً عن التغيرات الإجتماعية والإقتصادية التي حصلت فعلاً.

في أواخر الستينيات كان الرئيس الجمهوري نيكسون موضع كراهية كل اللبراليين والتقدميين في أمريكا رغم أن برنامجه كان: سيادة القانون والأمن، الرعاية الصحية الوطنية، والإصلاحات الهادفة إلى الرفاهية. وهذا بالحرف الواحد هو برنامج كلينتون في أول سنتين من عهده. لكن ما بدا محافظاً في الستينيات أصبح يبدو راديكالياً إلى حد خطير في التسعينيات، في عهد الديمقراطي كلينتون.

إن التحولات الضخمة في السلطة الإجتماعية ـ السياسية لا يمكن صنعها رغم كل ما تمتع به ريغان وتاتشر من مهارات سياسية. فالتحولات السياسية أساسها إقتصادي. والحياة السياسية الراهنة في أمريكا تعبر عن انحطاط أمريكا الإقتصادي. والأزمة الأمريكية الحالية هي أزمة هذا الإنحطاط الإقتصادي. في بريطانيا كان التدهور أطول عهداً بكثير وأقدم تطوراً وأشد عناداً. فسادت الامه طيلة قرن تقريباً. أما في أمريكا فإن انحطاطها ظاهرة جديدة مازالت في طور النشوء. والأمريكان مايزالون يتمتعون بكثير من الرفاهية والضمان قياساً إلى غيرهم، سوية مع حاجة نفسية ملحة عندهم لإنكار وجود هذه الظاهرة. فقد أظهر استطلاع للرأي العام في أمريكا أن ٦٥ - ٧٠٪ من المشاركين يعتقدون أن بلادهم تسير في الاتجاه الخاطئ، وأن ستة من كل عشرة ناخبين في الإنتخابات التكميلية يرون أن الإقتصاد في وضع سيء وأغلبهم انتخب نواباً جمهوريين. والأمريكان يعلمون جيداً أن هناك خللاً، لكنهم إما لا يعرفون ما هو الخلل أو أنهم لا يريدون أن يعرفوه.

وهناك ظاهرة قلق أو هلع في أمريكا بسبب تفشي الجرائم، وكأي موجة ذعر عامة، فإنها توجه أصابع الإتهام إما للفئات الإجتماعية الفقيرة أو العاطلين عن العمل أو الأمهات بدون أزواج، أو المهاجرين، وأما الفئات أو المجموعات العرقية الصغرى التي تتهم.... بينما يوصف الشباب بقلة التعليم أو سوئه، أو بالخيبة. إذ يسود الأمريكان شعور عام بالإحباط بسبب ما يعتبرونه عدم تكافؤ التنافس بينهم وبين البلدان الأخرى، والتميز ضد الاستثمارات الأمريكية من لدن الآخرين، والتحدي السافر لهم في مناطق التوتر الساخن، مثل البوسنة والصومال. كل هذا يتزامن مع النقص الشديد في ثقة الأمريكان بالحكومة متمثلاً بما يعرف بفضيحة (وايت وترز)، التي شجعت النواب الجمهوريين للدعوة إلى تحديد عدد المرات التي يحق للسياسي أن يرشح نفسه والإتجاه إلى تشريع قانون يلزم الحكومة المركزية بتقديم ميزانية بدون عجز.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل هناك تشوش في رؤية الأمريكان إلى ما اصطلح عليه بالإنتعاش الإقتصادي الحالي الذي يبدو أنه لا يطال الكثير من الأمريكان أو يغير من مستوى معيشتهم. أعراض الإنحطاط تثير الحيرة، فالخمسينيات والستينيات كانت بمثابة العصر الذهبي حتى ذهب البعض لوصف القرن بأنه أمريكي. كانت أمريكا تحكم العالم اقتصادياً، والهوة التي تفصلها عن

الآخرين شاسعة. لكن ذلك كما يقول جول كرايكر في كتابه «ريغان وتاتشر وسياسة الإنحطاط» «بلغ نهايته مع نهاية الستينيات وانتهى عملياً عندما رفعت الأوبك أسعار النفط عام ١٩٧٣، وما تلا ذلك من كساد إقتصادي». ثم تسارع الإنحطاط، فصارت الصناعات الأمريكية الكبرى تعاني أضراراً شديدة بسبب المنافسة الأجنبية. وصارت أمريكا في منتصف الثمانينيات أكبر دولة مدينة بعد أن كانت دولة دائنة رئيسية. الأمريكان ومن قبلهم البريطانيون، يلومون أنفسهم لكونهم غير كفوئين او يفتقرون للتعليم اللازم أو أنهم مبذرون أو أن حكوماتهم مسرفة. والحقيقة أن القصور في الأفراد والشركات وضخامة الإنفاق العسكري، خلال حرب فيتنام والحرب الباردة، إن ذلك كله قليل الأهمية بالقياس إلى حركة القوى الإقتصادية فالعوامل التي كانت في صالح أمريكا صارت تعمل ضدها. فقد اتخذت الرأسمالية طابعاً عالمياً فنشأ الإقتصاد العالمي.

كلنا يعلم أن التغيير الإقتصادي يتسبب في إحداث تغيير إجتماعي، ولكنه لا يقرر ماهية هذا التغيير. في أمريكا اليوم، كما في بريطانيا، هذه التغيرات حادة لدرجة يختلف الناس في تفسيرها حتى أن البعض يرى أن الحلم الأمريكي نفسه يتلاشى أو يحتضر.

لكي نفهم معنى «الحلم الأمريكي» علينا أن نتذكر أن الولايات المتحدة بحجم قارة استوطنها مهاجرون من بلدان شتى. ولعب «الحلم الأمريكي» دوراً حيوياً في تماسك أمريكا. لكن الحفاظ على هذا التماسك بات قضية مركزية في تاريخ أمريكا. وكان خلق ديمقراطية سياسية لشعب متعدد الأعراق والأجناس هو الحل لهذه المشكلة. بيد أن الحلم نفسه تغير كثيراً عبر السنوات. فقد كان الحلم في زمن الثورة الأمريكية يصور امريكا بأنها مدينة الحرية التي تشع من فوق ربوة عالية بنورها لتبدد ظلام أوربا الفاسدة. وكما غيرت الصناعة والهجرة الواسعة أمريكا خلال القرن التاسع عشر، تغير الحلم ذاته إذ تحول طابعه من المثالي إلى المادي المندمج بالرأسمالية. فنشأ الحلم الأمريكي المعاصر، حلم الفرصة السانحة لكل شخص أن يشق طريقه من الفقر إلى الثراء، وليصبح كل جيل أفضل من سابقه. ولدرجة غير مسبوقة في بلدان أخرى، صار هذا الحلم حجر الزاوية في إيمان السكان بالحياة الأمريكية والحافز الرئيسي لميل الأمريكان لتقبل الإتجاهات اليمينية للفردانية. ولكن لهذا الحلم المعاصر شرطه في اللاوعي، فهو لا يعيش إلا على رفاه متناه وتقدم مستمر وتوسع غير محدود.

رغم أن حدود أمريكا مفتوحة لاستقبال البضائع الرخيصة والمهاجرين الباحثين عن فرص العمل، فإن هناك تخوفاً يسري بين الأمريكان من حدود جديدة بدأت تظهر داخل البلاد، وأن أمريكا آخذة في التفكك والتقوقع في صراع شامل عرقي وقومي وطبقي متداخل. ويمكن لمس ذلك التخوف بشيوع كلمات مثل «الاستقطاب والبلقنة في المجتمع» هذا التخوف يغذي الجانب المظلم من الحلم الأمريكي الذي يمكن أن يأخذ شكل الدعوة إلى التصدي لـ«المندسين والأعداء الداخليين». في أيام نيكسون كان العدو الداخلي والخارجي هو الشيوعية. لاشك أن حماس الأمريكان صار يخبو نظراً لغياب ذلك العدو الواحد. ولقد شط الخيال والهوس بعيداً في البحث عن «الحمر المختبئين والمندسين» حتى صار بعض معلقي التلفزيون الذين يفترض أن يكونوا من الجادين، يتهمون كلينتون بأنه اشتراكي وعميل سري لحركة الهبيين التي تروج لثقافة مضادة على غرار الستينيات، وصدرت كتب تصف التشريعات والأنظمة في الجامعات الأمريكية بأنها إرهاب ستاليني. هذا الهوس تجلى في السنوات الأخيرة بحملات صحفية ضد «الأعداء الداخليين» وطالت دون تحديد أو تمييز المضاربين والمحتالين على نظام الرعاية الإجتماعية والسود والمهاجرين والليبراليين والمتدينين الأصوليين، والمجموعات المعارضة للإجهاض، والمجموعات المؤيدة لحق الإجهاض، والمغتصبين والمعتدين على الأطفال والشواذ وحائزي الأسلحة والداعين لتقييد حيازة الأسلحة والمدخنين، والسياسيين والمحامين والمجرمين وكل الآخرين. هذه القائمة الطويلة إنما تعكس مشكلة سياسية، فليس هناك ما هو مشترك بين تلك الجماعات لتلتقي على برنامج في ظل السياسة الداعية إلى تعبئة الناس حول مشكلة واحدة مشتركة.

لقد استغل ريغان ذلك ورفع شعار معاداة السياسة Anti Politics. ويقلب الوقائع رأساً على عقب سوّغ الإنقسام الطبقي والإجتماعي وزاده حدة لخلق أغلبيته الخاصة به. بعكسه خاض كلينتون حملته بشعار تقليدي أساسه الإقتصاد، ولكن بكلمات جديدة داعياً إلى تجديد الحياة الإجتماعية المحلية. فخلال الخمس عشرة سنة الماضية كان الإقتصاد الأمريكي يعاني عدم الإستقرار. وصفت مجلة (تايم) حالته قائلة «إنه يلهث ساعياً لمواكبة المنافسة الأجنبية» بينما تصفه الشركات الكبرى بأنه في مرحلة التصغير لكي تبرر فصل العاملين بالجملة. عندما عم الركود الإقتصادي في أمريكا أواخر الثمانينيات تفشت البطالة الواسعة وامتدت لتطال لا الطبقة العاملة وحدها، بل أصابت كذلك شرائح من الطبقة الوسطى، كانت

تعتبر نفسها في مأمن. ولكن أغلب العاطلين من الطبقة الوسطى حصل لاحقاً على أعمال مشابهة أو قريبة من المهنة رغم أن ذلك لم يكن دون صعوبات. بينما لم تستطع شرائح واسعة من الطبقة العاملة أن تحصل على العمل في الصناعات الإنتاجية التي كانت جيدة الأجور ومأمونة. وابتدأت مرحلة الأعمال المؤقتة واطئة الأجور، مثل غسل الصحون في المطاعم. ويكفي أن نتذكر أن معدل دخل العائلة الأمريكية كان قد تضاعف خلال الفترة ١٩٤٧ – ١٩٧٣، ولكنه ظل ثابتاً تقريباً للعشرين سنة الأخيرة، لنعرف واقع الإقتصاد الأمريكي. وعلينا أن نتذكر أن المعدل دائماً يخفي الفوارق بين أوطأ الأجور وأعلاها. نجم عن ذلك أن العائلة من الطبقة العاملة صارت تحتاج أجور شغيلين لمجابهة شظف العيش، دافعة بذلك بأعداد هائلة من النساء إلى سوق العمل بأجور زهيدة في وظائف خدمية أو مكتبية. وحولت سياسة ريغان الإقتصادية، اعتماداً على تغييرات هيكلية بعيدة التأثير، الثروة على نطاق واسع من الأمريكان البسطاء إلى الأغنياء، حتى أن محللاً محافظاً، مثل كفين فيليبس، وصف عهد ريغان بأنه «عهد انتصار أغنياء أمريكا». وكما يجري الآن في بريطانيا، فإن الخُمس الأعلى دخلاً من الأمريكان يحصل على أكثر من ٥٠٪ من مداخيل العوائل الأمريكية (بعد استقطاع الضرائب)، بينما أفقر ١٥٪ من السكان انخفضت مداخيلهم الواطئة أصلاً بنسبة ١٠٪. وبصورة عامة انخفضت المداخيل الوسطية خلال الثمانينيات حتى عندما كان الناتج القومي الإجمالي في طور التحسن. كل ذلك حصل بينما كانت إدارة ريغان تشن حرباً مدمرة على نقابات العمال، الضعيفة أصلاً في أمريكا، إذ هبطت نسبة المنتمين إلى النقابات إلى ١٦٪ من مجموع عمال القطاع الخاص. وبدأت الشركات الكبرى تنقل معاملها ومواقع الإنتاج إلى ولايات يكون فيها العمل النقابي ضعيفاً، وإلى خارج البلاد ناقضة بذلك عقود العمل المبرمة مع النقابات على نطاق وطني، وراحت تضغط على عمالها للقبول بأجور واطئة وترك النقابات لقاء التعهد بعدم فصلهم من العمل، (إلا أن الشركات مالبثت أن نكثت بتعهداتها).

يتفق المحافظون مع الليبراليين الجدد على أننا جميعاً «أبناء» العهد الريغاني والتاتشري وكلما ابتعدنا عنه ازداد وضوحاً المعنى الحقيقي لنهجهما، فقد كانا يديران اقتصاد التقهقر وليس الازدهار. لقد طرحا سياستهما على أنها استراتيجية ولازمة لاحداث النهوض الإقتصادي بينما كانت في الواقع خياراً سياسياً بهدف نقل عبء الأزمة الإقتصادية من الأعلى ثروة إلى الأقل ثروة،

ولتعزيز سلطتهما السياسية. وكان لتلك السياسة أثر تحذيري ما أن أفاق الأمريكان منه حتى اكتشفوا أن إقتصادهم يواجه المعضلات ذاتها التي واجهها عام ١٩٨٠، مع فارق أن الخارطة الإجتماعية – السياسية تبدو الآن أكثر تعقيداً مما كانت في ذلك العام. وكان لخفض الضرائب وتقليص الضوابط الحكومية وزيادة الإنفاق العسكري أثرها في كسب تأييد الكثيرين لسياسة ريغان، غير أن ذلك لم يؤد إلى إضعاف الحكومة فقط بل إلى إفلاسها. وهكذا خلف ريغان عجزاً مريعاً في ميزانية الحكومة المركزية وميزانيات سلطات الولايات والمدن المفلسة. وهذا العجز يخلق عقبات جدية أمام أية محاولة للإصلاح كالتي يقوم بها كلينتون في إطار السياسة اللبرالية الجديدة لتخفيف حدة هذه المشكلة الستراتيجية التي تتجاوز الإنقسام التقليدي بين اليسار المنادي بزيادة الإنفاق العام واليمين المعارض للدعم الحكومي. كانت سياسة كلينتون الرامية إلى تعميم الخدمات الطبية وإصلاح نظام الرعاية الإجتماعية تهدف إلى ترشيد الإنفاق من جهة وتوسيع دور الحكومة من جهة أخرى.

وتختلف وجهات النظر بصدد سياسته اللبرالية الجديدة، فالبعض يراها فلسفة سياسية جديدة، بينما يراها آخرون بدعة براقة تدعي التوصل إلى وفاق عام لا وجود له. لقد حاول كلينتون الفوز برضا الجميع فانتهى إلى تبرؤ الجميع منه. فالمحافظون واللبراليون اختاروا ما يعجبهم من سياسته ورفضوا البقية. وفي سعي كلينتون لخلق وفاق وطني صار عملياً يتبنى مواقف معارضيه الجمهوريين اليمينية التي ازدادت تشدداً. وفي محاولة كلينتون التقرب إليهم صار عرضة للانتقاد المتزايد ودخلت سياسته في حلقة مفرغة.

إن فقرة واحدة من برنامج كلينتون تمت المصادقة عليها في الكونغرس، تلك هي تعديل قانون العقوبات، وهي فقرة لم يخطط كلينتون وجماعته لإعطائها أسبقية في برنامجه. لكن التذمر العام والقلق من تفاقم الجريمة والعنف فرضا الموضوع على كلينتون. إن عدد الجرائم أخذ بالإنخفاض قليلاً من ذروته المريعة في أمريكا. لكن الذعر تصاعد إلى أقصى حد. وموجة الذعر الحالية نموذج مبالغ فيه لموضوع مألوف في الحياة السياسية الأمريكية، فلأن أمريكا تفتقر إلى تقاليد الإصلاح الإجتماعي الدوري، فإنها تلجأ عادة إلى إصدار تشريعات حول مشاكل إجتماعية محددة، كمكافحة الجريمة. وهذا من التقاليد الوبيلة لأنه يشوه جذور الإصلاح الإجتماعي ويحمله أهدافاً لا يمكن تحقيقها، ولذلك سيدمغ بالفشل لأنه لن «يحل»

مشكلة الإجرام. من هذا يمكن فهم فشل سياسات الرئيس جونسون التي سماها «المجتمع العظيم» وبدأت كإجراءات لمكافحة انحراف المراهقين.

ما يقلق الأمريكان حقاً في موضوع الجريمة هو العنف. وللجريمة أسباب عديدة. وأصبح مؤكداً لدى الجميع تقريباً أن ارتفاع نسبة الجريمة قد ترافق مع اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء بفعل السياسة المتبعة منذ عام ١٩٩٠، وفوق ذلك هناك أسباب أخرى. فبين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٧٠ انتقل ما بين ٣.٥ - ٤ ملايين أمريكي أسود من الجنوب إلى الشمال. وقد وصف المؤرخ (ليمان) هذه الهجرة بأنها «واحدة من أكبر الهجرات الداخلية للسكان وأسرعها في تاريخ البشرية». يقابلها في الفترة بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠، انتقال ٣ ملايين أمريكي معظمهم من البيض من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربي. علاوة على ذلك دخل أمريكا خلال الثمانينات ١.٢ مليون مهاجر (بصورة قانونية أو غير قانونية) سنوياً من أمريكا اللاتينية وآسيا. في الهجرتين الأولى والثالثة، كان الاتجاه العام لحركة السكان من مناطق ريفية إلى مناطق أكثر تصنيعاً. وإن تحولات على هذا النطاق الهائل لابد أن يكون لها أثرها الإجتماعي والنفسي. ويرى البعض أن العنف يرافق الصدمة الأولى للحياة العصرية لدى جماهير الفلاحين والمزارعين سواء كانوا من مواطني البلاد أم من الغرباء. ولنذكر دائماً بأن القانون الأمريكي يجيز حيازة الأسلحة شأن أي سلعة أخرى، أصبحت تنتج بكميات هائلة وبتطوير مستمر. فليس غريباً أن يكون العنف بهذا الحجم، بل الغريب أن يكون أقل. إن من الصعب الفصل بين العنف والعلاقة بين المجموعات العرقية في أمريكا. وكما يقول (ميردال) فإن العرق هو مأزق أمريكا. ومن الخطأ اعتباره من مشاكل الماضي، فأحداث لوس أنجلس عام ١٩٩٢، التي تعتبر أكبر أحداث التمرد المدني في تاريخ أمريكا، قد اندلعت إثر محاكمة أفراد بيض من الشرطة انهالوا ضرباً على سائق أسود وتبرئتهم من قتله. والمصير المأساوي للسود واضح العيان. فعدد السود في سجون أمريكا أكثر من عددهم في الجامعات، وإن الكثير من الوفيات بين الشبان السود سببها جرائم القتل. ومن الإحصائيات الأخرى أن ثلثي الولادات بين السود هي لأمهات بلا أزواج. وإن ثلث السكان السود في أمريكا يعيشون في أحياء درجة العنف فيها «الأسوأ في العالم حتى أنها أسوأ من بيروت أثناء الحرب الأهلية»، كما يرى البعض. أما المصير السياسي للسود فليس معروفاً بمثل هذا النطاق. ولكنه من المكونات الأساسية للأزمة الحالية في أمريكا. فخلال نصف القرن الماضي لم يلتئم

شمل العمال البيض والسود رغم أن لهذا عواقب وخيمة على الطرفين. فبالنسبة للبيض فإن الجنوب وأجزاء كبرى من الغرب ماتزال «خارجية»، أي مناطق عمالة رخيصة اقتحمها الرأسمال الأمريكي بنقل مراكز الإنتاج من اجل تقليل الكلفة وزيادة الأرباح على نطاق واسع محطماً المعامل في الشمال والشرق التي كانت معاقل النقابات. ثم جاءت حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات حين اضطر السود في أمريكا إلى طرح مطاليبهم في إطار اخلاقي وديني سعياً لتحقيق العدالة، بعيداً عن الحركات السياسية الراديكالية الراغبة بالسلطة. وما أن حقق السود مطاليبهم بالمساواة القانونية واعتقدوا أن المساواة الإقتصادية والإجتماعية أصبحت أمراً منطقياً، حتى اصطدموا برد فعل البيض الذي تجلى في الاتجاه نحو السياسات اليمينية والمحافظة التي صارت تتمتع باغلبية سياسية. وبصدد الإنتخابات البرلمانية الأخيرة، وصفت مجلة (نيوزويك) النتائج على أنها فوز لحزب جمهوري جديد قائم على نفور الجنوب من الحكم الإتحادي، (وهو نفور عنصري الأصل) وكذلك على البرنامج الإقتصادي «لليمين الجديد» الهادف إلى تفكيك القطاع الحكومي الذي يسميه الأمريكان «الحكومة الكبيرة». وهكذا انحاز الناخبون البيض في الجنوب إلى جانب الجمهوريين وهو اتجاه كان سائداً في أيام الحركات المدنية للسود. حتى يومنا هذا مايزال قادة حركات السود يضعون مطاليبهم في إطار الحقوق المدنية، ويصعب عليهم إدراك موقف البيض الذين كانوا يتعاطفون مع مطالب السود في الخمسينيات، رغم أن تلك المطالب عادلة الآن أيضاً. فالبيض صاروا يدركون أن مطالبة السود بالمساواة الإقتصادية والإجتماعية، تعني إعادة توزيع الثروة والإمتيازات التي يتمتعون بنصيب كبير منها.

في ظروف كهذه تخلت جمهرة واسعة من السود عن قياداتها التقليدية، وانساقت وراء حركة مضللة قائمة على التعصب الاثني أو الديني التي صارت تأخذ منحى خطيراً. وأبرز مثل على ذلك (فراخان وانصاره في خطاباتهم التحريضية التي سببت اندلاع موجات الصدامات المحلية بين السود والمهاجرين (وبالأخص من أمريكا اللاتينية واسيا).

العلاقات بين المجموعات الاثنية هي مصدر الحيرة الأمريكية، ومفتاح لفهم المشاكل الأخرى في أمريكا. فالتراجع الإقتصادي عمق الهوة الاجتماعية في السبعينيات. لكن الفئات المحرومة بقيت منقسمة مانحة بذلك زخماً للفئات المستغلة،

وبذلك سلمت زمام المبادرة إلى اليمين بدلاً من اليسار. وإذا كان فخر أمريكا هو نجاحها في خلق ديمقراطية سياسية قائمة على تعدد الأعراق والقوميات، فإن مأساتها تكمن في انعدام المساواة الإجتماعية والإقتصادية والإنقسام المستمر بين تلك المجموعات، بين مواليد أمريكا والمهاجرين الجدد وفي أوساط المهاجرين الجدد أنفسهم، وهكذا دواليك. لقد تأسس الحزبان الرئيسيان، الجمهوري والديمقراطي، في الخمسينيات من القرن الماضي بتأثير ازدياد الهجرة وتصاعد وتائر التصنيع. ويستعير الكثيرون في أوربا، وحتى أمريكا نفسها، مصطلح اليمين واليسار لوصف الحزبين، وهي استعارة غير موفقة، ذلك لأن كلا الحزبين عبارة عن تحالف يضم في صفوفه اليمين واليسار. حتى أن (مايك ديفز) في كتابه «أسرى الحلم الأمريكي» يقول «في خمسينيات القرن الماضي كان العمال البروتستانت يساندون مستغِليهم كزعماء سياسيين من البروتستانت في الحزب الجمهوري، بينما تحالف المهاجرون الكاثوليك مع المحافظين في الجنوب داخل الحزب الديمقراطي». وهكذا بدلاً من حزب عمالي في الكونغرس الأمريكي، هناك كتلة محافظة داخل الحزبين دائمة الحضور تعارض كل محاولات الإصلاح، لاسيما في فترة ما بعد الحرب حيث تسيطر كتلة من جمهوريي الشمال مع ديمقراطيي الجنوب، لتوجيه القرارات لصالح فئة ضيقة القاعدة تمثل الولايات المتحدة المحافظة. هذه الكتلة كفت عن خلافاتها المحلية وصارت كتلة أكثر تراصاً وحضوراً في الكونغرس. عملية الاستقطاب هذه استغرقت أربعة عقود (من الخمسينيات حتى السبعينيات)، وكان لها أثرها على تركيبة الطبقة العاملة الأمريكية والرأسمال الأمريكي. فالحرب العالمية الثانية جلبت ملايين من السود والمزارعين البيض والنساء إلى القوى العاملة بفعل الهجرة الداخلية التي أشرنا إليها. تبع ذلك هجرة الاستثمارات ورؤوس الأموال من الشرق والشمال إلى الجنوب والغرب، وهي المناطق المعروفة بانغلاقها واتجاهاتها المحافظة، التي موّل مليونيريوها حملات ريغان واليمين الجديد.

هذه كانت «تضاريس» التركة الإجتماعية والإقتصادية التي ورثها كلينتون عن سلفه. وهناك إضافة إلى هذه التعقيدات كلها، تصاعد نفوذ اليمين المسيحي أو بالواقع المتدينين الأصوليين، وهي ظاهرة يصعب على الأوربيين فهمها. المسألة ليست بهذا التعقيد، فالأمريكان، عكس الأوربيين، لم يخوضوا النضال ضد النظام القديم تحالف الكنيسة والملوك، فالنضال في أمريكا كان مشتركاً بين الكنيسة

كمؤسسة والدولة ضد الإدارة الاستعمارية البريطانية. فالأمريكي يمكن أن يكون ديمقراطياً دون أن يكون بالضرورة ملحداً أو معارضاً للغيبيات الدينية. إن للأديان مكانتها المهمة في الحياة الأمريكية، والأصولية تيار حديث نسبياً برز في بداية القرن، تلك اللحظة التاريخية التي برزت فيها أمريكا كدولة قوية تسير نحو مستقبل صناعي. وكأي حركة أصولية، فإنها بالأساس حركة اجتماعية محافظة في لباس ديني تتركز في الجنوب والغرب وترى في التحديث وخطوات التغيير خطراً وليس تقدماً. فليس غريباً أن تنتشر هذه الحركات بين الناس الأكثر خسارة في لعبة الحلم الأمريكي.

مع ذلك فليس من السهل على الأوربيين فهم الأصوليين الأمريكان، ذلك أنهم قبل ٣٠ سنة لم يكونوا سوى أقلية من «المغفلين» كما يصفهم الأمريكان أنفسهم. لكن السؤال هو كيف استطاع اليمين المسيحي أن يتحول إلى عصب المحافظين الأمريكان في عهد ريغان ليصبح القوة المسيرة في الحزب الجمهوري؟ الجواب هو تضافر الإنحطاط الإقتصادي مع ازدياد حدة الإنقسام العرقي والإجتماعي في العقود الأخيرة، الأمر الذي عزز الإتجاه نحو اليمين. ويستعرض مايك ديفز ذلك قائلاً: «إن اليمين الجديد قد عبر عن نفسه في سلسلة من الاستفتاءات في كاليفورنيا حيث تحالفت الطبقة الوسطى البيضاء مع العمال البيض في إحباط مساعي الحكومة لإصدار تشريعات لصالح الفئات المحرومة والفقيرة وبالأخص المهاجرين، مثل مشاريع الإسكان الحكومية (١٩٦٤ - ١٩٦٥)، وإلغاء عقوبة الإعدام (١٩٦٥ - ١٩٧٩)، وحقوق المهاجرين من أمريكا اللاتينية العاملين في الزراعة (١٩٧٢)، والنقل الموحد بين الأعراق لتلاميذ المدارس (١٩٧٩)، وضريبة الأملاك (١٩٧٨)... وهي المرحلة التي استطاع فيها اليمين الجديد الربط في أذهان الناس بين الفئات المحرومة والمجموعات العرقية المحتقرة من جهة والحكومة نفسها من جهة أخرى. المسائل الإجتماعية (القيم العائلية، الإجهاض، الجرائم...) التقت مع البرنامج الإقتصادي لليمين الجديد في تفكيك قطاع الدولة وخدماتها الإجتماعية.

ستظل أمريكا أرضاً خصبة لنمو الإتجاهات المحافظة، فهي لم تقبل الربط بين الديمقراطية السياسية والعدالة الإجتماعية والإقتصادية. وفي أوقات الأزمات الإقتصادية تسري في البلاد حركات ديمقراطية عنيفة تمتزج روحها الراديكالية بظاهرها المحافظ، ففي ثمانينات القرن الماضي كانت المعارضة الديمقراطية موجهة

ضد البنوك الكبرى والشركات العملاقة والاحتكارات، بينما اتجهت في الثلاثينيات من هذا القرن ضد تدخل الدولة والاحتكارات معاً. في يومنا هذا فإن الاتجاهات الديمقراطية تحرض المعارضة الديمقراطية ضد جهاز الدولة والسياسة والسياسيين وأشكال التنظيم الاجتماعي. هذه التغيرات تعكس جزئياً نجاح دعاية الشركات طيلة قرن. كما أنها جزئياً تعكس إمكانية تحول حركة الاحتجاجات إلى سياسات راديكالية، سواء إلى اليسار أم إلى اليمين.

كثير من الأمريكان يقرأون الأحداث بمنظار شخصي أو أخلاقي. وقادة اليمين الجديد أدركوا أنهم ظلوا يدورون في حلقة مفرغة، بالدعوة طيلة سنوات إلى اقتصاد حر ليبرالي. ولم ينجحوا إلا عندما تحولوا إلى مناقشة المشاكل الإجتماعية مثل تفكك العائلة أو الإجهاض أو ارتفاع نسبة الجرائم وما غير ذلك. بهذه الإنتقالة انضمت هذه المشاكل إلى المخاوف الدائمة من تدهور الإقتصاد ومن تخلف أمريكا ومن سرعة التحولات التاريخية. ومن هنا نفهم المعارضة المشتدة لتنامي قوة السود وغيرهم من «الأقليات» كالحركات النسوية...

من جهة أخرى فإن ازدياد الاعتماد على الوسائل التكنولوجية في الحياة اليومية كان له أثره في الحياة السياسية الأمريكية. إذ أصبحت فترات البث لشركات التلفزيون الأمريكية أداة في الدعاية الإنتخابية الباهظة الثمن التي لا يقوى عليها إلا المرشحون الذين تدعمهم تبرعات الشركات، حتى أن مدير إحدى مجلات الديمقراطيين قال في ذلك: «هناك قاعدة بسيطة في هذا المجال، لا يمكن لأحد أن يتغاضى عنها، وهي أن من يملك المال يربح الإنتخابات، والاستثناءات نادرة جداً».

فالمرشح يحتاج إلى المال من المجموعات المساندة التي يديرها النشطاء بدرجة رئيسية. إن نسبة المستنكفين عن التصويت التي تزيد أحياناً إلى ٥٠٪ تجعل خيار الأغلبية الساحقة من المصوتين، وذلك أن نسبة الناخبين الفعليين تقل في أحيان كثيرة عن ٥٠٪، أي أن الأغلبية يمكن حصولها رهناً بفاعلية النشطاء. هذه هي الثمار الفعلية لنهج «معاداة السياسة» الذي روج له ريغان في كاليفورنيا تحت شعارات الإنبعاث الإقتصادي والجبروت العسكري والوطنية الأمريكية.

تعتبر أمريكا بلداً يحكمه «الوسط» حيث أن الفوارق بين الأحزاب السياسية تكاد تكون ضئيلة بالمقياس الأوربي. وكل ما هو خارج هذا «الوسط» له حرية النشاط والدعوة والتحريض، ولكنه بعيد كل البعد عن التأثير في السياسة الأمريكية. مشكلة أمريكا الآن أنها تواجه تراجعاً ويعتري مسارها التعثر.

قد تكون العقود الخمسة الماضية منذ (١٩٤٥) سنوات «القرن الأمريكي» كما يحلو للبعض تسميتها، ولكن كثيراً من المؤرخين سيرونها سنوات انهيار الإمبراطوريات الأوربية واستقلال المستعمرات. وقد نشهد في قادم الأيام موت الحلم الأمريكي.

إن أبرز خطر يواجه الأمريكان يكمن في رفضهم الاعتراف بوجود تقهقر. وفي الفشل المحتمل لرئاسة كلينتون واحتمال قيام نظام يفوق بكثير عهد ريغان في رجعيته. ولن يكون هذا نهاية الحلم الأمريكي فحسب، بل بداية الكابوس الأمريكي أيضاً.

ترجمة: زياد الحكيم

عن الملحق الأسبوعي لصحيفة الغارديان

أمريكا من الداخل

العنف في الحياة الأمريكية

جوناثن فريدمان

بدأ الأمريكيون يلتفتون إلى أنفسهم، متهمين كل قطاع في المجتمع بنوع من المسؤولية غير المباشرة في قتل نحو ٢٠٠ شخص في حادثة التفجير التي تعرضت لها مدينة أوكلاهوما. إذ يرى اليسار أن اليمين قد سمم الجو، في حين يرد اليمين بالقول إن اليسار قد حرم مكتب التحقيقات الفيدرالي (اف. بي. آي) من أظفاره. لقد أخلى الإجماع الهش على الأسى، السبيل أمام مشاعر القسوة والحدة التي عرفها المجتمع في السابق.

في البداية كان الأمر أسهل بكثير عندما كان بإمكان جميع الأمريكيين توجيه اللوم إلى العرب، مفترضين أن الأوغاد الملتحين من الشرق الأوسط هم وحدهم الذين يتجرأون على إدخال الحزن في قلوبهم. ولكن بعد اعتقال الشاب الأشقر ذي العينين الزرقاوين، تيموثي ماكفي، أحد المساهمين في حرب الخليج وممن حازوا على وسام فيها، ظهرت الحقيقة القاسية: العدو يكمن في الداخل.

سارع الأمريكيون المذعورون أولاً إلى التفتيش عن «حركة الوطنيين» التي فرّخت على ما يبدو مؤامرة أوكلاهوما. فقد وجهوا أنظارهم إلى العصابات المسلحة المنتشرة في نحو ٤٠ ولاية، وإلى القوات اليمينية المسلحة الكارهة للحكومة والتي تزعم أن عدد أعضائها يتراوح بين مئة ألف وثلاثة ملايين عضو.

لكنهم لم يمعنوا النظر جيداً على ما يبدو. فمثلما أخفقوا في إدراك أن ماكفي ليس بمعتوه ـ إذ تكشف رسائله الأخيرة أنه كان متماسكاً بشكل يثير الدهشة ـ

أخفقوا أيضاً في إدراك أن الحركة المسلحة نفسها ليست معزولة أو بعيدة، بل تنبع من قلب أمريكا.

ذلك أن الحقيقة المرّة هي أن عالماً يعيش فيه تيم ماكفي ليس بعالم غريب يسكنه المجانين، بل هو عالم يساير تماماً التفكير الأمريكي العام، عالم معتقداته الأساسية ليست غريبة الأطوار بل هي موضوعات مهيمنة في سياسة الولايات المتحدة. والأكثر من ذلك، أن هذه الحركة لا تتشابك مع اليمين المحترم فحسب، بل حتى مع اليسار الليبرالي.

ذلك هو السبب في غياب البلسم الذي يولده التضامن الحميم في لحظة الأسى الوطني. فقد أوقعت قنبلة أوكلاهوما الشلل في أمريكا، لأنها لم تأت كتهديد من الخارج يوحّد الأمريكان، بل كتفجر للتوترات التي اختمرت منذ وقت بعيد في الداخل.

إن الوطنيين الذين يرتدون ملابس المغاوير العسكرية لهم مبادئ أولها معارضة الحكومة الفيدرالية. لقد كان من غير المدهش، بالنسبة لمراقبي المليشيات، أن يكون هدف القنبلة بناية للمكاتب الفيدرالية. فبالنسبة إلى المقاومة الكامنة فإن الحكومة الفيدرالية تعتبر زمرة معادية من الجنود القادمين من ولايات كبيرة ونائية بقصد حرمان الأمريكيين العاديين من حرياتهم الأساسية - وأهمها الحق شبه المقدس في حمل السلاح.

صادف تفجير مبنى أوكلاهوما الذكرى الثانية لمقتل العشرات من أتباع ديفيد كورش على يد قوات FBI لفض اعتصامهم في ويكو بولاية تكساس. ويعتبر المتطرفون الحادث أوضح دليل على خطة الحكومة الفدرالية، قائلين إن كل جريرة أولئك الورعين هي حيازة السلاح.

وحسب هذه النظرة، فإن محاولات الرئيس كلينتون لضبط حمل السلاح ما هي إلا جزء من هجوم بعيد الأمد على حرية الأمريكيين. وترفض هذه النظرة بشكل مماثل الضرائب والقوانين وتعتبرها أولى سلاسل العبودية. ويعتقد القادة النشطاء - من أمثال جيمس ونيكولز، وكلاهما متهم بإجراء تجارب للتفجير مع ماكفي، أن أرقام تسجيل السيارات تمثل خرقاً لحقوق الإنسان. وقد انعزل البقائيون Sur-vivalists في ولايتي أيداهو ومونتانا، فأوقفوا اشتراكهم في شبكة الكهرباء الوطنية، ليقطعوا بذلك آخر صلة لهم بالدولة.

غير أن هذه الحرب ضد البيروقراطية تختلف فقط في الدرجة عما نسمعه

يومياً من قيادة الحزب الجمهوري.. فالجمهوريون الذين يمسكون الآن بالأغلبية في كلا مجلسي النواب والشيوخ، قد أمضوا جيلاً بأكمله وهم يلعنون مؤسسات الحكومة. ولئن كانت لهجتهم أقل حدة وشراسة من لهجة المليشيات المسلحة، فإن المضمون لا يختلف.

وحتى أثناء قيام رجال الإنقاذ بالبحث المضني عن جثث الموظفين الفيدراليين في حطام البناية الفيدرالية في أوكلاهوما لم يتردد نيوت كينكريش، رئيس مجلس النواب، من القول إن مؤسسي الولايات المتحدة لم يدر في خلدهم استبدال المستبد الملك جورج البريطاني باستبداد البيروقراطية الأمريكية. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يصف فيها كينكريش الأجهزة العادية للحكومة الديمقراطية بالدكتاتورية. كما أن الإشارة إلى الملك جورج تصيب مرماها لدى المستمعين الأمريكيين. فهو بذلك يساوي واشنطن مع سلطة دخيلة كان يتعين الإطاحة بها عن طريق الثورة والحرب.

وهناك أيضاً حديث مرشح الرئاسة بات ديوكانان، عن ضرورة القتال من أجل روح أمريكا، حيث الناس في طرف وحكامهم في الطرف الآخر. وهناك السيد العجوز ذو الشعبية الواسعة، رونالد ريغان، الذي بدأ فترته الرئاسية بالقول «إن الحكومة ليست جزءاً من الحل المطلوب، بل انها هي المشكلة».

ليس القصد من ذلك التقليل من شأن الفرق القائم بين دعاة الليبرالية النزيهين وبين الذين نسفوا البناية الحكومية في أوكلاهوما مستخدمين ٤٨٠٠ رطل من المتفجرات. إنما نقصد ببساطة أن دافع المليشيات المسلحة يكمن في نفس الفكرة التي تؤججها سياسة الجمهوريين.

لكن ما الذي يفسر هذا العداء العميق، ليس فقط لحكومة كلينتون، بل كذلك لمؤسسة الحكم ذاتها؟ فرغم كل شيء، قد يفضل اعضاء حزب المحافظين في بريطانيا والحزب الديمقراطي المسيحي في المانيا خفض الضرائب وقدراً أكبر من الخصخصة، لكنهم لا يصفون موظفي الدولة باعتبارهم مستبدين يخططون لاستعباد مواطنيهم.

إن أصول هذا العداء تكمن في أسس البلاد التي بنيت، كما لاحظ كينكريش، على الشك بالسلطة المركزية القوية. وعليه فإن هوس الحماية الشديدة للحرية ضد طموحات الدولة قد انغرس في السياسة الأمريكية منذ البداية.

هذا العداء الأولي تعمق بفعل دور الحكومة الفيدرالية المتكرر في دفع عجلة

التقدم الإجتماعي في المناطق الرافضة له من البلاد. فالجنوب لم يرغب في تحرير العبيد، لكن ابراهام لينكولن والحكومة الفيدرالية والحرب الأهلية قد أجبرت الجنوبيين على ذلك. وبعد مئة عام من ذلك، تصدت واشنطن لهذه المسألة من جديد عندما أرسل الرئيس آيزنهاور الفرقة الجوية ٨٢ إلى مدينة ليتيل روك بولاية أركنساس، ليضمن إنهاء الفصل العنصري في مدارس الدولة هناك.

ومع ذلك فإن العنصريين اليمينيين ليسوا وحدهم الذين يرون في الحكومة الوطنية عدواً لهم. ضمن المفارقة ان اليسار أيضاً قد لعب دوره في هذه القضية. إذ ان المناهضين للحرب هم الذين اتهموا الرئيسين جونسون ونيكسون بالكذب على شعبهم وكان للتهمة بعض المبررات. وقليل من الناس يختلف في أن تجربتي حرب فيتنام ووترغيت قد حولتا التشكك التقليدي بالحكومة في أمريكا إلى شكوكية مريرة. والنتيجة هي هذه الدرجة المذهلة من الكراهية للسلطة. فقد جرى استفتاء للرأي من قبل صحيفة لوس أنجلس تايمز مباشرة بعد حادثة تفجير اوكلاهوما، أي عندما كان من المفترض أن يكون التعاطف مع موظفي الحكومة الفيدرالية في أوجه، فتبين أن ٤٥٪ من الأمريكيين يعتقدون أن الحكومة تشكل تهديداً لحقوقهم الدستورية.

قد لا يهم ذلك كثيراً لولا السمة الأساسية الأخرى للمليشيات، والتي تشارك فيها البلاد بأجمعها، الا وهي حب السلاح. فالمجلات الصادرة عن هذه العصابات، مثل مجلة «دليل البقاء الأمريكي» تغص بالإعلانات الترويجية للذخيرة والألغام ومدافع البازوكا. ويعتبر قراء تلك المجلات «التعديل الثاني» في الدستور لضمان الحق بحمل السلاح بمثابة نص مقدس. فهم يستهجنون منع «زمرة كلينتون» لاقتناء ١٩ نوعاً من الأسلحة شبه الأوتوماتيكية قائلين إن ذلك محاولة على طريقة النازيين لنزع سلاح الجماهير تمهيداً للديكتاتورية المقبلة. وهناك أغنية سريعة الإيقاع لكارل كلانغ، الذي يعد مطرب أقصى اليمين، عنوانها «حذار من الأحكام العرفية».

لعل من المحتم لأمة قامت على التمرد الدموي أن يكون العنف دوماً الطريقة الأمريكية في تسوية النزاعات. ففي المناطق الغربية تولت التنظيمات المسلحة Vig-ilante تطبيق القانون على حدود تلك المناطق. وفي الجنوب حافظت عصابات «كوكلكس كلان» على النظام من خلال أعمال الإرهاب والقتل.

لفهم بعض المسائل من المفيد التطرق إلى الفرق بين أمريكا وبريطانيا. فقد كان سبنسر بيرسيفال رئيس الوزراء البريطاني الوحيد الذي اغتيل عام ١٨١٢.

غير أن القتلة صوبوا رصاصهم إلى الرؤساء كنيدي وفورد وريغان خلال ١٨ عاماً. وتم اغتيال أربعة رموز أساسية لسنوات الستينات وهم الاخوان كنيدي ومارتن لوثر كينج ومالكولم اكس.

ولايزال هوس العنف المستمر، سواء بتمجيده المبتذل في الروايات أم على غرار ما حدث في ولاية نيفادا حين أطلق دان شيفرز النار على سائق السيارة آلان ميلور وأرداه قتيلاً بحجة أن سيارته كانت وراء سيارته بمسافة قصيرة جداً، وضوءها بدرجته القصوى.

الملفت حول السلاح في أمريكا هو أنه محبوب ومدلل ليس فقط من قبل القتلة والحمقى. فلدى الجمعية الوطنية للبنادق ثلاثة ملايين عضو وخزين هائل من السلاح. ولا يسيطر هؤلاء فقط على القلة من السياسيين المتطرفين بل كذلك على برنامج الجمهوريين. وحتى المرشح الرئاسي بوب دول ـ الذي يعتبر معتدلاً حسب معايير الوقت الحاضر ـ قد كرس نفسه لرفع الحظر عن الأسلحة الهجومية التسع عشرة التي منعها كلينتون.

وفي أوساط القادة الجمهوريين في أحاديث الإذاعة يتأجج الغرام بالسلاح. فصاحب اليد القذرة في فضيحة ووترغيت، (ليدي) لا يكف عن التنديد بمكتب الكحول والتبغ والأسلحة الذي تتمثل مهمته في ضبط تداول هذه الأشياء الثلاثة المفضلة لدى الذكور البيض الغاضبين. ولم يتردد ليدي هذا قبل مدة من نصح مستمعيه على الهواء حول أفضل طريقة لقتل عملاء المكتب المذكور «باطلاق النار على الرأس، باطلاق النار على الرأس» في حين اقترح بوب موهان أن يتم قتل النشطة في حركة السيطرة على استخدام السلاح، سارة بريدي، التي يعاني زوجها جيمس من الشلل الذي سببه إطلاق الرصاص على ريغان وذلك باطلاق «رصاص الرحمة عليها كما تقتل البهائم العليلة في عيادة البيطري». ليست هذه لغة الخطاب السياسي للديمقراطيات الغربية الأخرى. وهذا هو ما كان يفكر به كلينتون عندما تحدث عن «الأصوات الصاخبة والغاضبة» المؤججة للعنف الذي انعكس في نسف بناية الحكومة في اوكلاهوما.

ولكن، مرة أخرى، لا يقتصر هذا الخطاب على اليمين. فلليسار أيضاً تاريخ من استخدام القوة في سبيل تحقيق أهدافه، سواء كان ذلك في محاولة جون براون للثورة من أجل تحرير العبيد عام ١٨٥٩، أو في سلسلة التفجيرات التي أوحى بها العمال في بوستون وول ستريت خلال ١٩١٩ ـ ١٩٢٠.

لعل سياسة السود هي في صميم هذا الموضوع. فرسالة مالكولم ايكس القائلة «باستخدام جميع الوسائل الضرورية» قد تخطت تراث مارتن لوثر كينغ الرافض للعنف. وحظي العنف السياسي بالحفاوة مرة أخرى قبل أشهر مع عرض فيلم Panther (الفهد) الذي هو عبارة عن مسيرة تمجيد لحركة الفهود السود.

إن أحد أكثر الصفات خيالاً للمليشيات يتمثل في الهوس بنظرية المؤامرة، وحتى هذا الهوس هو من العادات الوطنية للأمريكان.

يقول العصاة المعاصرون، ليس العدو الحقيقي هو الحكومة الفيدرالية بل هو «حكومة الظل» أي النخبة العالمية التي تخطط لإقامة نظام عالمي جديد تفرضه الأمم المتحدة. أما المحركون الحقيقيون لهذه النخبة فهم المصرفيون الدوليون أو الماسونيون أو اليهود أو مزيج غادر من الثلاثة معاً. أما الأدلة على ذلك فهي طائرات الهليوكبتر غير المعلّمة التي تراقب بيوت الأمريكيين، والسيارات العسكرية السوفيتية التي تسير في ولاية كنتاكي، والشفرات السرية على إشارات الطرق بهدف توجيه الجيش الغازي. يخبرونك عن كل ذلك بجد قاتل، مع عرض وفرة من الصور والوثائق. وبهذا الهوس، فإن رجال المليشيات هم أمريكيون حقيقيون مثلهم مثل مشجعي لعبة البيسبول او ملكات الجمال اللواتي ينتخبن في الحفلات الراقصة. وليتذكر القارئ أن الذي أشاع عبارة «حكومة الظل» هو المخرج الليبرالي اوليفر ستون في فيلمه المهووس بالتآمر (جون اف كنيدي).

وأخيراً فإن مليشيات اليمين المتطرف في الولايات المتحدة هم عينات مختبرية من الشريحة السكانية التي تشكل محور الحياة الأمريكية: إنهم الذكور البيض الساخطون. وقد تعثر في اجتماع المليشيا على امرأة بمفردها، غالباً ما تراها تحدق في أكياس الغذاء المجفف أو المجمد، والمعبأ استعداداً للهرب من وجه الحكومة الفيدرالية، او احياناً من وجه رجل أسود أو يهودي. لكن العصابات المسلحة بأغلبيتها الساحقة هي منافذ لاحباطات الرجل الأبيض.

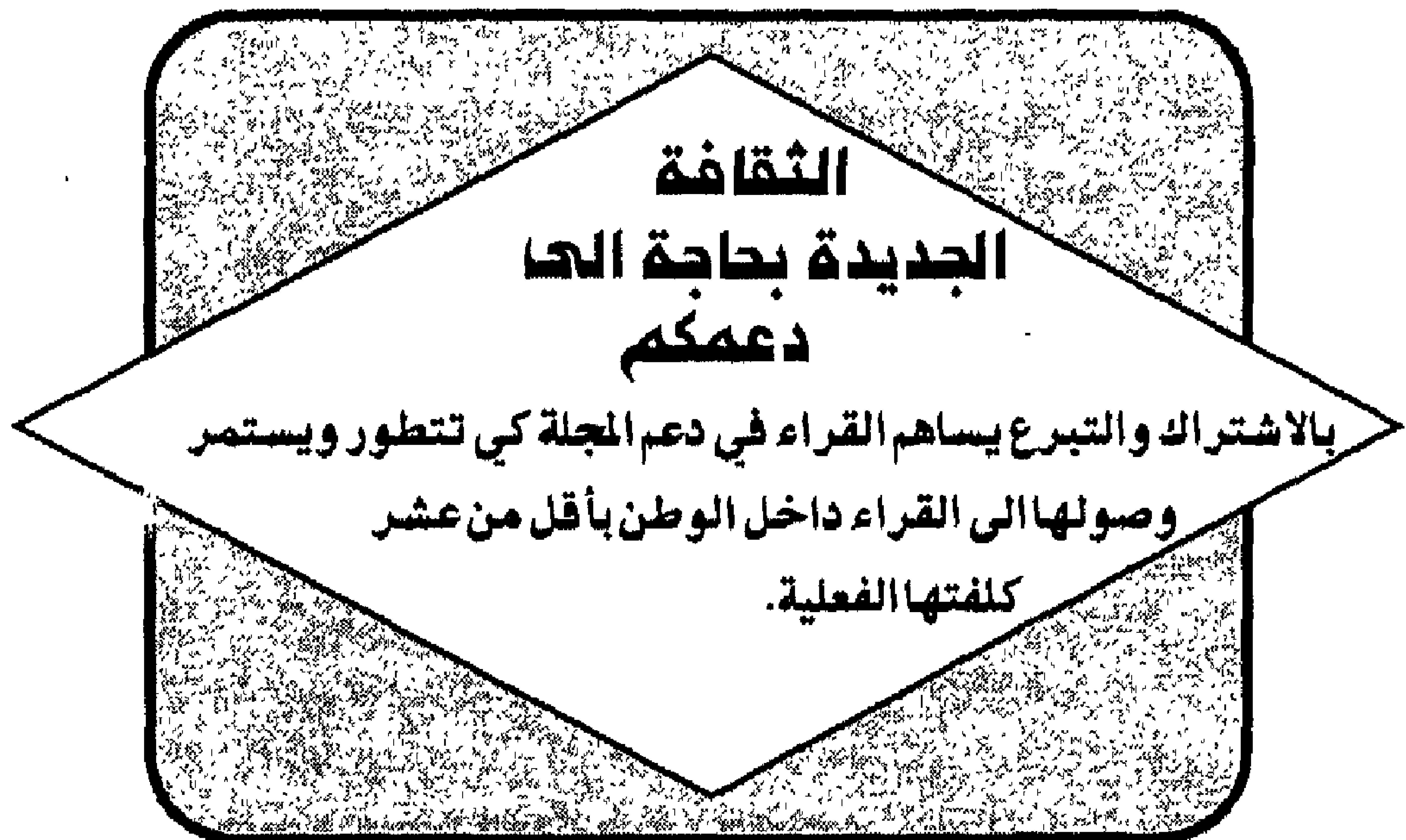
لقد حقق الجمهوريون في تشرين الثاني الماضي فوزاً ساحقاً بفضل استخدام سخط الرجال البيض. ويمكن القول إن نفس الشعور هو المحرك الأكبر لسياسة الحزب في الوقت الحاضر. ليس هناك مجال يتجلى فيه كل ذلك أكثر من اليمين الديني. إذ يزعم «التحالف المسيحي» أن واحداً من كل أربعة ناخبين الآن هو من المؤمنين البروتستانتيين الحقيقيين. وفي أوساط هؤلاء يسود الغلّ ضد الحكومة.

وما واشنطن عندهم إلا مدينة لعينة مثل سدوم التوراتية. وهم يمارسون أعمال العنف، والدليل على ذلك خمس عمليات قتل و١٣٢ عملية تفجير و٥٨٥ عملية تخريب منذ عام ١٩٧٧ موجهة ضد المنخرطين في حركة المطالبين بحق الإجهاض.

في إحدى المناسبات قال زعيم الجمهوريين كينكريش ما أبشع القول إن هناك علاقة سببية بين سخطه على الحكومة والعداء العنيف أحياناً للحكومات الأجنبية في أمريكا اليوم. ويقول ملك الأحاديث التلفزيونية راشي لمباو، ليس هناك أي صلة على الإطلاق بين التفجير في اوكلاهوما وقوله لعشرين مليون مشاهد أن ثورة العنف الثانية في أمريكا أصبحت قريبة قرب المسافة بين سبابته وابهامه.

لكن الحقيقة البشعة هي نفسها التي غاص فيها مفجر بناية اوكلاهوما. والأبشع من ذلك هو أن هذه المياه ليست مياهاً راكدة بعيدة أو روافد نائية بل هي انهار عميقة كبيرة يغذيها محيط أمريكا الاكبر بالذات.

ترجمة: د. مجيد نعمان
عن الملحق الأسبوعي لصحيفة الغارديان
لندن ١٩٩٥/٥/٦



أمريكا من الداخل

وسائل الإعلام تصنع الرئاسة*

مايكل كيلي

بعد يوم من فوز (كندي) على الرئيس (نيكسون) في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٦٠، زار صحفيان نيكسون في داره لإجراء مقابلة معه. وفيما كان يرحب بهما عند المدخل انبرت زوجته، وقد تملكها الغيظ، لتصبّ اللعنات على الصحفيين وزملائهما لانحيازهم إلى كندي مما أدى إلى فشل زوجها. فهدأها واقتادها مبتعداً. وحين عاد إلى ضيفيه، لم يقل شيئاً عن غضبة زوجته، فأخذا يوجهان أسئلتهما وكأن لم يحدث شيء غير اعتيادي. ثم ان ما نشرا خلا من أي إشارة إلى تصرف الزوجة.

مثل هذه المقابلة الرزينة قد ولى زمانها. فلو شاء صحفي مقابلة جورج بوش، الفاشل في انتخابات ١٩٩٢، فإنه لابد أن يذهب برفقة رهط من الزملاء وقد تسلحوا بكاميرات الفيديو، لتصوير مسرحية سياسية متقنة السيناريو، بما في ذلك النكات البسيطة التي يطلقها بوش، بحيث يضمن عدم حدوث زلة يسجلها الفيديو عليه. ويحاول الصحفيون خلخلة رزانة سيناريو المقابلة بأسئلتهم الهجومية. ولو حدث أن تصرفت زوجته تصرف زوجة نيكسون لما نجا بوش من كارثة إعلامية. إذ يغدو مثل هذا التصرف الشغل الشاغل للتلفزيون والصحافة باعتباره حدث اليوم. هكذا أمسى إعطاء الصورة Image المرغوبة شعبياً عقيدة سائدة في واشنطن تتمركز

* نشر المقال أصلاً في صحيفة «نيويورك تايمز» ثم أعيد نشره في الملحق الأسبوعي لصحيفة الغارديان لندن ١٩٩٣/١١/٢٠. وجرى اختصار وتحرير الترجمة العربية.

حول الرئيس باعتباره المهندس، وفي نهاية المطاف الضحية، لعبادة الفرد التي لم يشهد العالم مثيلاً لدقة تفاصيلها. وبات من مسلمات هذه العقيدة أن حقيقة أقطاب السياسة وما يفعلون في الواقع لا يحظى بأهمية. فالمهم ما يشاهد الناس ويسمعون عن السياسيين وأفعالهم. فتظل السياسة بعيدة عن الواقع الموضوعي، لصيقة بالصورة التي يشاهدونها عنها. فما يجري في عالم السياسة لا علاقة له بعالم الواقع، فهي حاضرة لبرهة تاريخية عابرة، في أفلام تسحر الناس، إنها مسرحية مصورة لا نهاية لها. والغريب في الأمر، أن الأوفياء لهذه الممارسة يدركون أن المسرحية بعيدة عن الحقيقة، غير أنهم يؤكدون أيضاً أن ما يشاهدون هو الحقيقة الهامة.

حين فاز كلنتون بالرئاسة كانت ثقافة واشنطن (وبالتالي ثقافة الحكم والسياسة) قد أصبحت تحت هيمنة أناس يحترفون خلق صورة الساسة المنتخبين في أذهان الجمهور. فأولئك الناس يشغلون وظائف شتى، منهم مشرفون على استطلاعات الرأي العام، والمستشارون الإعلاميون، واستراتيجيو الحملات الانتخابية، ومنتجو الدعاية، ومختصون في العلوم السياسية، ومراسلون، وكتاب أعمدة، ومعلقون. أما همهم المشترك فهو إنتاج أفلام السياسة. إنهم أجزاء في ثقافة متكاملة قائمة على إنتاج بضاعتهم هذه. إنهم أشبه بصناع السينما في هوليوود، منهم مخرجون، بعضهم كتاب سيناريو، بعضم نقاد، غير أنهم جميعاً منخرطون في ميدان واحد من العمل والحياة. فهم يحضرون الحفلات ذاتها، ويدخلون أولادهم في المدارس ذاتها، ويقطنون الأحياء ذاتها. إنهم يجرون المقابلات لبعضهم البعض، يجادل بعضهم البعض، يتضاجعون ويتزوجون فيما بينهم، يحيون ويموتون تبعاً لتقييم بعضهم البعض. تراهم متصارعين متمازحين في شاشة التلفزيون، يغتنون من خلال شرحهم لسياسة واشنطن في مؤتمرات الأطباء والمحامين ومدراء الشركات الكبيرة.

لا عجب في ميل هؤلاء إلى الإيمان معاً بالأشياء ذاتها، مثل استطلاعات الرأي العام والتلفزيون والأحاديث، ولاسيما الأحاديث التلفزيونية. إنهم يؤمنون بالمفارقة الماثلة في أن ما يقوم به السياسي علناً إنما يخفي به شيئاً آخر. إنهم يؤمنون على وجه الخصوص بقوة ما تصنع أيديهم من صور زائفة للواقع.

لقد تراكم تدريجياً تأثير عقيدة الصور المرغوبة حتى باتت الحدود السابقة بين المهن والايديولوجيات تبدو ساذجة وقد عفا عليها الزمن. فإن كان واقع الحدث هو

ما يعرض للجمهور في التلفزيون، فإن مراسل التلفزيون ليس إلا ممثلاً. أليس محرر الصحيفة ناقداً لهذه المسرحية الكبرى؟ وإن كانت الحقيقة هي ما تصوره الحملة الدعائية، فمن غير الأغبياء يؤمن بأي منظومة من الأفكار؟ وإن كانت الصورة تعبر عن الحقيقة، فما جدوى الخلاف بين الحزبين الرئيسيين الجمهوري والديمقراطي، بين الصحفيين وموظفي الحكومة، بين الايديولوجيين والنسّاخين، بين واشنطن وهوليوود؟

والواقع أن الفوارق باتت أقل فأقل وضوحاً. فصحفي الأمس أصبح اليوم ناطقاً باسم البيت الأبيض، وغداً يصبح مستشاراً. وفي برنامج الأحد يستضيف المتحدث التلفزيوني الشهير أمثاله من مشاهير الصحافة وصناع الستراتيج السياسي، فلا تكاد العين المجردة تميز الفوارق بينهم. كأنهم شخص واحد، إنهم أتباع المذهب نفسه، إنهم نجوم ثقافة هم الذين خلقوها. وهم يعترفون بتطابقهم إذ يطلقون على أنفسهم لقب «المطلعين على بواطن الأمور». إنهم يتحدثون بلغة واحدة، وشأن أية لغة فإن لغتهم تشي بالكثير من الصورة التي يتخيلها الناطقون بها لأنفسهم وللعالم.

هاكم وصفهم ليوم من الأيام: إنه لا يتكون من ساعات أو دقائق، بل من حلقات إخبارية. في كل حلقة يتحدث مسؤول من البيت الأبيض عن خلفية الأحداث ويرسم خط سيرها لهذا اليوم. ويتولى أعوان الرئيس ترديد وتأكيد هذا الخط إلى الجمهور. فظهور أعوان الرئيس يتحول إلى عناوين في نشرات الراديو وأحاديث التلفزيون. وحين يعلن الرئيس سياسة جديدة، يكون قد تمرن على الأداء تحت عيون مستشاريه، فيلتزم في حديثه بنقاط محددة على أساس المعلومات التي جهزها العاملون في «غرفة العمليات» وكأنه يخوض معركة. وأمامه، لأداء الحديث المرسوم سلفاً، سبل متعددة تتراوح بين الظهور البسيط أمام العدسات، إلى مقابلة يجريها معه أحد مشاهير رجال الإعلام، إلى عملية إعلامية متقنة السيناريو (ربما من خلال لقاء مع أشخاص اعتياديين) وصولاً إلى مشهد مسرحي كامل في القاعة الكبرى للمدينة.

ويجري تعزيز الرسالة التي تريد حكومة الرئيس إيصالها إلى الناس عن طريق التسريبات والتلميحات والمعلومات التي تُلقم للصحافة بعناية. وتدور زمرة من المساعدين على وسائل الإعلام لترتيب الرسالة، وإذا ما وقعت أخطاء أو زلات فهناك من يتولى تلافي الأضرار التي تحرف الإنتباه عن رسالة الحكومة وقد تولد

ما تخشى جراء السعي الهستيري السائد وراء الأخبار في وسائل الإعلام. ويحتل رد الفعل على السياسة المعلنة مكانة هامة في الحلقة الإعلامية وهو يأتي بالدرجة الرئيسية من قادة الحزبين في مجلسي الكونغرس، وهم في غالب الأحيان يضخون إلى وسائل الإعلام عبر الفاكس آراءهم التي يحررها المساعدون لهم. وحصيلة كل هذا النشاط تمر من خلال المصفاة الإعلامية، حيث يجري تقطيعها إلى أجزاء صغيرة سهلة الهضم للأعوان الذين ينقلون المنتوج النهائي للعملية برمتها بصفته جرعة جديدة من الحكمة التقليدية.

الانتهازية صفة حميدة

في أواخر ربيع ١٩٩٣ عُين السيد ديفيد جيرجن Gergen مستشاراً للرئيس الجديد كلنتون. وجاء ذلك بمثابة الازدهار الأمثل لفصيلة «المطلعين على بواطن الأمور» واللحظة المثلى لثقافة الصورة الملفقة. فعلى امتداد ٢٢ عاماً ظل يخدم مختلف الرؤساء، وتحول من وظائف الحكومة إلى الصحافة ثم إلى الاستشارات، ليعود إلى الحكومة متقلباً من الحزب الديمقراطي إلى الحزب الجمهوري، ثم أصبح مستقلاً عنهما. وها هو يعود لخدمة الرئيس الديمقراطي. إن التعيين فاجأ كثيرين يعرفون خدمة جرجن لثلاثة رؤساء جمهوريين، منهم ريغان الذي اتهمه الرئيس كلنتون بتدمير أمريكا. وحين انخرط جرجن في خدمة الرئيس الجمهوري نيكسون سنة ١٩٧١ كان عضواً في الحزب الديمقراطي، ثم أخذ يصوت للجمهوريين ويعمل في تنظيم حملاتهم الإنتخابية مدافعاً عن سياستهم. وهو يصف منصبه الحالي بأنه تغيير في الثياب لا في الايديولوجيا. في أغلب الحالات لابد أن يوصف سلوكه بالانتهازية. وهكذا يصفونه أيضاً في واشنطن حيث تعتبر الانتهازية صفة حميدة، باعتبارها مرونة ايديولوجية.

والمفارقة أن جرجن يعرف أكثر من غيره العلة التي يعانيها النظام السياسي برمته، فقد أمضى حياته، بعد التخرج من الجامعة، في بناء صور الرؤساء وصورته هو. فهو يقول: «إن الساسة في الغالب لا يُقيمون في الوقت الحاضر إلا تبعاً لدرجة إتقانهم للتمثيل، أي كيف يجيدون أداء اللعبة: فهل القى الرئيس خطاباً جيداً؟ أو هل فعل شيئاً مثيراً للاهتمام؟ الحملة الانتخابية أشبه بسباق الخيل، وتغطيتها الإعلامية مثيرة للقرف، وهي تهيمن الآن على رئاسة البلاد. ويكاد مسؤولو الحكومة

والمستشارون أن يصبحوا متواطئين في مؤامرة. وبدلاً من السؤال: «كيف نغير الأمور في حياة الناس؟» أصبح السؤال: «كيفَ نزين الأمور لكي يتصور الناس أن حياتهم هامة أو ممتعة أو مغايرة؟» ويهتف المستشارون: كان الأداء مثيراً للإعجاب! وهو في الواقع لا يمس ما يجري تحت المظاهر، مما يعمق النزعة الكلبية Cinicism. وهذا هو ما أقوم به. أعترف بذلك. قمت بذلك كثيراً... أقرّ بأني شاركت في اللعبة وابتكرت بعض أشكال اللعبة بحيث تجاوزت غايتها. وأنا نادم على أني سوقت من اجل التسويق لا غير. ولا علاقة لذلك بالمبادئ، بل سوقت قشوراً لا طائل تحتها. وأشعر أنني أسهمت بهذه اللعبة. قمت بذلك لأني اعتقدت أنه السبيل الوحيد لممارسة الحكم. أما الآن، ومع تقدم العمر، فإني أعتقد أن اللب أيضاً كبير الأهمية. أجل، لابد من استمرار التسويق، ولكن هذا وحده لا يكفي، فهو يغدو بمرور الوقت ممارسة لا طائل تحتها». ويرى جرجن أن ما يحصل لمؤسسة الرئاسة ولواشنطن أمر لا مفر منه: «لدينا مؤسسة للرئاسة تنطوي على القصور. فهكذا أقامها المؤسسون الأوائل عن عمد. لذلك أدرجوا بند الرئاسة في الفقرة الثانية من الدستور، وليس في الأولى. كان القصد دوماً إبقاء مجلس الكونغرس هو القائد، بحيث تكون مؤسسة الرئاسة أضعف منه على نحو ما. وبقيت هي الأضعف، نوعاً ما، في القسم الأكبر من تاريخنا».

غير أن جرجن يقول إن الرؤساء المعاصرين والصحفيين ميالون إلى المبالغة في قوة هذه المؤسسة مما أدى إلى توسيع الهوة بين ما يستطيع الرئيس إنجازه وما ينتظر منه الجمهور ثم يضيف: «ولو أخذنا هذا بعين الاعتبار، فضلاً عن تعاظم قوة وسائل الإعلام، وكذلك عجز الرؤساء المعاصرين عن التحكم بالصحافة، لرأينا أن البيت الأبيض يبذل جهداً كبيراً لايصال ما يريد إلى الناس. وهذا يؤدي إلى تزايد النزعة الكلبية». إن نظرية «الحلقة المفرغة» هذه، واضحة الصواب، غير أن الممارسة التي ينتقدها جرجن ليست محض نتاج لعوامل تاريخية كما أنها ليست نتيجة لتنامي قوة وسائل الإعلام الذي لا يقاوم، بل هي كذلك من تدبير جماعة صغيرة من ذوي الذكاء والعزيمة، من مدراء الدعاية وكتاب السيناريو ومدبري استطلاعات الرأي وواضعي الستراتيجيات. فقد عملوا طيلة ربع قرن على صنع نمط جديد من الرئاسة تحدد شاشة التلفزيون معالمه.

لقد أدرك كندي، أوائل الستينات، ماذا يعني الحضور على شاشة التلفزيون، فبنى حملته الإنتخابية بالدرجة الأولى على أساس مؤهلاته لتسويق صورته المؤثرة:

فقد امتلك الوسامة والرشاقة، والشباب، والإقدام، والظرف والجاذبية. وتولى أبوه الشهير، جوزيف كندي، صياغة صورة ابنه للجمهور صياغة بالغة الإتقان، كواحد من أبطال الحرب العالمية الثانية، ومن الكتاب الحائزين على جائزة بوليتزر ومحط افتخار عائلة مثالية وزوجاً مخلصاً لزوجة محبة. وقد تولى صناع الأساطير اختلاق الجزء الأكبر من سجايا المرشح هذه. الأمر الذي لم تفطن إليه الصحافة التي كانت تجهل ما في ذلك من خداع. وكان تأثير هذه الصورة بالغ القوة على خصمه نيكسون ومستشاريه الذين كان عليهم تلميع صورته وهي من الأسوأ في التاريخ السياسي لبلادنا.

وحين قرر نيكسون خوض معركة الانتخابات الرئاسية من جديد، عمم كاتب خُطبه (راي برايس) عام ١٩٦٧ مذكرة على زملائه قادة حملة نيكسون الانتخابية شارحاً كيف يمكن الاستفادة من دروس نجاح كندي في معالجة مشاكل نيكسون. وجاء في المذكرة أن مصائب نيكسون نابعة من أنه «كان لعدة سنوات موضوعاً رائجاً لكراهية الناس». ورأى برايس أن تغيير هذا الواقع السياسي لا يتطلب تغيير حقيقة نيكسون لأن الناخبين لا يؤيدون مرشحي الرئاسة على أساس حقيقتهم بل على أساس التفاعل بين الناخبين والصورة المرسومة للمرشح. وأضاف يقول: «ينبغي أن نكون على بينة تامة من النقطة الآتية: الناخب لا يستجيب لحقيقة الرجل، بل لصورته وذلك لأن ٩٩٪ من الناخبين لا يعرفونه عن كثب. فليس الموجود هو المهم بل الصورة التي نقدمها للجمهور عنه. مهمتنا ليست تغيير الرجل بل إشاعة الانطباع الذي نولده عنه».

وقد انبثقت من تشخيص برايس الصائب خطة لإدارة حملة نيكسون الانتخابية حققت نتائج باهرة. أما خصومه الديمقراطيون فاقتصر تكتيكهم الانتخابي على ابراز المنجزات بصورة مبالغ فيها مع إخفاء الإخفاقات. لقد انطلق برايس من فرضية تقول إن الصورة الجديدة التي يقدمها فريقه يمكن أن تغطي على الحقائق المعروفة وعلى الصورة السابقة لمرشح الرئاسة، فتغدو الصورة الجديدة هي الواقع الهام. وهكذا فاز نيكسون بالرئاسة عام ١٩٦٨ بعد أن غلّفته الدعاية بالغلاف المقبول، حتى وصفته الصحافة بأنه «نيكسون الجديد». والواقع ليس ثمة ما هو جديد فيه. كل ما في الأمر «انه فاز عبر تغيير طفيف في صورته على التلفزيون. لكنه بقي ذات الرجل وحافظ على القيم ذاتها» حسب تعبير مدير اتصالاته (هيرب كلاين).

ومنذ ذلك العام بقيت قيد الاستعمال وصفة خلق الرئيس من خلال الصورة المرسومة عنه. وبعد فوزه يفترض أن وسائل الإعلام تثابر في العمل ضده وينبغي مجابهتها ببرنامج دعائي منسق. فما يقول أو يفعل الرئيس (أو المرشح للرئاسة) ينبغي دوماً أن يأخذ بالحسبان تأثير ذلك على صورته بحيث لا تخرج عن إطار الشخصية المثالية المرسومة له، وذلك بالاعتماد إلى حد كبير على ما يقوله مستشارو استطلاع الرأي العام بشأن ما يعتبره الناس في اللحظة المعنية مثالياً. ولأن وسائل الإعلام تتلقف أدنى انحراف عن صورته المثالية كدليل على عيوب الرئيس، فإن المهمة الأولى للبيت الأبيض تكمن في تسويق شخصية الرئيس وسياسته، بحيث أمست الحملة الدعائية جانباً مستديماً من ممارسة الحكم.

يقول جرجن: «أعتقد أن أغلب ما نقوم به الآن ينحدر من حملة نيكسون تلك. وهذا ما تشهد عليه وثائق البيت الأبيض. ففي السنوات الأولى من حكم نيكسون دأب رجاله، وفق سيل من أوامره، وتحت إشراف (هلدامان) وهو مدير سابق لشركة للدعاية التجارية، على ابتكار جميع ممارسات العلاقات العامة والتعامل مع الصحافة، وهي الممارسات التي سادت عند إدارات البيت الأبيض اللاحقة. ومن تلك الممارسات ما يعرف بـ«خطة اليوم» المنسقة لتحرك مكونات الإدارة بغية إيصال الرسالة المطلوبة عن طريق الوكالات والمنظمات القاعدية ذات الصلة بالبيت الأبيض وذلك لتعبئة التأييد، وبث الشائعات ومهاجمة الخصوم، وذلك في جهد متواصل لتهميش صحافة واشنطن من خلال برنامج للاتصال بصحف الولايات الميالة إلى تأييد الرئيس، مع استخدام تكتيك «الجزرة والعصا» لمكافأة المعلقين والصحف المؤيدة ومهاجمة المنتقدين. وهذه الوسائل ليست بالجديدة. غير أن ما استحدثه رجال نيكسون هو إضفاء التنظيم المتسق على هذه الوسائل القديمة وإدماجها بالإدارة اليومية للبيت الأبيض. ويمثل ذلك تعميقاً لفساد ثقافة واشنطن ليس بابتداع وتوسيع أشكال هذه التكتيكات فحسب، بل باضفاء الشرعية عليها أيضاً. وهكذا ورثتها إدارات البيت الأبيض لاحقاً باعتبارها العناصر الضرورية «لممارسة اللعبة» على حد تعبير جرجن الذي يضيف: «إنها بمثابة تنسيق شامل للتحرك بتفصيل لا سابق لدقته. كانت هناك رغبة في التحكم بما حولهم وشعور بأنهم إن لم يتحكموا به فإن الغير سيتحكم به. أما الغير فهو كل من لايؤيدهم». وفي سعيهما الدائب للتحكم بالأمور استحدث نيكسون وهلدامان اربع عمليات للصحافة والدعاية. فتم تقليص سلطة السكرتير الصحفي للرئيس بحجب الكثير من

المعلومات عنه بحيث تتسع قدرة البيت الأبيض على السيطرة مع تأمين آلية للتنصل من المعلومات التي يتضح ضررها فيما بعد. ثم استحدثنا دائرة الاتصالات بإدارة (كلاين) ودائرة العلاقات العامة بإدارة (كولسون). واستحدث (كلاين) أداتين مازالتا تحتفظان بأهميتهما، وهما تنسيق خط البيت الأبيض على مستوى الحكومة، والتغذية الإخبارية للصحف المحلية والإقليمية وصحف المنظمات الاختصاصية خارج نطاق واشنطن. يقول (كلاين) متذكراً: «كنت أرى أن مشكلة الحكومة تكمن في غياب التنسيق بين عناصرها بحيث يتحرك كل منهم حسب هواه. فاستحدثنا الاجتماعات الأسبوعية مع المسؤولين عن الشؤون العامة في كل وزارة، بحيث نضرب جميعاً على وتر واحد. وفي الوقت نفسه، استحدثنا مكاتب صحفية في المدن الكبرى لضخ الأخبار والمعلومات للصحف المحلية بصورة أفضل مما يفعل مكتب واحد من واشنطن».

أما الدائرة الرابعة فمهمتها إعداد وكتابة الخطب ويرأسها برايس. فهي تعدّ ليس فقط خطب الرئيس والنقاط التي يتناولها في أحاديثه، بل كذلك أغلب السيل الذي لا ينقطع من الخطب التي يحتاجها كلاين وكولسون لعمليات الوكلاء. وكان يعمل في هذه الدائرة ما يناهز الخمسين شخصاً في ذروة حملة ١٩٧٢. وفي ١٩٧١ قام برايس بتعيين كلاين موظفاً في هذه الدائرة ثم رقّاه بعد سنة إلى معاون له.

قبل فضيحة (ووترغيت) كانت المهمة الأساسية لعمليات الصحافة والعلاقات العامة تتمحور حول تكريس صورة «نيكسون الجديد» لدى الرأي العام. ويتجلى هذا في مذكرة عممت في البيت الأبيض أواخر ١٩٧٠. وجاء فيها أن سياسة كندي الخارجية فاشلة فشلاً كارثياً غير أن «جاذبيته هي التي أنقذته» أما أيزنهاور فكان بارداً تجاه طاقمه من المسؤولين غير انه أفلح في الظهور أمام الرأي العام بمظهر الرئيس «الدافئ، العطوف والعادل». وشخصت المذكرة الخطوات اللازمة لإظهار نيكسون كرئيس «يتحلى بالفضائل والمزايا التي تروق لغالبية الأمريكان، مثل العمل الدؤوب والدفء، والعطف ومراعاة الآخرين، وتحمل المصاعب دون تحميلها للآخرين». فراح مفبركو القصص في البيت الأبيض يبحثون عن «وقائع الدفء والتعامل الإنساني» في سلوك الرئيس. فدبّج أحد كتاب الخطب تقريراً مطولاً يضم عشرات الوقائع التي نسبها إلى المقربين إلى الرئيس ليضفي عليه خصالاً حميدة، مثل التواضع والشجاعة والعطف مع عدم الانحناء أمام الملمات. وجاء في التقرير، على سبيل المثال، أن نكسون تعرض إلى انزلاق في الشارع المثلج لكنه لم يدعْ طفلته

تفلت من بين ذراعيه، وأنه زجر ذات يوم رجلاً ثرياً من نيويورك تفوه بنقد لاذع لسياسته إزاء فيتنام.

في ظل هذا الهوس بإضفاء الكمال على الرئيس أتقن جرجن حرفته. فتعلم ما لتكرار القول من أهمية. كان نيكسون يقول له المرة تلو المرة: «عد إلى الفكرة لتكتبها مرة بعد أخرى، وحين تبلغ حالة الغثيان من التكرار، تذكر أن الشعب الأمريكي يسمعها منك لأول مرة». وتعلم جرجن صياغة ما يكتب لاجتذاب اهتمام الناس. وكان (هالدامان) يقول له: إن الغالبية العظمى من الكلمات التي تنشر على لسان الرئيس سهلة النسيان جداً. فمن الضروري التركيز على السطر الذي يمنح كلام الرئيس وزناً. كما تعلم جرجن أن يجعل البيان الذي يتلوه الرئيس أمام الصحفيين لا يتجاوز المئة كلمة. فإن كان البيان طويلاً، سيختار الصحفيون ما يحلو لكل واحد منهم. وتعلم الانضباط الدائم اللازم للحفاظ على الصورة العامة للرئيس في كل ما يقول ويفعل.

وأتقن جرجن دروساً لا يود التحدث عنها، مثل استخدام الوكلاء والجماعات المؤيدة للرئيس لمهاجمة خصومه السياسيين من وراء الستار. ففي الحملة الانتخابية لعام ١٩٧٢ ضد (مكغفورن) الليبرالي من الحزب الديمقراطي استخدمت أشد التهجمات فاعلية وديمومة وقسوة في تاريخ أمريكا. وأشرف على الحملة (كولسن). وقد توارث هذا الأسلوب منظمو الحملات الرئاسية اللاحقة التي طغت فيها التهجمات المنظمة والمخططة والقائمة على الأمور الشخصية للخصوم.

وأهم ما تعلم جرجن على عهد نيكسون هو الصراع من أجل البقاء. فعام ١٩٧٣ أدت فضيحة (ووترغيت) إلى انحطاط علاقة البيت الأبيض بالصحافة إلى حرب شعواء. فهو يقول: كان كل سؤال يوجه إلى الرئيس حينذاك أشبه بخنجر مصوب إليه. وأحرز جرجن سمعة راسخة في تلك الأيام سواء داخل البيت الأبيض أم عند الصحفيين باعتباره مسرباً أو مصدراً رئيسياً للأخبار. وفي نهاية المطاف صار أغلب موظفي نيكسون يرفضون التعامل مع الصحافة. أما جرجن فواصل التحدث إلى الصحفيين الذين يوغلون في التحقيق تمهيداً لكتابة تاريخ تلك الفضيحة.

بعد استقالة نيكسون من الرئاسة عام ١٩٧٤، عمل جرجن كاتباً لخطب (وليام سيمون) وزير الخزانة الذي عاد إلى العمل التجاري ليصبح من أغنى الناس. وكان محافظاً متزمتاً إلى يمين نيكسون وجرجن. لكن جرجن لن يجد صعوبة في التكيف معه ايديولوجياً. فراح يكتب له خطباً لا يومن بما فيها قط. ثم عمل في الصحافة

ليصبح مدير تحرير مجلة Public Opinion التي يصدرها «معهد المشروع الأمريكي» للفكر المحافظ. وأثناء ذلك كتب الخطب لريغان وسيمون حين كانا يحاولان ضمان الترشيح للرئاسة. ثم عمل بصورة غير رسمية لبوش. فعقد لصالحه اجتماعات للاقتصاديين وكتب خطبه. ثم تخلى عن بوش حين لم يحظ بترشيح الحزب الجمهوري ليلتحق بخدمة ريغان مطلع عام ١٩٨١ كمدير في البيت الأبيض وسرعان ما أصبح مديراً للاتصالات. فانبثقت آلية إعلامية ورثت الكثير من أسلوب البيت الأبيض على عهد نيكسون. فكانت المجموعة المكلفة بالدعاية تجتمع أسبوعياً ساعية إلى تخطيط وإدارة ما يقوم به الرئيس بتدقيق برامجه اليومية ساعة بعد ساعة لبلوغ الغاية المطلوبة من نشاطه. وكُلف جرجن بمهمة التلفيق والتسريب للأخبار والمعلومات، فأصبح طالبوها يتوجهون إليه فراح يحسّن صورة ريغان العامة وصورته هو بين الصحفيين بدرجة أكبر. فطلب رئيس الأركان (بيكر) من جرجن التشاور معه قبل التسريب، فقدم استقالته من العمل. وأخيراً التحق، كما أسلفنا، بخدمة الرئيس الحالي عضو الحزب الديمقراطي.

بحلول خريف ١٩٩٣ هيمنت صورة كلنتون على الشاشة الصغيرة وبيده المكرفون الالكتروني ليتحدث ويصغي ويظهر العطف، حتى بدت رئاسته أحياناً أشبه بتلفزيون في متناول الجمهور، فالكل يظهر معه على الشاشة، إن عاجلاً أو آجلاً. فيشاهد متحدثاً مع مشاهير مقدمي الأخبار والدردشة التلفزيونية، وكذلك مع رواد الأسواق ومقاولي البناء والجنود والبحارة والمعلمين والأطفال ومع الناس أثناء تناول الغداء.

وأثناء طرح مشروعه للخدمات الطبية توحدت في منظومة واحدة السياسة والستراتيج والدعاية التجارية والصحافة . وخلال عرض مشروعه في الكونغرس شاهده الناس رافعاً بيده بطاقة بلاستيكية ملونة أشبه ببطاقات السحب الفوري من المصارف وقد خط على ظهرها ما يشبه الدعاية التلفزيونية لشركة تأمين: «هذه البطاقة تضمن لك خدمات لا يمكن حرمانك منها أبداً». وفي أجواء الإثارة المحيطة بالحدث تظهر زوجته خمس مرات على الشاشة مخاطبة الكونغرس وتجري معه المقابلات في قنوات التلفزيون الرئيسية جميعاً . ويقوم هو بالإجابة على أسئلة المواطنين على الشاشة لساعتين ونصف. ثم يستضيف برنامج «اجتماع المدينة» في كاليفورنيا، ويستضيف جمعاً من منتقى المواطنين في مطعم راق بنيويورك ليستنطقهم بأسلوب (أوبره وينفري) الشعبي حول معاناتهم من عيوب النظام

الصحي الحالي. وشنت قيادة حزبه الديمقراطي حملة للاتصال بالناس عبر التلفون والرسائل التي تحمل توقيع الرئيس. ثم دعا وزوجته أكثر من عشرين صحفياً إلى «وليمة غداء راقية جداً» حسب تعبير منظم دعايته جرجن. وفي غضون ذلك أعدت في الحديقة الأمامية للقصر الأبيض مناضد ليستخدمها مراسلو ٥٥ محطة إذاعية في البث المباشر فيما تجول بينها موظفو البيت الأبيض المعنيون بالدعاية للإجابة على الأسئلة.

وجدير بالذكر أن الرئيس الأسبق روزفلت كان قد طرح قانون الضمان الاجتماعي عام ١٩٣٥ على الكونغرس في رسالة وجيزة متواضعة تلاها بعض الكتبة. وأثناء عملية المناقشة لم يتحدث روزفلت علناً سوى مرتين: مرة خلال مؤتمر صحفي مختصر، وأخرى من خلال كلمة عبر الإذاعة.

أما الرئيس الحالي فيبدو أنه تجاوز حدود الوقار وضبط النفس في الدعاية لسياساته. فقد طغت أساليب الدعاية التجارية على عالم السياسة، حتى بات التسويق الواسع وخاصة عبر التلفزيون يبدو وكأنه الأسلوب الوحيد لتسويق السياسة أيضاً. وأمسى الأداء الناجح على شاشة التلفزيون شيئاً فشيئاً يقرر نجاح المرء في الحياة، خاصة في واشنطن. فعلى سبيل المثال أشرف المدعي العام على مداهمة مسلحة كارثية النتائج لمقر طائفة صغيرة في ولاية تكساس كانت حصيلتها مقتل ما يزيد عن ٨٠ شخصاً. ولكنه اعتبر بطلاً قومياً بفضل أدائه الناجح على شاشة التلفزيون مساء ذلك اليوم. ثم نال مزيداً من الإطراء الحماسي على لسان نائب الرئيس في «برنامج السهرة».

لقد أمست واشنطن مكاناً غريباً منحطاً، فقد ضاع فيها الخط الفاصل بين الواقع والخيال. لكنها القلب الحقيقي لثقافتنا القومية، هذه الثقافة التي تآكلت فيها عبر السنين الحدود والمعايير حتى كادت الآن تتلاشى تماماً.

في السابق كان الرؤساء والوزراء والجنرالات أثناء الحروب يتمتعون بامتياز الحديث إلى الصحفيين على ألا تعلن أسماؤهم. وكانوا لا يستخدمون هذا الامتياز إلا نادراً. أما الآن فبات من الأمور المقبولة أن يتولى مساعدون من المستوى المتوسط إيضاح سياسة البيت الأبيض لعشرات الصحفيين مع عدم الكشف عن الهوية. ويظهر نجوم السينما بصحبة وكلائهم من الصحفيين وحرسهم الخاص للإدلاء بـ«الشهادة» في الكونغرس. كما يظهر الساسة والصحفيون في لقطات فنية متقنة، شأن نجوم السينما، للحديث في أمور السياسة والصحافة.

وينضم الصحفيون إلى الساسة في عرض الخدمات للجماعات ذات المصالح الخاصة. ويعترف السوق في الوقت الحاضر بالمكافأة النقدية للقائمين بتزييف الواقع. فخلال السنة والنصف التي سبقت التحاق جرجن بالبيت الأبيض جنى حوالي ٧٠٠ الف دولار من التحدث في الاجتماعات والندوات.

وغدت أوساط الصحافة موبوءة بالتضخم والفساد. فهناك زهاء ١٧٠٠ مراسل معتمد لدى البيت الأبيض وأغلبهم على اتصال الكتروني ببعضهم وبالسيل العرمرم من الكلمات والصور التي تنتجها واشنطن كل يوم. وبسبب ضخامة عدد هؤلاء الصحفيين والإلفة المفرطة بينهم، أمسى هذا الوسط أشبه بمراهق مولع بصرعات الأزياء، تتذبذب مواقفه إزاء السلطة المعنية بين الحماس الحار لها والسخط الهستيري عليها، من التهليل لكل ما يقول الرئيس، إلى إدانة كل ما يفعل الرئيس. إن الهوس بالمظاهر يجعل هذا الوسط على الدوام معرضاً لتأثير صانعي الصور العامة للساسة. فهو يكيل الثناء لانتصار الشكل على المضمون، للعبارات المنمقة، واللقطات الفوتوغرافية البارعة، والعمليات الدعائية الفعالة. ولكن هذا الوسط يدرك أنه ضحية المؤثرات، فيمارس ثأراً خبيثاً باستثمار أية زلة وأي انحراف عن صورة الكمال. وتكرار الحديث عن الزلة والانحراف يضاعف أهميتها، ويمكن أن يسيء إلى سمعة كبار المسؤولين إلى الأبد. وقد يودي بمستقبلهم السياسي إذا تكررت الزلة والانحراف.

يشعر العديد من الناس، حتى في واشنطن، بالأسى بل الهلع إزاء هذا الانحطاط. أما جرجن فإن شعوره ذو طابع شخصي. فبعد أن أمضى عشرين سنة في تدبير ألاعيب واشنطن هذه نجده يقول بشعور من الحزن والذنب: «يصعب أن أتحدث عن هذا الأمر. فهو يغور في النفس. ففي الشؤون العامة، بما في ذلك رئاسة البلاد، هناك مقدار من الدعاية المستمرة، هناك مقدار من التسويق المفرط، وإني أقر بالذنب لأني في الماضي ساهمت في ذلك كثيراً... اشعر ببعض الذنب في تسريع اللعبة وتضخيمها خلال السنين الماضية. كنت أشعر بأهميتها... لكن كان لها عواقب لم نتوقعها... فقد أصبحت اللعبة شيئاً فشيئاً هي المسألة الهامة. فهناك إفراط في التسويق السياسي بحيث امسى الآن ذا طابع بنيوي. ولكن القسط الأكبر من شعوري بالذنب هو لأني أتحمل قسطاً من المسؤولية عما يحدث للناس في هذا البلد جراء اللعبة. لا أعتقد أن الحكومة خلال العشرين عاماً الماضية كانت سريعة الاستجابة لهموم الناس كما ينبغي. وأدرك الآن أن مقياس النجاح ينبغي أن يكون

الأفعال التي تغير حياة الناس نحو الأفضل. وبهذا المعنى أرى أن الحكومة والساسة في واشنطن مقصرون في أداء الواجب خلال العشرين سنة الماضية».

لا يدعي جرجن حتى الآن أنه من الحكماء، غير أنه بات يتحدث حديث الحكماء، وحين يتحدث عن مشورته لكلنتون، البالغ سبعاً وأربعين سنة من العمر، فإن كلامه يكاد يشبه كلام معلم يتباهى بتقدم تلميذ واعد، إذ يقول: «لقد طور كلنتون نظرة جديدة إلى الرئاسة ومعنى وكيفية القيادة وقد تحدثت معه حول هذا كثيراً...».

ومن الطريف أن جرجن يقارن رئاسة الحاضر بالماضي، قبل أن يشتغل أمثاله على تزيينها، فيقول: في الماضي كانت أشياء كثيرة تسوق بإفراط من خلال الكثير من الأكاذيب» ثم يضيف: يجب أن يكف الرئيس عن القيام بدور «المعلق الرئيسي» بالظهور كل مساء على شاشة التلفزيون للإدلاء بما يحتاج إلى تسويقه في ذلك اليوم أو للرد على الصحافة، يجب على الرئيس أن «يطرح رؤيا أوسع، يطرح أهدافاً للبلاد، ويحاول إلهام الناس للتوجه صوب تلك الأهداف».

ويرى جرجن أن تسويق الرئيس ينبغي أن يكون على صلة أكبر بالواقع: «لقد أمطرونا بكثرة من معسول الكلام المخدّر بحيث أصبح من المفيد التحلي بشيء من التواضع». ولكن حتى جرجن الذي تفتقت حكمته مؤخراً لا يعتقد أن ذلك سيتحقق، فهو يقول: «وأنا أغادر البيت الأبيض، قبل أيام، أحصيت الكاميرات المهيأة لمقابلة ذلك المساء فوجدتها أربعاً وعشرين بالتمام. فماذا عسى المرء أن يفعل وقائمة طلبات إجراء المقابلة طولها ذراع؟ فلو قال الرئيس: ليذهبوا إلى الجحيم، فإنه سيتهم بالانغلاق. وإذا أجرى المقابلات فإنه يعود ثانية إلى التسويق المفرط. فأكثر ما نفعل قد أمسى جزءاً ضرورياً من اللعبة. من المستحيل تقريباً تغيير قواعد اللعبة في منتصفها. فمن الصعب تصور تمشية أمور الحكومة لو استطاع المرء وقف عجلة ماكنة الدعاية الحكومية. فهذا يتطلب طفرة هائلة إلى نهج مغاير تماماً، نهج يتعذر التكهن بعواقبه المحتملة بالنسبة للنظام برمته. فقد يحل بالرئاسة الشلل».

ترجم النص الكامل:

محمد توفيق علي

أمريكا من الداخل

سيادة الشعب مقابل الدولة

ميشيل بارنتي

ربما يكون من الأفضل اعتبار شكل النظام السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية أنه نظام ثنائي. فأولاً هنالك الانتخابات والشخصيات السياسية، والبيانات العامة، وهندسة الصورة الايجابية للزعماء، إضافة إلى مجموعة القضايا المنظورة التي تحظى بانتباه عابر في وسائل الاعلام. وثانياً، هناك نظام سلطة القسر المستخدمة لحماية البنية السائدة للاقتصاد وخصوصاً المصالح المحلية والعالمية لشركات الولايات المتحدة.

يتم تدريس النظام الأول في المدارس وشرحه من قبل الأكاديميين، ويتناوله الصحفيون في أخبارهم. أما النظام الثاني فلا يدرّس في المدارس ولا تناقشه الصحافة عادة، ويبدو أن الأغلبية من الأكاديميين ومعلقي أجهزة الإعلام لم يسمعوا به من قبل.

يعكس هذا النظام الثنائي التباينات بين الحكومة والدولة. فالحكومة تتعامل مع ما هو منظور كالموظفين وجماعات الضغط السياسي، والمصالح السياسية والمطالب الشعبية، وهي تمثل ما هو نيابي أو سواه من عناصر الحكم الديمقراطي. وهي ثمرة كفاح شعبي لأجيال عديدة. وعلى نقيض ذلك فإن الدولة ليست معنية، إلا قليلاً بعض الأحيان، بالحكم الشعبي أو صنع السياسة العامة، وهي في النهاية أداة القسر الرئيسية للسلطة الطبقية. وقد لاحظ (انجلز) انه عندما تراكم الفائض في المجتمع الزراعي البدائي، تكونت الدولة الجنينية الأولى من الزمر المسلحة الأجيرة لدى المالكين لحماية أراضيهم، في حين لاحظ (ماكس فيبر) أن السمة

الأساسية للدولة، أو خاصيتها الملازمة، هي احتكارها للاستخدام الشرعي للعنف. و«الشرعية» هنا مصدرها التخويل الذي تمنحه السلطة الدستورية.

الدولة بالضد من الديمقراطية

لكي تؤدي دورها كحامية للنظام، تلتفّ الدولة عادة على مختلف القيود الديمقراطية الموجودة ضمن الحكومة. فقد لاحظ (هوفر)، رئيس مكتب التحقيقات الفدرالي F.B.I في عام ١٩٧٠ «أن العدالة مجرد شيء طارئ بالنسبة للقانون والنظام. إنها جزء منهما لكنها ليست كلهما». أما «كلهما» فهو المحافظة على العلاقات الطبقية القائمة، أي حماية البنية الاجتماعية ـ الإقتصادية من الإصلاح الجذري والتغيير الثوري. وهذا هو الهدف الثابت لأجهزة فرض القانون التابعة للدولة، الأمر الذي مارسه (هوفر) نفسه عملياً في مناسبات عدة. وبذلك فإن حماية العدالة والسلامة العامة أمران ثانويان، تتجاوزهما الدولة لتضمن استمرارية النظام الاجتماعي السائد.

وخشية اعتبار قولي فكرة ماركسية تدعو للاستغراب، يجدر الرجوع إلى قول الفيلسوف الانكليزي (جون لوك) الذي كتب عام ١٦٨٩ «ان الغاية الرئيسية من اتحاد الناس في جماعات ذات مصالح مشتركة وخضوعهم للحكومة، هي الحفاظ على ممتلكاتهم». وكتب (آدم سميث) في ١٧٧٦: «تتنامى ضرورة الحكومة المدنية مع حيازة الممتلكات ذات القيمة». كما قال: «إلى أن تنشأ الممتلكات يمكن الاستغناء عن الحكومة، فغايتها النهائية هي صيانة الثروة وحماية الغني من الفقير». وينبغي علينا تذكر أن الغرض التاريخي المتوخى من الحكومة الديمقراطية، منذ مجتمع أثينا القديمة إلى يومنا هذا، هو العكس تماماً، أي حماية الفقير من الغني.

وبشكل عام، فإن الفرق بين الحكومة والدولة هو الفرق بين مجلس المدينة المنتخب وشرطتها، أو بين الكونغرس ووكالة المخابرات المركزية CIA. فالحكومة تتولى السياسة العامة، بينما تنظم الدولة القسر والسيطرة، بالسر والعلانية. لكن ذلك تمييز نظري بين ما يشكل في الواقع ظواهر متداخلة عملياً. والتداخل واضح خاصة فيما يتعلق بالسلطة التنفيذية التي هي مركز سياسة الحكومة وضامنة سلطة الدولة في آن.

إن الخط الفاصل بين الدولة والحكومة يصبح غير واضح فيما يتعلق بالمحاكم ومؤسسات إدارية معينة، وفي ما يتعلق أيضاً بأعضاء الكونغرس الذين يعملون في

لجان تتناول الشؤون المخابراتية والعسكرية. فهؤلاء يعملون أساساً كمتعاونين مع الدولة بشأن الأمن القومي لا كمشرعين مستقلين يمارسون الرقابة الانتقادية.

إن التمييز النظري بين الدولة والحكومة يتيح لنا ادراك بعض الشيء عن العلاقة بين السلطة السياسية ـ الاقتصادية والحكم الشعبي. فقد أصبحنا ندرك أكثر أن تولي مسؤولية الحكومة نادراً ما يضمن الوصول إلى أدوات سلطة الدولة بكاملها. فحينما فاز في انتخابات الرئاسة (سلفادور الليندي) مرشح الوحدة الشعبية الذي كرس نفسه للإصلاحات الديمقراطية بالنيابة عن الطبقات الكادحة، في تشيلي عام ١٩٧١ تسلم زمام الحكم واستطاع إطلاق مبادرات سياسية شعبية. لكنه لم يستطع البتة السيطرة على أجهزة الدولة، اي الجيش والبوليس وقوى الأمن والمخابرات والمحاكم فضلاً عن القوانين التي تجعل النظام برمته يميل لمصلحة الأثرياء. وعندما بدأ يخطو باتجاه سياسات اعادة التوزيع بالضد من الامتيازات الطبقية، استولى الجيش على مقدرات السلطة وقتل الليندي والآلاف من أنصاره. هذا الإنقلاب الذي نُفذ لصالح الدولة الرأسمالية مدعوماً من CIA، دمر ليس فقط حكومة الليندي بل العملية الديمقراطية التي جاءت بها.

وفي نيكاراغوا، بعد أن خسر الساندينيون انتخابات عام ١٩٩٠، لصالح تحالف الوسط اليميني، بقي جهاز الجيش والبوليس بأيديهم. مع ذلك وبعكس الجيش الشيلي الذي كان مسنوداً بالقوة الأمريكية الهائلة، كان الجيش النيكاراغوي مستهدفاً من قبل تلك القوة، ولم يكن بوسعه إبقاء الحكومة ضمن خطه الثوري. في الوقت ذاته فإن وجود مثل هذا الجيش اليساري، لحالة شاذة على أية حال، جعل إنجاز تغييرات لصالح الرأسمالية، بالسرعة التي تريدها واشنطن، مهمة غير سهلة أمام حكومة السيدة تشومورو الجديدة.

إن البلدان الرأسمالية التي حكوماتها ديمقراطية المظهر، تكون سلطة الدولة فيها غير ديمقراطية في كثير من الأحيان. ففي الولايات المتحدة دأب المحافظون، وكذلك ليبراليو الحرب الباردة، على استخدام مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI لقمع المناوئين للرأسمالية وغيرهم من المعارضين، وذلك بذريعة الحفاظ على أمن الدولة. وبذلك ساعدوا على خلق بوليس سياسي مستقل مطلق الصلاحيات تورط في أعمال غير دستورية متعددة. وفي عام ١٩٤٧، أنشأ الرئيس ترومان وكالة المخابرات المركزية CIA لجمع وتنسيق المعلومات الخارجية. وحسب تصريح السناتور السابق جورج ماكوفرن لصحيفة باريدي في ٩ آب ١٩٨٧ ان الوكالة

«انشغلت منذ البداية تقريباً ليس بجمع المعلومات الاستخباراتية فحسب بل كذلك بالعمليات السرية في الخارج، مثل تزوير الانتخابات والهيمنة على النقابات العمالية، والقيام بعمليات شبه عسكرية، وقلب حكومات، واغتيال رسميين أجانب، وحماية النازيين السابقين، والكذب على الكونغرس».

تقف «دولة الأمن القومي» هذه على شفا الجريمة المنظمة بفعل عملياتها الغامضة وحيلها القذرة، ومن خلال غسيل الأموال والاستخدام المتكرر للعنف غير القانوني. وتمسي الجريمة المنظمة لصيقة بتلك الدولة بفضل ما تقوم به من الاغتيالات وترويع العمال وجمع التبرعات واستغلال النفوذ في الدوائر العليا. ولا غرابة، إذن، في أن وكالات أمن الدولة تجد من المناسب التواطؤ مع عناصر الإجرام. فقد لاحظ أنطوني سومرز في كتابه عن ادغار هوفر المعنون «سري وشخصي»، أن لمكتب التحقيقات الفيدرالي روابط وثيقة مع الجريمة المنظمة، كما يسجل عميل CIA السابق روبرت مورو في كتابه First Hand Knowlege، كم راعه اكتشاف العلاقة الحميمة بين هذه الوكالة والغوغاء. وعلى امتداد السنوات استطاعت لجان تحقيقات عديدة تابعة للكونغرس أن تكشف النقاب عن روابط بين الوكالة وتجارة المخدرات.

لا عجب إذن، في أن أحد أشهر زعماء المافيات الأمريكية، آل كابوني، يفقد رباطة جأشه، شأنه شأن هوفر، حين يبدي رأيه بعالم السياسة الأوسع، إذ يقول «نظامنا الأمريكي أو سمّه الأميركانزم أو الرأسمالية، أو سمّه ما شئت، يمنح كل واحد منا فرصة عظيمة لو أننا فقط تشبثنا بها وأحسنا استغلالها. إن البلشفية تطرق أبوابنا، ولا يمكن أن ندعها تدخل، علينا أن ننظم أنفسنا ضدها ونتكاتف في وجهها. يجب أن نحافظ على أمريكا موحدة، آمنة، سليمة. كما يجب أن نبعد العمال عن الأدبيات الحمراء والأحابيل الحمراء. ينبغي أن تبقى عقولهم سليمة» (مجلة ليبرتي ١٩٢٩).

وظهرت في الديمقراطيات الغربية الأخرى تنظيمات سرية شبه عسكرية ذات ميول فاشية جديدة، (الأكثر شهرة بينها غلاديو أوبريشن في ايطاليا) أسسها حلف الناتو للتصدي لاحتمال مجيء القوى الثورية المناوئة للرأسمالية إلى السلطة. فمثلاً تم زج هذه الوحدات السرية في الهجمات الارهابية ضد اليسار الشرعي، وقامت بإسناد النظام الفاشي في البرتغال، وساهمت في انقلابي ١٩٧١، ١٩٨٠ العسكريين في تركيا، كما في انقلاب ١٩٦٧ اليوناني، وقد وضعت خططاً لاغتيال القادة الاشتراكيين الديمقراطيين في ألمانيا، وشنت هجمات متلاحقة ضد المنظمات

الاشتراكية والشيوعية في ايطاليا واليونان. كذلك شكلت شبكات اتصال سرية ووضعت قوائم اعتقال للخصوم السياسيين في بلدان مختلفة.

لقد لاحظ بن لوي (الغارديان، كانون الأول ١٩٩٠) أن هذه العمليات ناتجة عن عدم رغبة (الناتو) التمييز بين غزو سوفيتي وفوز أحزاب شيوعية محلية في الانتخابات، فلم يكن لدى الحلف فارق كبير بين خسارته أوربا عن طريق الغزو السوفيتي أو عن طريق الاقتراع السلمي، وكان الاحتمال الأخير يبدو هو الأرجح في الواقع. إذ لا يمكن للدبابات السوفيتية أن تتحرك دون مخاطر حرب نووية، أما المناوئون للرأسمالية فقد يكون بامكانهم حكم جميع البلدان من خلال صناديق الاقتراع دون إطلاقة واحدة.

ولابد هنا من تذكر قول كيسنجر، وزير الخارجية الأسبق، تعليقاً على إسقاط الديمقراطية الشيلية حين قال «لا أرى مبرراً لأن نقف متفرجين إزاء بلد يسير نحو الشيوعية بسبب عدم شعور مواطنيه بالمسؤولية». ومعلوم أن وظيفة هذه العمليات السرية كانت ضمان أن الديمقراطيات الغربية لا تسير باتجاه «غير مسؤول» أي اتجاه مناوئ للرأسمالية.

إن شتى المجموعات اليمينية تزدهر في الولايات المتحدة، ولديها معسكراتها المسلحة جيداً وقواتها السرية، دون أن تتعرض لمضايقة وزارة العدل التي لا ترى أي خرق للقانون في نشاطها. أما إذا كانت هناك مجموعات مسلحة معادية للرأسمالية فإن مصيرها تلقي الهجمات من قبل البوليس المحلي والفيدرالي، ومصير قادتها الاغتيال، كما حصل مع تنظيم «النمور السود» في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة أواخر الستينات وأوائل السبعينات.

تناسق الموقف المحافظ

أكد واضعو الدستور الأمريكي مراراً، من خلال الأحاديث والمراسلات بينهم، أن الغرض الأساسي للحكم هو الوقوف بوجه «النزعة المساواتية لدى الجماهير» وضمان مصالح أصحاب الثروات الكبيرة في مواجهة المزارعين والحرفيين والمدنيين. باختصار، هم يريدون دولة قوية لحماية الذين يملكون من الذين لا يملكون. واليوم يدعو المنظرون المحافظون إلى عدم تدخل الحكومة في الحياة الاقتصادية، ولكن من الناحية العملية فإن جذور نظام «السوق الحرة» غائرة في سلطة الدولة. فكل شركة في الولايات المتحدة مجازة من قبل الدولة مع حماية حقوق

الملكية وامتيازاتها بواسطة القانون والمحاكم والبوليس وحتى الجيش. فلو كانت الدولة غير موجودة، لما كانت هناك شركات مجازة قانونياً. ومن المفارقة أن يطالب ممثلو مصالح رجال الأعمال بعدم تدخل الدولة التي تقدم لهم المنح وضمانات القروض والإعفاءات الضريبية والأراضي بالمجان، ودعم الأسعار، وطائفة أخرى من الإعانات المالية الحكومية، ولكن حين يطالب هؤلاء المحافظون بأقل مقدار من التدخل الحكومي فإنهم يقصدون الخدمات الاجتماعية والضوابط الخاصة بالبيئة وحماية المستهلك والسلامة المهنية، أي كل ما يقلل من نسبة الأرباح. وهذا يشمل جميع أشكال الدعم الحكومي التي قد تقيد حرية السوق وتوفر للشغيلة مصادر بديلة للدخل مما يجعلهم اقل استعداداً للعمل بشروط أوطأ.

وإذ تطالب النخب المحافظة بتقليص سيطرة الحكومة، فإنها ترغب عادة في سلطة أكبر للدولة بهدف الحد من التأثير المساواتي للديمقراطية. فالمحافظون، بمن فيهم أعضاء في الحزب الديمقراطي كالرئيس كلينتون، يريدون أقوى تدخل للدولة في الحفاظ على الوضع السياسي ـ الإقتصادي القائم، وهم يفضلون الدولة التي تحدّ من نشر معلومات عن نشاطاتها، وتتخذ إجراءات قمعية ضد «المنشقين» وتستخدم وسائل عقابية ليس ضد الذين يسيئون استخدام السلطة بل ضد ضحاياهم.

كما تميز الدعاية المحافظة التي توجه لاستهلاك الجماهير، ضمنياً، بين الحكومة والدولة. وهي تدعو الناس لرؤية الحكومة على أنها مشكلتهم الكبرى. في الوقت ذاته تحرض هذه الدعاية الناس على الإعجاب بالدولة وعدم انتقادها: الإعجاب بعملها ورموزها الأخرى، بأدوات سلطتها المرئية كالقوات المسلحة.

دولة تنفيذية

إن السلطة التنفيذية، سواء كانت ممثلة بملك أم رئيس أم رئيس وزراء، تظل عادة أقرب إلى الدولة منها إلى الهيئة التشريعية. بعض أنظمة الحكم الأوربية يتزعمها رئيس وزراء يتعامل مع الشوون التشريعية والميزانية وأخرى غيرها، ورئيس جمهورية هو في نفس الوقت قائد عام للقوات المسلحة ورأس الدولة. وتلك ثنائية تجسد ضمنياً الفرق بين الدولة والحكومة. أما في الولايات المتحدة فإن السلطة التنفيذية تجمع بين وظائف رئيس الوزراء والرئيس، أي وظائف الدولة والحكومة، وظائف زعيم الحزب الحاكم والملك الدستوري.

أدرك ماركس الدور الخاص للسلطة التنفيذية في صيانة سلطة الدولة وسيادة الطبقة. فقد لاحظ في «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» أن رئيس الجمهورية الفرنسية الثانية كان يمثل الأمة بكاملها لا منطقة بعينها، أما الجمعية الوطنية، فتتجسد من خلال ممثلي الشعب فيها «الجوانب المتعددة للمجتمع» في حين أن الرئيس باعتباره «منتخب الأمة» هو التجسيد للأمة ـ الدولة.

وكثيراً ما ينسب، خطأ، لماركس القول إن الدولة هي الهيئة التنفيذية للبرجوازية. والواقع أنه وأنجلز قالا في «البيان الشيوعي» «ليست السلطة التنفيذية للدولة الحديثة إلا لجنة لادارة الشوون العامة للبرجوازية كلها». وبذلك أدركا الوظيفة الطبقية الخاصة للسلطة التنفيذية، كما اعترفا ضمناً أن الحكومة البرجوازية ليست وحدة متماسكة. فأقسام منها يمكن أن تصبح ميدان تنافس. هذا يصح كذلك حتى ضمن السلطة التنفيذية نفسها. وهكذا فإن وزارة الصحة والخدمات الاجتماعية ووزارة الإسكان والتنمية الحضرية تتعاملان أحياناً مع جمهور ومصالح تختلف اختلافاً واضحاً عن الجمهور والمصالح التي تتعامل معها السلطة التنفذية ممثلة بالبنتاغون (وزارة الدفاع) أو بوزارتي المالية والتجارة. ويتولى الرئيس تسوية التضاربات التي تنشأ بين المصالح المتعددة، بحيث يضمن بقاء الدولة على موقفها من حيث الجوهر.

إن في صلب السلطة التنفيذية ما يصون منعة الدولة، وذلك عن طريق ما يسمى «دولة الأمن القومي» (دولة المخابرات ـ المترجم) وهي تشكيلة غير رسمية لمؤسسات عسكرية استخباراتية، في مقدمتها CIA. ويعمل الرئيس بشكل فعال كرأس لـ«دولة الأمن القومي» هذه طالما بقي مخلصاً لثوابتها التي هي توسيع سلطتها لرعاية مصالح الشركات الأمريكية وكذلك عملية التراكم الرأسمالي على الصعيد الدولي. فلو انتخب للرئاسة تقدمي مثل الأب جيسي جاكسون، فإنه حتماً سيواجه صعوبات جمة للسيطرة على «دولة الأمن القومي» هذا إذا افترضنا السماح له بالبقاء رئيساً.

عام ١٩٧٧ حاول الرئيس كارتر تعيين سورينسون مديراً لـ CIA. وسورينسون لبرالي معروف، كانت له مواقف معارضة مبدئية فضلاً عن أنه كتب شهادات خطية دفاعاً عن ايلسبرغ وروسو لدورهما في نشر ملفات البنتاغون. غير أن الجمهوريين المحافظين في لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ سوية مع ديمقراطيين من أمثال رئيس المجلس، دانييل اينوي، عارضوا ترشيح سورينسون،

متذرعين بأن ارتباطه بمؤسسة قانونية تتعامل مع بلدان تتمتع CIA فيها بنفوذ مهم قد يخلق «تضارباً في المصالح» وبأنه استخدم وثائق سرية في كتابه، كما تذرعوا بحجج غير مقنعة أخرى.

وحسبما أوردت جريدة «نيويورك تايمز» في ١٩٧٧/١٢/١٨، أن «مصادر الكونغرس القريبة من اللجنة رأت أن وراء هذا الرفض قناعة أعضاء عديدين في مجلس الشيوخ بأن مدير CIA يجب أن يكون شخصية محافظة أكثر تشدداً من سورينسون». وعارض، أيضاً، تعيين الأخير مسؤولون في الوكالة نفسها، مما أدى إلى سحب ترشيحه.

وبعد تسلم جون كنيدي الرئاسة عام ١٩٦١، داب دولز، مدير CIA على عرقلة وصول المعلومات المتعلقة بمختلف العمليات السرية إلى البيت الأبيض. وعندما استبدله كنيدي بجون ماكون، بدأت الوكالة تحجب المعلومات عن ماكون الذي عين للمساعدة في السيطرة على الوكالة لكنه لم يستطع السيطرة على عملياتها السرية.

إن رئيساً يتعاون بشكل وثيق مع «دولة الأمن القومي» يمكنه في العادة أن يتصرف بما يخالف قوانين الحكم الديمقراطي دون خشية من العواقب. وهكذا تجاوز الرئيس ريغان العديد من شروط قانون مراقبة تصدير الأسلحة، بما فيها الشرط المتعلق بتقديم الرئيس تقريراً إلى الكونغرس في حالة بيع معدات عسكرية كبيرة إلى بلد ثان. كما خرق الدستور بتورطه في غزو غرينادا دون موافقة الكونغرس، وبإحجامه عن إنفاق أموال خصصها الكونغرس لخدمات اجتماعية مختلفة.

لقد رفض ريغان وآخرون في إدارته تقديم معلومات عند إجراء التحقيق بنشاطات معينة قاموا بها. كما ألغى بأمر رئاسي، التقييدات التي فرضها الكونغرس على مراقبة CIA لمنظمات وأنشطة أمريكية، رغم أن الأوامر الرئاسية لا تبطل القوانين الصادرة عن الكونغرس. واعتبر تدخله في نيكاراغوا خرقاً للقانون الدولي، وذلك في قرار اتخذته محكمة العدل الدولية بأغلبية ١٣ صوتاً مقابل واحد، ورغم ذلك لم يستدعه الكونغرس للمحاسبة. وكان غارقاً حتى أذنيه في فضيحة إيران ـ كونترا ولم يتم استدعاؤه أيضاً للمثول أمام أية لجنة تحقيقات أثناء ولايته. إن السلطة التنفيذية، بأعمالها اللاشرعية، التي تمر عادة دون عقاب، تضفي على الدولة بعض سلوك العصابات.

الكشف من أجل التغطية

أحياناً تستطيع الحكومة، من خلال إثارة ودعاية كافيتين، أن تُخضع الدولة قليلاً للرقابة الشعبية والقيود. ففي أواخر السبعينات حققت لجان البيت الأبيض ومجلس الشيوخ في بعض العمليات اللاأخلاقية التي نفذتها CIA. كما وضع الكونغرس تعليمات مقيدة لمكتب التحقيقات الفدرالي، وأجرى تحريات حول الخدع التي انطوت عليها فضيحة إيران ـ كونترا. كما قام بتحريات أخرى محدودة النطاق من حيث تأثيرها، ولكن خلال جميع تلك التحقيقات والفضائح، لم يجر التساؤل حول منطلقات نهج «دولة الأمن القومي» وولائها الطبقي.

وقد كشفت جلسات التحقيق في فضيحة إيران ـ كونترا أن معظم التحريات الرسمية حريصة على الحد من تبعات دولة الأمن القومي. وكان على لجنة الكونغرس المشتركة، باعتبارها تمثل سلطة الشعب التي تحقق في الفضيحة، أن تطمئن الرأي العام بأن تلك الأفعال اللاقانونية واللادستورية ستكشف وسيعاقب المسؤولون عنها. لكن كشفاً كهذا يتعارض مع أول ضوابط الدولة، وهو أن الديمقراطية لا ينبغي أن تؤدي إلى زعزعة الدولة نفسها. .

إن إجراءات الحد من تجاوز الدولة على القانون والدستور سلاح ذو حدين. فهي ينبغي أن تذهب إلى حد يكفي لتبيان أن الجهاز يطهر نفسه بنفسه، لكن ليس بعيداً إلى الحد الذي يزعزع السلطة التنفيذية ذاتها. فحتى محققو الكونغرس الذين أعلنوا صراحة تصميمهم على الذهاب إلى اخر الشوط في قضية إيران ـ كونترا هم أنفسهم كانوا حريصين على التذكير بأن «هذا البلد بحاجة إلى رئاسة ناجحة»، بمعنى أن من الأفضل عدم كشف الكثير وتعريض شرعية السلطة التنفيذية لمزيد من الضرر منذ فضيحة (ووترغيت) وسقوط الرئيس نيكسون. وإجمالاً فإن التحريات كانت تعري وتغطي في آن. لقد كشفت الأخطاء على مستوى المسؤولين الثانويين مع عدم المساس بالرئيس ريغان ونائبه بوش. والغرض من ذلك تعزيز شرعية الدولة بتعرية بعض التجاوزات ونكران وجود البعض الآخر منها.

إبقاء الحكومة على السكة

الدولة، بصورة عامة، أكثر فعالية في كبح جماح الحكومة وليس العكس. إن لجان الكونغرس الاستخباراتية تتألف عادة من أعضاء الحزبين ذوي التفهم لمتطلبات دولة الأمن القومي. لقد صُدمت إدارة بوش بتعيين خمسة من الليبراليين

في لجنة المخابرات التابعة لمجلس النواب (من ضمن نحو عشرين عضواً). وبتسجيل اعتراضها على ذلك أرادت الإدارة في الواقع تأكيد أن لتلك اللجنة علاقة متميزة مع الدولة، ولهذا لابد من توفر الولاء الايديولوجي في أعضائها. ويتعرض النواب الذين يشغلون مواقع تشريعية مهمة إلى بعض المخاطر حين لا يتوفر لديهم ولاء ايديولوجي للدولة. فمثلاً عندما أصبح جيم رايت رئيساً لمجلس النواب، بدأ يطرح أسئلة انتقادية لعمليات CIA السرية ضد نيكاراغوا (وله مواقف جيدة أيضاً لصالح العمال والحقوق المدنية والبيئة والخدمات الاجتماعية). فهذا شخص آخر ذو منصب رفيع يسائل السياسة الامبريالية للولايات المتحدة، مع أنه لا يدعوها «امبريالية» بالطبع. وإذ تهمل أجهزة الإعلام، في العادة، نشر انتقاد اليساريين والليبراليين لـ«دولة الأمن القومي» فإن شخصاً كرئيس مجلس النواب لا يمكن أن تهمل وسائل الإعلام رأيه، لذلك اعتبر موقفه خطيراً إلى درجة أن صحيفتي «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» قد هاجمتاه في الافتتاحيات، خصوصاً فيما يتعلق بتصريحاته حول نيكاراغوا. حينذاك تساءلت إن كان (رايت) سيموت في حادث غامض أم أنه سيموت فجأة موتاً طبيعياً. إلا أن هناك طريقة أكثر براعة، هذه الأيام، للتخلص من المسؤولين مثيري المتاعب. فقد أجرت وزارة العدل، التي يسيطر عليها الجمهوريون، مسحاً لسيرة (رايت) الشخصية وعثرت فيها على تعاملات مالية مثيرة للتساؤل، لكنها مألوفة لدى المسؤولين الذين يحتاجون دائماً إلى المال لحملاتهم الانتخابية. فاتهم بتلقي هدايا معيبة من ناشر ومتعهد للبناء في تكساس. ويبدو أن لدى السياسيين البرجوازيين الأمريكيين قانوناً غير مكتوب، هو أن أي زعيم سياسي يضبط بتهمة تعاملات مشبوهة، فإن بإمكانه التخلي عن منصبه لتفادي أية ملاحقات جنائية. والمثالان الساطعان على ذلك هما الرئيس نيكسون ونائب الرئيس سبيرو اغنيو. وهذا بالضبط ما فعله (رايت) دون إبطاء. فحل محله (توم فولي) وهو رخو لا يطرح أسئلة مثيرة للمشاكل حول العمليات المشبوهة لـ«دولة الأمن القومي» والنهج الامبريالي للولايات المتحدة في العالم.

يشكل منتقدو «دولة الأمن القومي» أقلية ضمن أعضاء الكونغرس. فبصورة عامة يتوافق قادة الكونغرس مع الدولة وبالتالي يتخلون عن مهامهم الأصلية. كذلك فإن معظمهم يساهم في الكتمان الذي يلف عمليات CIA والسياسة الأمريكية السرية. ونادراً ما ينهض أعضاء لجان المخابرات بمهامهم الرقابية، فهم لا يطرحون أسئلة عديدة عن العمليات السرية والحيل القذرة وتجارب السلاح والأسلحة النووية

وقمع التمردات والمساعدات التي تقدم للطغاة. وإذا ما ألحّ أحدهم بالسؤال فمن الممكن أن يصبح ولاؤه موضع تساؤل: لماذا يريد هذا العضو أن يعرف كل هذه الأسرار؟ وبذلك يدعون الدولة تعمل دون رقابة.

خلال جلسات فضيحة «إيران ـ كونترا» أخذ العضو الجمهوري (بروكس) مهماته التحقيقية على محمل الجد، فوجه سؤالاً إلى المقدم (أوليفر نورث) عن حكاية مساهمته في صياغة مسودة خطة سرية أطلق عليها «ريكس ألفا ـ ٨٤» تقضي بتعليق الدستور وفرض قانون طوارئ في الولايات المتحدة. فبدا الذهول على محيا (نورث) فتدخل رئيس اللجنة بلهجة صارمة: «أعتقد أن السؤال يمس مجالاً شديد الحساسية والسرية، فهل لي أن أطلب صرف النظر عن سؤالك، سيدي؟». فرد روك أنه قرأ في «صحف عدة أن مجلس الأمن القومي قد وضع خطة للطوارئ، عند حصول حالة طارئة، مما دعاني إلى الاهتمام جدياً بهذا الأمر». لكن الرئيس قاطعه مرة أخرى، فخيم التوتر الشديد. هكذا اعترف رئيس اللجنة ضمناً بأنه لا يستصوب التساؤل حول خطة سرية غير شرعية وضعها أشخاص من «دولة الأمن القومي» للقيام بانقلاب عسكري في الولايات المتحدة.

الاستبداد الدستوري

يوفر الدستور تدابير احتياطية تتلاءم مع وظائف الدولة، فعلى سبيل المثال هناك صلاحية تنظيم وتسليح الميليشيا واستدعائها لـ«إخماد التمردات». وهو ينص على تدابير «لإقامة حصون ومستودعات أسلحة ومخازن ذخيرة وورشات لبناء السفن، وغيرها من المنشآت اللازمة»، وكذلك الاحتفاظ بجيش وأسطول لغرض الدفاع الوطني، مع إبقاء قوات داخل الولايات المتحدة لمواجهة أي تمرد محتمل فيها. هذه القوات أثبتت فائدتها لكبار الأثرياء بعد قرن وذلك باستخدام الجيش مراراً لقمع الإضرابات العمالية. أما الآن فإن مهمة قمع الإضرابات هي غالباً من اختصاص البوليس والحرس الوطني.

إن المادة الأولى من الدستور تنص على حماية الأشخاص من الاعتقال الكيفي ولكن في حالات الطوارئ والتمردات يمكن تعطيل مفعولها بمرسوم رئاسي لهذا الغرض. وبذلك يهيء الدستور لتعليق الدستور ذاته لصالح استبداد الدولة ـ السلطة التنفيذية.

نجحت «دولة الأمن القومي» نجاحاً كبيراً بإخفاء معظم نشاطاتها عن الرقابة

الديمقراطية. فلدى CIA ميزانية سرية برغم أن الدستور ينص في المادة الأولى على أن «لا تسحب أموال من الخزينة إلا طبقاً لتخصيصات قانونية. ويجب أن يقدم علناً، من حين إلى آخر، كشف وحساب نظاميين باستلام الأموال العامة وإنفاقها».

لكن ليست هناك كشوف معلنة بالإنفاق على المجمع المخابراتي (يقدر هذا الإنفاق بين ٣٥ مليار إلى ٥٠ مليار دولار). وتخصيصاته مخفية في أجزاء أخرى من الميزانية وهي غير معروفة حتى من قبل معظم أعضاء الكونغرس الذين يصادقون على الاعتمادات المالية.

إن إصرار الدولة أحياناً على وضع نفسها فوق وخارج الدستور لم يعد بحاجة إلى السرية، بل يجري بعلنية كاملة، مثلما حدث في أزمة الخليج حين صرح وزير الخارجية جيمس بيكر بالقول: «لا نشعر أننا مجبرون على الرجوع إلى الكونغرس لإعلان الحرب»، أو كما صرح الرئيس بوش بأنه سيدفع القوات العسكرية إلى المواجهة حتى ولو نال قراره تأييد عضو واحد في الكونغرس. كان من الواجب لوم الرئيس على تصريحه المخالف للقانون هذا، وعلى تصرفه وكأن الجيش قوة خاصة به، لكن أجهزة الإعلام هللت لتصريحاته باعتبارها تمثل «الصلابة». ويذكرنا ذلك بتباهي تيدي روزفلت قبل ما يقارب قرن بتدخله الاستعماري في بانما: «لقد استوليت على منطقة القناة، وليناقش الكونغرس الأمر». إن خطورة السلطة التنفيذية تكمن في أنها تنفذ! فبيدها دوماً دفتا القيادة والتنفيذ القسري.

الدولة والمجتمع

حين أقول إن «دولة الأمن القومي» قد نُحيت عن العملية الديمقراطية، فأنا لا أعني أنها أبعدت عن حياتنا. فالواقع أنها تتغلغل في مجالات أعمق داخل المجتمع. لنأخذ التنظيم العمالي، على سبيل المثال. فبالتعاون مع «دولة الأمن القومي» يرعى مادة اتحاد النقابات «المعهد الأمريكي لتطوير حرية النقابات في أمريكا اللاتينية»، كما مولوا مؤسسات مماثلة في أفريقيا وآسيا لغرض إقامة نقابات مؤيدة للرأسمالية ومعادية للشيوعية، بغية نسف الاتحادات اليسارية المناضلة سواء في الداخل أو الخارج.

وتمارس «دولة الأمن القومي» تأثيراً على وسائل الإعلام التي تملكها الشركات. فلدى CIA هيئات إخبارية متعددة ودور نشر ومحطات بث إذاعي في

الخارج تقدم معلومات مضللة سرعان ما تجد طريقها إلى داخل الولايات المتحدة. وكذلك نشطت الوكالة في الولايات المتحدة في تدريب البوليس في بلدان عديدة على طرق المراقبة والاندساس، وتدعم عمليات تهريب المخدرات جزئياً بواسطة عناصر من الوكالة بمشاركة قوى البوليس المحلي، مما يؤدي، عملياً، أو عن قصد مسبق، إلى تدهور معنويات الجماهير والحيلولة دون تنظيمها، وبالتالي عدم بروز قادة مناضلين للجماعات.

يتضمن العديد من القوانين المتعلقة بالجرائم إجراءات «مضادة للإرهاب» تشكل خطراً على حريتنا وأمننا يفوق ما يمكن أن يسببه أي عمل إرهابي. فمثلاً اقترح الرئيس ريغان مشروع قانون يجعل من تقديم المساعدة لإرهابيين جريمة. ولأن ثوار السلفادور، مثلاً، اعتبروا إرهابيين، فإن كل من يقوم بعمل تضامني مع المعارضين الديمقراطيين والثوار السلفادوريين تجوز ملاحقته بتهمة المساندة والتحريض على «الإرهاب». وهكذا فإن الدولة تحاول كبح المساعي المعادية للامبريالية وحماية سلطتها الامبراطورية بكبح الديمقراطية ذاتها. (رفض الكونغرس ذو الغالبية الديمقراطية، حينذاك، إقرار مشروع ريغان هذا).

إن انتهاك الديمقراطية ظاهر للعيان في دولة أوربا الشرقية، حيث تتذوق شعوب ما كانت بلداناً شيوعية، الثمار المرة للجنة الرأسمالية. فسرعان ما أصبحت الديمقراطية السياسية، التي كانت وسيلة إطاحة الشيوعية، عاملاً معرقلاً لإعادة البناء الرأسمالي. لذلك تطلب الأمر تعليق الديمقراطية ذاتها أو الالتفاف عليها من أجل أن يتم إنجاز «الإصلاحات الديمقراطية» (أي التحول إلى رأسمالية السوق الحرة) بصورة كاملة.

وليس مستغرباً أن رؤساء عدة دول في أوربا الشرقية، كهنغاريا وبولندا وتشيكيا وروسيا قد فضلوا الدولة على الحكومة، داعين إلى وضع الديمقراطية جانباً والحكم بواسطة الأوامر الامبراطورية. ففي روسيا استخدم الرئيس يلتسن القوة والعنف لتمزيق الدستور، بقمع البرلمان المنتخب ديمقراطياً ومجالس المقاطعات واحتكار وسائل الاعلام وقتل أكثر من ألف شخص واعتقال آلاف آخرين. وجرى هذا كله باسم حماية الديمقراطية!

عندما تمر الرأسمالية بأزمة تصعّد الدولة الرأسمالية قمعها بدءاً من الهجوم على مستوى الناس المعيشي إلى انتهاك حقوقهم الديمقراطية التي قد تتيح لهم الدفاع عن ذلك المستوى المعيشي. فالديمقراطية تتأرجح على ظهر النمر

الرأسمالي، ليس في روسيا يلتسن فحسب، بل في ولايات كلينتون الأمريكية أيضاً، كذلك في معظم الدول الغربية. فأصحاب الثروات الطائلة والقوة المفرطة يلجأون إلى استخدام أي وسيلة ممكنة للحفاظ على مصالحهم واستمرارها . والدولة هي السلاح الأمضى في المواجهة القاسية.

ترجمة: مصطفى كاظم
عن: Monthly Review
عدد آذار ١٩٩٥

مطبوعات وردتنا

الحياة
الروحية في بابل ،
تراث ، دار المدى ـ دمشق ،
ترجمة د . عدنان عاكف حمودي

كلشكوف
أحلام الفيديو . قصص ، دار الجندي ـ دمشق .
لؤي عبد الإله

مجلة المدى ، العدد ١١

مجلة النهج ، العدد ٥ ـ الخريف .
مكرس لقضايا المرأة

أمريكا من الداخل

«كيف يمكن شراء السماء أو بيعها... ؟»

الزعيم سيلث

ما يلي نص خطبة الزعيم الهندي الأحمر (سيلث) أو Seattel ، حسب الوثائق الخاصة بقبائل الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد ألقى الخطبة في اجتماع لزعماء القبائل عام ١٨٥٥ قبيل عقد «الاتفاقيات» مع حكومة الولايات المتحدة وبعد أن دعا الرئيس الأمريكي الرابع عشر (فرانكلين بيرس) الهنود الحمر إلى بيع أراضيهم للمستوطنين البيض والعيش في مجمعات معزولة شبيهة بالمعتقلات «المفتوحة الأبواب» .

كان سيلث زعيم قبيلة دواميش التي كانت تقطن في ولاية واشنطن في الشمال الغربي من الولايات المتحدة . وقد اختفت آثار القبيلة حوالي عام ١٩١٠ . فظلت خطبة رئيسها التي وجهها إلى «رئيس القبيلة في واشنطن...» أي إلى الرئيس الأمريكي ، هي الأثر الوحيد الذي يذكّر بها . كان سيلث يوصف بانه «... أفصح خطباء زمانه...» رغم «همجيته» وجهله القراءة والكتابة ورغم تحدثه بلغة «بدائية» . ألقى خطبته بلغة قبيلته وترجمت إلى لغات ولهجات القبائل الأخرى ، وإلى الانكليزية لغرض «المفاوضات» مع الإدارة الأمريكية حينذاك .

لا تقتصر أهمية الخطبة على شكلها وأسلوبها بل تتعدى ذلك إلى مضمونها الفكري والسياسي الذي مازال محتفظاً براهنيته حتى يومنا الحاضر . ومن يقرأ النص لا يستطيع إنكار بُعد النظر في مفاهيمه ، كما أنه ليس مجرد وثيقة تعلمنا التعامل مع الطبيعة والرفق بها ، بل هو كذلك «... واحد من روائع الأدب السياسي...» كما وصفه أحد النقاد الأمريكيين .

إن النص وثيقة أخرى تفضح نكث «الرجل الأبيض» للعهود والمواثيق . وفَهم النص في إطاره التاريخي ، أي بالعلاقة مع اجتثاث جذور «الرجل الأحمر» وتدميره ، يُبعدنا عن اعتبار الخطبة هياماً رومانسياً بالطبيعة وجمالها . فالخطبة ، شكوى صارخة ضد القهر الاجتماعي ودعوة لتعامل الإنسان مع الإنسان على أسس العدالة والمساواة .

إنني إذ أترجم الخطبة ، معتمداً على نصوص مختلفة بعض الشيء ، أقدم شكري للصديق ألدو كاستيلو مث بيرو الذي لفت نظري إلى النص ولتزويده إياي ببعض المعلومات المتعلقة به . كما اشير الى استعانتي بالفيلم الوثائقي الامريكي Home الذي اعتمد في اخراجه على خطبة سيلث هذه .

■ الرئيس الابيض الكبير يخبرنا برغبته في شراء ارضنا. الرئيس الكبير يبعث إلينا أيضاً بكلمات الصداقة والنية الحسنة. هذا لطف منه فهو في غنى عن صداقتنا. سنفكر بعرضه لاننا نعرف اننا إذا ما رفضنا البيع فمن المحتمل ان يأتي الرجل الابيض ببنادقه ليستولي على أرضنا.

كيف يمكن شراء السماء أو بيعها أو شراء وبيع دفء الارض؟ لا نستطيع تصور امر كهذا. فاذا كنا لا نملك نقاء الهواء وتألق المياه فكيف يمكنكم شراءهما منا؟

سنتخذ قرارنا. بإمكان شيخ القبيلة الكبير في واشنطن الاعتماد على قول سيلث وان يكون واثقاً من ذلك كثقة اخينا الرجل الابيض بعودة فصول السنة. كلماتي لاتأفل كالنجوم، كل جزء من هذه الارض مقدس بالنسبة لشعبي، وكل ابرة في اشجار الصنوبر وكل شاطيء رملي، وكل ضباب في الغابات المعتمة، وكل فسحة في الغابات، وكل حشرة طنانة أشياء مقدسة في أفكاري وتجارب شعبي. النسغ الذي يصعد في الأشجار يحمل معه ذاكرة الرجل الأحمر.

أموات البيض ينسون الأرض التي ولدوا فيها حينما يرحلون متجولين تحت النجوم. أما أمواتنا فإنهم لا ينسون أبداً هذه الأرض الرائعة، لأنها أم الرجل الأحمر.

نحن جزء من الأرض وهي جزء منا. الزهور العطرة أخواتنا. الأيّل والحصان والنسر الكبير اخوتنا.

المرتفعات الصخرية والمروج الريانة ودفء جسم الحصان الصغير ودفء جسد الإنسان كلها تنتمي إلى العائلة نفسها.

عندما يخبرنا رئيس القبيلة الكبير في واشنطن أنه ينوي شراء أرضنا فإنه يطلب منا الكثير. الرئيس الكبير يُبلغنا أنه يعطينا مكاناً لنستطيع العيش مرتاحين لوحدنا وأنه سيكون أباً لنا وسنكون أبناءه.

ولكن هل هذا ممكن؟ إن الله يحب شعبكم وقد تخلى عن أطفاله الحمر. إنه يرسل ماكنات ليساعد الرجل الأبيض في عمله ويبني له قرى كبيرة. إنه يزيد من قوة شعبكم يوماً بعد يوم. وعما قريب ستملأون الأرض، مثلكم مثل الأنهار تنحدر إلى الشعاب والوديان بعد مطر غير متوقع. أما شعبي فهو مثل المد الجارف ولكن بدون رجعة.

كلا... نحن جنسان مختلفان، فأطفالنا لا يلعبون سوية مع أطفالكم وشيوخنا يروون حكايات تختلف عن حكايات شيوخكم. الله يقف إلى جانبكم ونحن أيتام بلا مُعين. سنفكر بعرضكم شراء أرضنا. لن يكون هذا هيناً لأن الأرض مقدسة عندنا وهذه الغابات تبعث فينا المسرة. إننا مبتهجون. لا أدري... طباعنا تختلف عن طباعكم.

المياه اللامعة المتحركة في الغدران ليست مجرد مياه بل هي دماء أجدادنا. إذا بعناكم الأرض فعليكم أن تعلموا أنها مقدسة، وعليكم أن تعلّموا أبناءكم أنها مقدسة. إن كل وهج خاطف في مياه البحيرات الصافية يروي أحداثاً وحكايات من حياة شعبي. وهمهمة الماء هي صوت أجدادي. الأنهار اخوتنا، تطفئ ظمأنا وتحمل زوارقنا وتطعم أطفالنا.

وإذا ما بعناكم أرضنا فعليكم أن تتذكروا وتعلّموا أطفالكم أن الأنهار اخوتنا واخوتكم وعليكم أن تهبوها ما يهب الأخ أخاه من طيبة. الرجل الأحمر تراجع أمام الدخلاء البيض كما يتراجع ضباب الفجر أمام شمس الصباح. رماد أجدادنا مقدس ولتربة قبورهم حرمتها. وهكذا فإن هذه الأشجار وهذا الجزء من الأرض من مقدساتنا.

نحن نعرف أن الرجل الأبيض لا يفهم طباعنا فهو لا يفرق بين جزء وآخر من الأرض، فكلها عنده سواء، لأنه غريب يأتي ليلاً ويأخذ من الأرض ما يروق له. الأرض ليست أخته بل هي خصمه. وحين يستولي على الأرض فإنه يواصل البحث عن أخرى. يسرق الأرض من أبنائها غير مكترث بشيء. يتعامل مع أمه الأرض وأخته السماء تعامله مع أشياء للشراء والنهب أو للبيع، كالخراف والخرز الملون.

جوعه سيلتهم الأرض ولن يترك وراءه غير الأرض اليباب.

لا أدري... إنكم تختلفون عنا. منظر مدنكم يؤذي عيوننا، ربما لأن الرجل الأحمر همجي ولا يفهم شيئاً.

لا هدوء في مدن البيض فهي تخلو من مكان يسمع فيه المرء تفتح الأوراق في الربيع وطنين الحشرات. لعلي همجي ولا أفهم شيئاً.

ما طعم الحياة إذا لم تستطع الإصغاء لصوت القبرات أو خصام الضفادع على ضفاف البركة ليلاً؟ أنا رجل احمر لا أفهم ذلك. الهندي الأحمر يحب همهمة الريح، تلامس سطح البركة، وأريج النسائم مغسولة بمطر الظهيرة ومضمخة بعطر شجر الصنوبر. الهواء غال وعزيز عند الرجل الأحمر. لأن كل الأشياء تتقاسم ذات الأنفاس: الحيوان والشجرة والإنسان كلهم يتقاسمون ذات الأنفاس.

يبدو أن الرجل الأبيض لا يلاحظ الهواء الذي يستنشقه، مثله مثل رجل يصارع الموت منذ أيام طويلة وقد ماتت فيه حاسة شم النتانة.

لكننا إذا بعناكم أرضنا فعليكم أن لا تنسوا أن الهواء غال وعزيز، فهو يشارك بروحه كل الحياة التي يحتويها. الريح أعطت أجدادنا الأنفاس الأولى وهي التي تستقبل آخر أنفاسهم وتهب أبناءنا روح الحياة.

إذا بعناكم أرضنا فعليكم أن تعرفوا أنها مباركة ومقدسة فتحترمونها على أنها مكان يشعر فيه الرجل الأبيض أيضاً بأن للريح أريجاً حلواً من أزاهير المروج.

سنفكر في عرضكم علينا أن نبيعكم أرضنا، وإذا ما قررنا قبول ذلك فبشرط واحد: على الرجل الأبيض أن يعامل الحيوانات كأخوة له.

أنا همجي لا أفهم ذلك بشكل آخر، فإنني رأيت آلاف الجاموس البري جثثاً هامدة تركها الرجل الأبيض بعد أن أطلق عليها النار من قطار وهو يمرق بسرعة. أنا همجي ولا أستطيع أن أفهم كيف يُعتبر الحصان الحديدي الذي ينفث دخاناً أكثر أهمية من الجاموس الذي لا نقتله إلا من أجل أن نبقى على قيد الحياة. ما قيمة الإنسان بدون الحيوانات؟ لو هلكت كل الحيوانات لمات الإنسان من وحشة الروح. إن ما يُصيب الحيوانات سرعان ما يصيب الإنسان. الأشياء كلها تترابط فيما بينها. ما يلمّ بالأرض يلم بأبناء الأرض أيضاً.

عليكم أن تعلّموا أطفالكم أن التربة التي يدوسونها بأقدامهم هي رماد أجدادنا. ولكي يحترموا الأرض قولوا لهم إن الأرض ملأى بأرواح أسلافنا. علموا أطفالكم ما علّمنا أطفالنا: الأرض أمنا. وما يصيب الأرض يصيب أبناء الأرض كذلك. عندما يبصق الناس على الأرض فإنهم يبصقون على أنفسهم. فنحن نعرف أن الأرض ليس من الإنسان وإنما الإنسان من الأرض، هذا ما نعرفه.

كل شيء مرتبط بعضه ببعض مثل الدم الذي يجمع بين أفراد العائلة. كل

الأشياء مرتبط بعضها ببعض، وما يصيب الأرض يصيب أبناء الأرض أيضاً. الإنسان لم يخلق نسيج الحياة، فما هو إلا مجرد خيط فيه، وأي ضرر تلحقونه بالنسيج هو ضرر تلحقونه بأنفسكم.

لا، لا، الليل والنهار لا يتعايشان.

أمواتنا يبقون أحياء في أنهار الأرض العذبة ويرجعون مع خطوات الربيع الخفيفة وروحهم في الريح التي تجعّد وجه البركة.

طلبُ الرجل الأبيض شراء أرضنا أمر سنفكر فيه. لكن شعبي يسأل عما يريده الرجل الأبيض. كيف يمكن شراء السماء أو الأرض أو سرعة الظباء؟ كيف نستطيع أن نبيعكم هذه الأشياء وكيف تستطيعون شراءها؟ هل تستطيعون أن تفعلوا بالأرض ما تشاؤون لمجرد أن الرجل الأحمر يوقّع قصاصة ورق ويعطيها للرجل الأبيض؟ إذا كنا لا نملك نقاء الهواء وتألق الماء، فكيف تستطيعون شراءهما منا؟ هل تستطيعون شراء الجاموس مرة أخرى وقد مات كله؟

سنفكر بطلبكم. نحن نعرف أننا إذا رفضنا البيع فأغلب الظن أن الرجل الأبيض سيأتي بسلاحه ويسلبنا أرضنا، فإننا همج.

إن الرجل الأبيض الذي يملك السلطة مؤقتاً يعتقد أنه الإله الذي يملك الأرض. كيف يستطيع الإنسان أن يمتلك أمه؟

سوف نفكر بطلبكم شراء أرضنا، الليل والنهار لا يستطيعان العيش سوية. سنفكر بعرضكم، علينا الذهاب إلى المجمعات حيث سنعيش بعزلة وسلام. ليس مهماً أين نقضي بقية أيامنا. أطفالنا شاهدوا آباءهم مهانين مقهورين، محاربونا يلاحقهم الخزي. بعد هزائمهم يقضون أيامهم لاهين عابثين، يسممون أجسامهم بأطعمة حلوة وشراب قوي. ليس مهماً أين نقضي بقية أيامنا فهي لم تعد كثيرة. بضع ساعات أو بضعة شتاءات، ولن يبقى واحد من أطفال القبائل الكبيرة العدد التي كانت تعيش فيما مضى على هذه الأرض أو تجوب الآن الغابات تبكي على قبور شعب كان قوياً وكبير الأمل كشعبكم. ولكن لماذا أبكي ضياع شعبي؟ الشعوب بشر وليس شيئاً آخر، والبشر يأتون ويذهبون كالأمواج في البحر. وحتى الرجل الأبيض الذي يسير جنباً إلى جنب مع ربه ويتحدث إليه مثل صديق إلى صديقه ليس بمقدوره أن يفلت من قدره المشترك. لربما نحن أخوة. فلننتظر ونرى.

شيء واحد نعرفه. شيء ربما يكتشفه الرجل الأبيض في يوم ما: إن لنا الإله نفسه، لعلكم تفكرون بامتلاكه كتفكيركم بامتلاك أرضنا. ولكنكم لا تستطيعون ذلك

فهو إله الناس جميعاً حمراً وبيضاً على السواء. إنه يحب هذه الأرض. إن انتهاك الأرض استهانة بخالقها. البيض أيضاً سيزولون ربما قبل بقية كل القبائل. استمروا على ما أنتم فيه فستختنقون بنفاياتكم في يوم ما. ولكنكم وفي طريقكم للزوال سيعلو وجوهكم الفرح مستمدين الشجاعة من قوة الإله الذي جاء بكم إلى هذه الأرض وقضى بأن تسودوا على هذه الأرض وعلى الرجل الأحمر، غير أننا لا نفهم لغز هذا القضاء. أي قضاء هذا وقد ذُبح كل الجاموس البري ورُوضت كل الخيول الوحشية ودُنست كل خبايا الغابات وشوهت الأسلاك الناطقة مشاهد التلال اليانعة؟ أين الأدغال وأين النسر؟ ذهبت كلها. ماذا يعني أن تقول وداعاً للحصان السريع وللصيد والقنص؟ إن ذلك هو نهاية الحياة وبداية الصراع من أجل البقاء. لقد أعطاكم الله السيادة على الحيوانات والغابات والرجل الأحمر لسبب خاص، لكننا لا نعرف سر هذا السبب.

ربما كان بمقدورنا أن نفهم ذلك لو عرفنا ما يحلم به الرجل الأبيض وما هي الآمال التي يحدث أطفاله عنها في ليالي الشتاء الطويلة، وما هي الأحلام التي يؤججها في تصوراتهم بحيث يتوقون إلى غد جديد. لكننا همج لا نعرف أحلام الرجل الأبيض ولهذا سنمضي في طريقنا لأننا، قبل كل شيء، نقدّر حق كل إنسان في العيش كما يحب أياً كان اختلافه عن اخوته.

سنفكر بطلبكم. وإذا وافقنا فما ذلك إلا لضمان المكان الذي وعدتمونا الاستيطان به. فهناك قد نستطيع قضاء أيامنا القصيرة حسب طريقتنا.

عندما يختفي آخر رجل أحمر من هذه الأرض، وتمسي ذاكرته مجرد ظلال غيمة فوق المروج، فإن روح أجدادي ستظل حية في هذه الشواطئ وهذه الغابات، لأنهم أحبوا هذه الأرض كما يحب الوليد نبضات قلب أمه.

وإذا بعناكم أرضنا فعليكم أن تحبوها كما أحببناها، ارعوها كما رعيناها. وإذا أخذتموها فحافظوا عليها بكل قوتكم وروحكم وقلوبكم من أجل أطفالكم، أحبوها كما يحبنا الله جميعاً. إننا نعرف شيئاً واحداً ان إلهنا هو نفس الإله.

حتى الرجل الأبيض لا يستطيع الإفلات من القدر المشترك. ولربما نحن أخوة. سنرى.

د. ممتاز كريدي

الصراع على المياه والبحث عن السلام

ثامر الصفار

الشرق الأوسط يعج اليوم بمشاكل عرقية، قومية، دينية واجتما ـ اقتصادية غاية في التعقيد. وفي خضم هذا التنوع والتعقيد تبقى مشكلة أخرى لاتزال، برغم خطورتها الآنية والمستقبلية، مهملة من قبل صناع القرار السياسي، بل ومن قبل الأحزاب الوطنية في المنطقة، وهي مشكلة المياه التي قال العرب القدماء إنها «نعمة ونقمة». وتقول علوم السياسة المعاصرة عنها «ليس هناك حل شامل لأزمة المنطقة دون الوصول إلى سلام شامل وعادل، وليس هناك سلام شامل وعادل دون حل مشكلة المياه في الشرق الأوسط».

من أهم أنهار المنطقة نهرا دجلة والفرات اللذان ينبعان في منطقة ذات مناخ بارد ورطب وطبوغرافية تجعلها عرضة لأمطار الخريف والربيع وتحتضن ثلوج الشتاء. لكنهما يمران قبل المصب في منطقة تتميز بالحرارة العالية والجفاف والانبساط.

تقع منابع نهر الفرات على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً عن منابع نهر دجلة. ويبلغ طوله ٢٧٠٠ كيلومتر(١)، ٤٠٪ منه في تركيا، ٢٥٪ في سورية و٣٥٪ منه في العراق. أما دجلة فيبلغ طوله ١٩٠٠ كيلومتر(٢)، ٢٠٪ منه في تركيا، ٧٨٪ في العراق و٢٪ فقط في الزاوية الشمالية الشرقية لسورية.

(١) في الوقت الذي تورد فيه بعض المصادر هذا الرقم فهناك مصادر أخرى تورد رقماً أقل ٢٣٣٣ كيلومتراً، لأن معظم المصادر تعتمد على التقديرات.

(٢) نفس المشكلة في الهامش رقم (١) بعض المصادر تورد رقم ١٧١٨ كيلومتر.

يبلغ ارتفاع مستوى النهرين عن سطح البحر ما بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ متر في تركيا ثم يهبط إلى ٥٠ متراً فقط في منطقة الجزيرة حيث يبتعد النهران عن بعضهما وتفصل بينهما أراضٍ كلسية صحراوية. ومن هناك يدخلان منطقة الطمى الغريني حيث يجريان ببطء.

يمتاز النهران بالتركيز العالي للطمى (الغرّين) حيث تصل كمية الطمى التي يحملها النهران خلال موسم الفيضان إلى ٣ ملايين طن يومياً ويترسب الجزء الأكبر في وادي الرافدين بفعل بطء الجريان. وتمتد أراضي الوادي الذي يعتبر من الناحية الفيزيوغرافية امتداداً للخليج العربي، مسافة ٨٠٠ كيلومتر ويعرض معدله ٢٠٠ كيلومتر. وميلان هذه الأرض باتجاه الخليج قليل جداً حيث يبلغ ٥ سنتمترات لكل كيلومتر، الأمر الذي يعيق عملية التصريف الطبيعي للمياه.

يتغذى النهران ضمن مسارهما الطويل بالعديد من الروافد الآتية من اليسار(٣). وبسبب كثرة الروافد التي تغذي مياه دجلة نجد أن مياهه أحلى من مياه الفرات.

تتكون مياه الفرات بعد اندماج مياه نهري مورات وقراسو في منطقة قيبان. ومن هناك يبدأ الفرات بالمسير جنوباً ليصل إلى مسافة ١٦٠ كيلومتراً من البحر الأبيض المتوسط، لكنه يميل باتجاه اليسار داخل الأراضي السورية. ويبلغ معدل التصريف السنوي الطبيعي للنهر حوالي ٣٠ مليار متر مكعب عند الحدود التركية السورية و٣٢ مليار متر مكعب عند الحدود السورية العراقية بعد أن يكون قد تغذى بمياه نهري البليخ والخابور الشرقي.

أما دجلة فمياهه تنبع من بحيرة جبلية صغيرة تدعى (هزار قولو) وحين يصل الأراضي العراقية، يبلغ المعدل السنوي لتصريف مياهه ما بين ٢٠ ـ ٢٣ مليار متر مكعب ثم يضاف إليه ما مقداره ٢٥ ـ ٢٩ مليار متر مكعب من الروافد على جانبه الأيسر ليصل معدل التصريف السنوي حوالي ٥٠ مليار متر مكعب. وبالقرب من سامراء يبدأ بالدخول في السهل الغريني حيث بني سد الثرثار لتحويل مياه الفيضان الزائدة إلى بحيرة الثرثار لحماية منطقة أسفل النهر من الفيضان. وعند مدينة الكوت سدٌ آخر يقوم بتحويل قسم من المياه إلى شط الغراف (أحد المسارات القديمة لنهر دجلة) لري الأراضي الواقعة بينهما ثم يذهب الفائض ليشترك مع مياه الفرات عند دخوله هور الحمّار.

(٣) نفترض أن القارئ ينظر إلى النهرين من تركيا باتجاه الخليج.

بعد اجتياز الكوت يتفرع النهر إلى عدة قنوات، وعند القرنة يندمج مع الفرات (بعد خروج الأخير من الهور) ليكونا شط العرب الذي يتغذى أيضاً بمياه نهر قارون القادم من جهة اليسار أيضاً.

إن معدل هبوط الأمطار في وادي الرافدين قليل قياساً بالمعدلات العالمية إذ يبلغ ٢٠٠ مليمتر سنوياً. أما معدلات التبخر فهي عالية جداً بسبب الحرارة التي تصل إلى ٥٠ درجة مئوية صيفاً، والجفاف حيث يصل معدل الرطوبة إلى ١٥٪ فقط.

تعتبر مواسم فيضان النهرين غير مناسبة لجميع المحاصيل الزراعية، فهي متأخرة لمحاصيل الشتاء ومبكرة لمحاصيل الصيف. إن الهدف الأساسي لبناء الحواجز والسدود هو السيطرة على المياه الفائضة واستخدامها في مواسم الجفاف. وربما تكون قناة تحويل المياه الواقعة على نهر الخوصر بالقرب من الموصل هي الأقدم في العالم حيث بناها الملك سنحاريب عام ٦٨٤ قبل الميلاد لتوفير المياه لمدينة نينوى عاصمة الدولة الآشورية. وفي العهد العباسي جرى بناء خمس قنوات تحويل اعتمدت عليها التربة في وسط العراق وكانت تحول المياه من الفرات إلى دجلة إلا أنها أصبحت اليوم عديمة الفائدة بسبب ارتفاع منسوب قاع نهر دجلة بمرور الزمن. ونذكر أيضاً قناة النهروان التي يبلغ طولها ٣٠٠ كيلومتر وعرضها ٣٠ متراً والتي تقوم بتحويل مياه دجلة باتجاه الشرق، حيث تبدأ من شمال سامراء وتتبع مساراً قديماً للنهر وهي تجمع أيضاً مياه نهري العظيم وديالى.

أما عملية استصلاح الأراضي الحديثة فلم تبدأ إلا في القرن العشرين مع إنشاء سدة الهندية على الفرات عشية الحرب العالمية الأولى، كما ظهرت الحاجة إلى بناء خزانات ضخمة بفعل التغير المستمر لمستوى مياه النهرين. من أكبر هذه الخزانات بحيرة الحبانية وبحيرة أبو دبس (طاقتهما الاستيعابية تبلغ ٤٥ مليار متر مكعب) وبحيرة الثرثار بطاقة خزن تبلغ ٣٠ مليار متر مكعب.

تعتبر الملوحة في تربة وادي الرافدين مشكلة كبيرة. إذ أن ٦٠٪ من الأراضي المروية تعاني من وجود نسبة معينة من الأملاح بسبب عوامل عديدة منها معدلات التبخر العالية التي تؤدي إلى تراكم الأملاح على سطح التربة بعد عملية ري الأرض الأمر الذي يتطلب ممارسة عملية البزل على نطاق واسع وهي عملية تصبح أكثر صعوبة مع ارتفاع مستوى المياه الجوفية. وتشير بعض التقارير إلى تقلص مساحة الأراضي القابلة للري من ٧,٥ مليون هكتار في أوائل السبعينيات إلى ٦

ملايين هكتار خلال الثمانينيات. وقد أدت هذه الظاهرة، إضافة إلى عوامل أخرى، إلى تحول العراق ذي الإمكانيات الزراعية الكبيرة إلى أكبر مستورد للحبوب في العالم.

النهر الثالث

في كانون الأول ١٩٩٢، أكمل العراق العمل في مشروع دام قرابة ٤٠ عاماً، سمي بالنهر الثالث. وهو قناة ضخمة لتصريف مياه البزل، تتوسط المساحة بين دجلة والفرات. وكان الهدف الأساسي لإنشائها هو تصريف مياه البزل وإلا تسربت هذه المياه المالحة مرة أخرى إلى الأرض، ويجري نقل هذه المياه المالحة عبر هذه القناة إلى الخليج مباشرة.

بدأ العمل في المشروع عام ١٩٥٣ وانقطع بسبب الحرب العراقية ـ الإيرانية ثم حرب الخليج وانتفاضة آذار والحصار الاقتصادي.

يبلغ طول القناة ٥٦٥ كيلومتراً وبعرض كاف لتسير فيها سفن ذات حمولة تصل إلى ٥ أطنان من الخليج إلى بغداد. وقد وضعت تصاميمها لتقوم بتصريف المياه المالحة من ١.٥ مليون هكتار من الأراضي. تبدأ القناة من المحمودية وتنتهي في



مخطط مشروع «النهر الثالث»

القرنة وهي تقطع نهر الفرات بنفق بالقرب من الناصرية. ثم تصب في نهر البصرة الذي يمثل قناة اصطناعية اخرى تسير بخط مواز من الناحية الغربية لشط العرب. لكن النظام الدكتاتوري جعل الهدف الأساسي من هذه القناة تجفيف الأهوار(٤). ولقد انتقدت الأمم المتحدة هذا المشروع معتبرة إياه «جريمة بحق البيئة».

الصراع على المياه

ذكرنا سابقاً أن المعدل الطبيعي لتصريف نهر الفرات يبلغ حوالي ٣٠ مليار متر مكعب سنوياً عند مدينة هيت أما معدل دجلة فيبلغ أقل من ٤٠ مليار متر مكعب سنوياً عند بغداد. وتختلف هذه الأرقام من سنة لأخرى اعتماداً على عوامل عديدة منها عدد السدود والخزانات المقامة على أحواضهما وتأثير معدلات التبخر. إن أقل معدل تصريف للفرات قد بلغ ١٦,٨ مليار متر مكعب أما أعلى معدل فقد وصل إلى ٤٧,٥ مليار متر مكعب سنوياً. ويعاني دجلة من هذا الاختلاف أيضاً فأقل معدل له وصل إلى ١٦,٩ مليار متر مكعب وأعلى معدل ٥٨,٧ مليار متر مكعب سنوياً.

إن ادعاءات ومطالب تركيا وسوريا والعراق متضاربة ومعقدة. ففي حين تنبع مياه النهرين من الأراضي التركية فإن سوريا لا تساهم بمياه دجلة لكنها تساهم في مياه الفرات. اما العراق فلا يساهم في مياه الفرات لكن مساهمته كبيرة جداً في مياه دجلة. والقضية التي تثار هي كيفية الموازنة بين الحقوق التاريخية ونسب المساهمة مع الأخذ بنظر الاعتبار العوامل المؤثرة الأخرى مثل الحاجة الفعلية لكل دولة ومنها توفر الطاقة، الحاجة إلى الطاقة الكهرومائية، إمكانية تطوير بدائل اقتصادية للزراعة المعتمدة على الري، الدقة في استخدام المياه، الحجم السكاني لكل بلد... الخ. إن تحديد المعايير الصحيحة للاستفادة من مياه النهرين هي عملية غاية في التعقيد خصوصاً عند غياب الإرادة الخيرة وربما تؤدي مستقبلاً إلى نشوب صراعات مسلحة. ولاتزال كل دولة تسعى لتطوير والاستفادة من جزء النهر المار بأراضيها دون النظر إلى حقوق ومصالح الآخرين.

في عام ١٩٨٧ وقعت تركيا وسوريا على بروتوكول للتعاون الإقتصادي تعهدت تركيا بموجبه بتمرير أكثر من ١٥,٧٧ مليار متر مكعب سنوياً من مياه

(٤) أنظر «الديكتاتورية المهزومة تنتصر على الاهوار» الثقافة الجديدة العدد ٢٥٧.

الفرات عند الحدود مع سوريا، وإذا ما تم تمرير أقل من ذلك فإن تركيا ستعوضه لاحقاً. وفي عام ١٩٩٠ وقعت سوريا اتفاقية مع العراق تعهدت باستغلال ٤٢٪ من مياه الفرات وصرف ٥٨٪ المتبقية إلى العراق. لكن كلا الدولتين احتجتا عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ على قيام تركيا بحجز كميات أكبر من المقرر لها.

لقد طورت البلدان الثلاثة، كل على حدة، مشاريع متعددة الأغراض للسيطرة على الفيضانات والخزن والري والاستخدام المدني وتوليد الطاقة. إن طاقة الخزن المتوفرة حالياً أو المخطط لها تبلغ ٩٠ مليار متر مكعب في تركيا و١٥ مليار متر مكعب في سوريا و١٠٠ مليار متر مكعب في العراق. وهذا يعني أن مجموع طاقة الخزن للبلدان الثلاثة يتجاوز معدل الصرف السنوي للنهرين المقدر بحوالي ٧٤ مليار متر مكعب.

إن أحد أسباب هذا الاستهلاك غير الطبيعي وغير المنسق في عملية الخزن هو غياب الثقة المتبادلة. وتبلغ معدلات التبخر السنوية من مياه البحيرات وأحواض السدود حالياً ما مجموعه ٨ مليارات متر مكعب سنوياً. ومن المتوقع أن هذه البلدان ستحتاج إلى ما مقداره ٣٦ مليار متر مكعب سنوياً، وهو أعلى من معدل التصريف السنوي لنهر الفرات في حال إنجاز تركيا لجميع مشاريعها المخطط لها على نهر الفرات عام ٢٠١٥.

أعمال المياه في تركيا

في الحلقة الثانية من دراسته الموسومة بـ«المياه الإقليمية: صراع أم تعاون؟» المنشورة في الثقافة الجديدة العدد ٢٦٤، تطرق الدكتور حسن الجنابي إلى المشروع التركي GAP وسنحاول بدورنا إعطاء صورة تفصيلية أكبر عن هذا المشروع الضخم الذي يهدف إلى تطوير ست محافظات مساحتها الإجمالية حوالي ١٠٪ من مساحة تركيا. تقع هذه المحافظات على الحدود مع سوريا والعراق وتضم منابع دجلة والفرات. يبلغ عدد سكانها أقل من ٦ ملايين نسمة، وهي تمتاز بحساسية قومية عالية، فنصف السكان من الأكراد ويشكل الأتراك ٤٠٪ والعرب ١٠٪. يعمل ثلثا السكان بالزراعة. ويطمح الأتراك من وراء المشروع إلى توسيع رقعة الأراضي المروية، إضافة إلى تطوير الصناعة في هذه المنطقة خصوصاً، وتركيا عموماً، من خلال الاستفادة من الطاقة الكهربائية التي ستولدها السدود المزمع إنشاؤها، وبالتالي إلى رفع مستوى معيشة السكان المحليين الأمر الذي

سيشجع الأتراك على الاستيطان والاستثمار. وسيحدث نتيجة لذلك تغير في الطابع القومي للمنطقة. كما يتوقع الأتراك أن رفع مستوى المعيشة للأكراد سيجعلهم أكثر استعداداً للاندماج في المجتمع التركي.

لقد واجه المشروع معارضة قوية من قبل الأكراد. فحتى لو قبلنا بأن المشروع سيعزز من إمكانيات المنطقة على المدى البعيد، فإنه قد تسبب بتهجير حوالي ربع مليون نسمة عن أراضيهم التي ستغمرها مياه السدود.

تزيد كلفة المشروع الإجمالية على ٢٠ مليار دولار يتوجب على تركيا توفيرها بنفسها بسبب اشتراط البنك الدولي وجود اتفاقية شاملة بين البلدان الثلاثة كي يمول المشروع. تشمل أعمال المشروع حوضي دجلة والفرات لكن الأتراك بدأوا العمل في حوض الفرات على أن يباشروا العمل في حوض دجلة في مطلع القرن الواحد والعشرين.

يضم المشروع إنشاء ٨٠ سداً و٦٦ محطة توليد كهربائية بطاقة إجمالية تصل إلى ٧٧٠٠ ميغاواط، و٦٨ مشروعاً إروائياً تغطي مليوني هكتار. من بين السدود الرئيسية، سد قيبان، سد قره قايا وسد أتاتورك وهو الأهم. بدأ العمل في سد قيبان عام ١٩٦٥ وانتهى عام ١٩٧٤. وسبب التأخير في إنجازه الطبيعة المسامية للطبقات الأرضية التي تتكون من صخور كلسية ذات مسامية عالية مما يتطلب حقن الاسمنت السائل وإضافة طبقة طينية للتقليل من المسامية. أدى قيام السد إلى تكون بحيرة مساحتها ٦٨٠ كيلومتراً مربعاً وطاقة خزنها تصل إلى ٣٠ مليار متر مكعب. الهدف الرئيس للسد هو توليد الطاقة الكهربائية وتشير الإحصائيات إلى إنتاج ١٢٤٠ ميغاواط هي الآن في خدمة مدينتي أنقرة واسطنبول. إلى الأسفل من سد قيبان جرى إنشاء سد قره قايا الذي انتهى العمل فيه عام ١٩٨٨ وقد صمم ليولد ١٨٠٠ ميغاواط من الطاقة الكهربائية. تبلغ مساحة بحيرة السد ٣٠٠ كيلومتر مربع تقريباً.

سد أتاتورك هو من أضخم سدود العالم. أول أهداف إنشائه توليد طاقة مقدارها ٢٤٠٠ ميغاواط والثاني خزن حوالي ٨٢ مليار متر مكعب من المياه. وقد صمم ليوفر ١٠ مليار متر مكعب سنوياً لري نصف مليون هكتار بالقرب من منطقة هران. بدأ العمل فيه عام ١٩٨٣ وكان متوقعاً له أن ينجز عام ١٩٩٢. الطاقة الخزنية الحالية تصل إلى ٤٨.٤ مليار متر مكعب وتغطي بحيرته مساحة ٨٧٧ كيلومتراً مربعاً. كلفة السد لوحده تصل إلى ٣ مليارات دولار.

إضافة إلى ما سبق ذكره فإن المشروع يضم سدوداً صغيرة مثل سد بيرسك

وسد كاركامس على نهر الفرات. ويتوقع أن يوفر المشروع ما يكفي لري حوالي مليون هكتار، أي حوالي ١٢ ـ ١٥ مليار متر مكعب سنوياً (بضمنها المياه المفقودة بفعل التبخر... الخ) أما حوض دجلة فيضم عدداً من المشاريع سوف تستنفد في حال إنجازها حوالي ثلث مياه النهر القادمة إلى العراق. وجرى تصميم السدود لتوليد ٢٢٠٠ ميغاواط من الطاقة الكهربائية وتوفير مياه لري ٥٥٠ الف هكتار.

قناة السلام (أنابيب السلام التركية)

على الرغم من اضمحلال اهمية هذا المشروع الذي كان قد اقترحه أول مرة رئيس الوزراء التركي السابق أوزال عام ١٩٨٧، إلا أن احتمال عودة تركيا مرة أخرى إلى طرحه أو طرح مشاريع مشابهة ليس مستبعداً. من المعروف أن احتياطي المياه لتركيا يقدر بحوالي ١٨٠ مليار متر مكعب سنوياً، لا تستخدم منه سوى ١٥٪ حالياً، وحتى لو أكملت جميع مشاريعها على حوضي دجلة والفرات ستبقى تركيا تتحكم بكميات هائلة من المياه التي تمثل بالنسبة لتركيا بضاعة قابلة للبيع كما هو الحال مع البترول العربي رغم الاختلاف الجذري بين البترول العربي ومياه دجلة والفرات، وهما نهران دوليان.

جوهر فكرة المشروع تكمن في مد انبوبين لنقل المياه من نهري سيها وكيهان في جنوب تركيا إلى دول الخليج شرقاً وإلى ساحل البحر الأحمر للعربية السعودية غرباً. كما يمكن لهذين الأنبوبين تزويد سوريا والعراق والأردن وربما اسرائيل أيضاً. يمكن لهذه الأنابيب أن تنقل ٢,٢ مليار متر مكعب سنوياً من المياه إلى ١٥ مليون نسمة بكلفة تتجاوز ٢٠ مليار دولار وهي كلفة باهظة تتطلب أساساً وجود مناخ سياسي مستقر واتفاقية مشتركة حول المياه بين دول المنطقة. لكن مشكلة تنفيذ هذا المشروع لا تكمن في كلفته بل في مدة إنشائه التي قد تستغرق عشر سنوات على الأقل الأمر الذي سيجعل سعر المياه عند الانتهاء من المشروع أعلى بكثير من سعرها الحالي باستخدام تحلية مياه البحر والتي تعتمد عليها بشكل كبير معظم دول الخليج والسعودية خصوصاً التي تنتج لوحدها حوالي ٣٠٪ من الانتاج العالمي للمياه المحلاة.

وتظهر اليوم دعوات أخرى مستندة إلى مقترح المشروع الأول واهمها أنبوب السلام المصغر، الذي يمكن أن ينقل ٦٠٠ مليون متر مكعب سنوياً من تركيا إلى الأردن والضفة الغربية مروراً بسوريا. وهناك أيضاً مقترح لنقل المياه إلى الحدود السورية الأردنية بحيث يمكن للسوريين آنذاك الاستغناء عن مياه نهر اليرموك.

أعمال المياه في سوريا

تعتمد سوريا على نهر الفرات اعتماداً كبيراً باعتباره أكبر مورد مائي بالنسبة لها، إذ يبلغ المعدل السنوي لتصريفه داخل سوريا حوالي ٣٠ مليار متر مكعب مقارنة بـ٣ ـ ٤ مليارات متر مكعب سنوياً من باقي الموارد وهي نهر العاصي الذي ينبع من الأراضي اللبنانية ونهر اليرموك الذي يسير بمحاذاة الحدود مع الأردن، إضافة إلى رافدين صغيرين يقطعان وادي دمشق ومجموعة من الروافد التي تسير باتجاه البحر الأبيض المتوسط. وتمتلك سوريا أيضاً عدة أحواض جوفية تقدر حجم مياهها ١.٥ ـ ٢ مليار متر مكعب سنوياً، يتم السحب منها باستخدام آلاف من الآبار التي تحيط دمشق وحلب وحوض نهر العاصي. وقد بدأت ظاهرة الملوحة في مياه هذه الآبار بفعل تجاوز كميات السحب للمعدلات المسموح بها.

من أكبر السدود السورية التي تقع على نهر الفرات سد الطبقة الذي يكوّن «بحيرة الأسد». وقد جرى بناؤه بمساعدة الاتحاد السوفيتي (سابقاً) من الناحيتين التمويلية والتقنية، وكان من المقرر له أن يروي مساحة ٤٠٠ ألف هكتار ويقوم بتوليد الطاقة الكهربائية. من أهم المشاكل التي تواجه هذا السد تأثر محطات توليد الطاقة الكهربائية بالتغيرات الحاصلة في منسوب المياه، إضافة إلى أن الأراضي المزمع ريها تحتوي على كميات كبيرة من الجبسين القابلة للذوبان في الماء ما أدى إلى تراكم أكوام من هذه المادة فوق سطح الأرض الأمر الذي يجعل الري أكثر صعوبة مع مرور الأيام.

تبلغ طاقة تخزين سد الطبقة ١٢ مليار متر مكعب وهناك رغبة سورية بزيادة هذه الكمية إلى ١٤ مليار متر مكعب من خلال رفع مستوى الحواجز. وهذا يعني ضمنياً زيادة كمية المياه المفقودة جراء عملية النضح من التربة وعملية التبخر. كما أعلنت سوريا أيضاً عن خططها بإنشاء سد آخر على نهر الفرات إلى الشمال من بحيرة الأسد وعدد من السدود الصغيرة على نهر الخابور الشرقي وفي منابع نهر اليرموك وعلى نهر العاصي والروافد التي تصب في البحر المتوسط.

تبلغ مساحة الأراضي القابلة للري في سوريا حوالي ثلث مساحتها الإجمالية البالغة ٧٥ ألف كيلو متر مربع، لا يروى منها حالياً سوى ٥٪ أي حوالي ٨٦٣ ألف هكتار موزعة على النحو التالي: ٣٠٩ ألف هكتار على الفرات، ٢٠٨ ألف هكتار على الخابور الشرقي ودجلة، ٢٣٠ ألف هكتار على العاصي و٢٧ ألف هكتار على نهر اليرموك. وتنوي الحكومة السورية زيادتها إلى ١.٤ مليون هكتار لكن هذه الرغبة تبدو غير واقعية في ضوء المشاريع التركية في أعالي الفرات.

وختاماً، لو نفذت تركيا التزامها بتمرير ما لا يقل عن ١٥ مليار متر مكعب سنوياً من مياه الفرات، ولو افترضنا أن سوريا سوف تستهلك ٦ مليارات متر مكعب منها فإن المياه المتبقية للعراق ستكون جزءاً صغيراً من حصته الطبيعية التاريخية. إذ سيخسر العراق حوالي ٨٠٪ من مياه الفرات.

في ملحمة كلكامش يتساءل الحكيم أوتنابشتم «هل سيتقاسم الأخوة حصصهم إلى الأبد؟ هل ستستمر البغضاء إلى الأبد؟ هل سيستمر فيضان النهر إلى الأبد؟» ليس ثمة إجابات واضحة على هذه الأسئلة.

المصادر:

1- H. Chanson "History of Stepped Channels and Spillways: A Rediscovery of the "Wheel"", Canadian Journal of Civil Engineering, Vol.22, No2, April 1995.

2- P. Beaumont, G.H. Blake, J.M. Wagstaff "The Middle East: A Geographical Study" John Wiley, New York, 1976.

3- D.J. Dieleman, ed. "Reclamation of Salt Affected Soils in Iraq: Soil Hydrological and Agricultural Studies" International Institute for Land Reclamation and Improvement, Wageningen, The Netherlands, 1977.

4- M. Efrat "Syria's Dam on the Euphrates, New Outlook" 1967.

5- International Development Research Centre "Fresh Water: The Human Imperative" IDRC, Ottawa, Canada, 1988.

6- J.F. Kolars, W.A. Mitchell, "The Euphrates River and the Southeast Anatolia Development Project", Southern Illionis University Press, Carbondale, Illionis, 1991.

7- P. Marr "The Modern History of Iraq" Westview Press, Boulder, Colorado.

8- E.J. Schiller, ed. "Sustainable Water Resources Management in Arid Countries: Middle East and North Africa". IIDC, University of Ottawa, Ottawa, Ontario, Canada, 1992.

9- A. Watson "Agriculture Innovation in the Early Islamic World" Cambridge University Press, Cambridge, 1983.

١٠ـ د. حسن الجنابي «المياه الإقليمية: صراع أم تعاون؟» الحلقة الثانية، الثقافة الجديدة، العدد ٢٦٤.

١١ـ الحياة الإقتصادية، جريدة الحياة، العدد ١١٨٧٧، ٢٩ آب ١٩٩٥.

المياه الدولية في الشرق الأوسط

د . حسن الجنابي

■ تشهد الساحة الشرق أوسطية اهتماماً متميزاً من لدن الجهات الدولية والإقليمية المختلفة، وتجري فيها أنشطة ذات تأثير بالغ على مستقبل المنطقة كلها. فمن المفاوضات السلمية والتطبيع إلى القمم الإقتصادية والاغتيالات السياسية والتوترات العسكرية وغير ذلك مما لا يمكن التنبؤ به. ولاتزال الساحة مثقلة بالعديد من الأسئلة التي لا توجد لها بعد إجابات مقنعة. كما تتراجع في العديد من أجزائها العملية الاجتماعية السياسية، غالباً كنتيجة للعنف والقمع وانعدام الحريات والصراع على السلطة والثروة. إن هذا يعيق بالطبع التطور السلمي لمجتمعاتها الحبلى، هي الأخرى، بالتناقضات والتي يمكن أن تنشأ عنها «مفاجآت» غير محسوبة، خاصة بالارتباط مع غياب أية آليات أو اتفاقات للاحتكام إليها، سواء كان ذلك على الصعد الوطنية الداخلية (حيث القمع هو سيد الموقف) أم الإقليمية الدولية (حيث الغدر والحروب وما شاكل).

في نفس الوقت يجري البحث عن سبل لتجنب المواجهات العسكرية وإنهاء حالة الحرب مع اسرائيل والتي استمرت منذ أواسط هذا القرن. وتحدث على الجانب الآخر اصطفافات وتوترات عديدة بين الدول العربية نفسها، وبعضها الآخر مع دول مجاورة غير عربية. وعلى العموم فلاتزال منطقة الشرق الأوسط كما كانت دائماً في تاريخها المعاصر، بعيدة عن الاستقرار والتطور السلمي الذي تنشده الشعوب.

تتميز الخلافات بين دول المنطقة ليس فقط بتنوع أسبابها التي تشمل الحدود والثروة والسياسة وما إلى ذلك، بل وبصعوبة، إن لم يكن بتعذر التوصل إلى حلول ترضي الجميع في ظل انعدام الثقة في العلاقات الدولية السائدة. وبغض النظر عن حالة العلاقات المتردية (العدائية في الغالب) والأسباب المعروفة للخلافات فإن وتيرة النمو الاجتماعي والإقتصادي والديمغرافي لوحدها كافية لإثارة مشكلات جديدة لا تقل خطورة عما ألفته الساحة في الماضي. وتعد بهذا الصدد مشكلة الشحة في مصادر المياه العذبة وتوزيعها الجغرافي واحدة من أهم العوائق لإقامة شرق أوسط مستقر ومسالم. وسيبقى أمر المنافسة والصراع للحصول على حصص أكبر من المياه العذبة المتكونة طبيعياً في تزايد مستمر، إذ أن ما هو متاح منها أقل من الحد الأدنى المطلوب للتطور المعاصر والمستقبلي بكثير (بشكل أخص الحاجة الإقتصادية للمياه بما فيها للأغراض الزراعية والصناعية). غير أن أمر الحاجة للأغراض المنزلية والشرب قد يخف بعد قرن أو أكثر إذ يرتبط ذلك بتطوير تكنولوجيا رخيصة لتحلية مياه البحر.

إن إدراك خطورة الوضع المائي في العالم عموماً وفي الشرق الأوسط تحديداً آخذ بالتعزز أكثر فأكثر لدى الأطراف المعنية، خاصة على مستوى مراكز اتخاذ القرار (أي المستوى الحكومي)، إلا انه لم يتعزز شعبياً بعد، ومازالت مجتمعات الشرق الأوسط تتعامل مع المياه بنفس الطريقة التقليدية غير مدركة لأهمية إدارة أو استعمال ما هو متاح منها.

لاشك فإن الشعوب في أغلب أجزاء المنطقة مغيبة عن لعب دور مهم فيما يتعلق بمستقبلها، لكن الجميع سيكتشف، عاجلاً أم آجلاً، بأنه لا يمكن معالجة شحة المياه دون مساهمة شعبية حقيقية للتقليل من الطلب عليها أو لزيادة كفاءة استعمالها وتطوير نمط حياة مناسب، وكل ما يمكن أن يقع ضمن استراتيج التحكم بالحاجة إليها. على أن تغيير النمط الزراعي بالتخلي عن زراعة المحصولات الرخيصة واستبدالها بمحاصيل ذات قيمة اقتصادية أكبر أهم إجراء ستضطر إليه دول المنطقة جميعاً، هذا إن لم يتم التخلي أساساً عن التنمية الزراعية والريفية في أجزاء شاسعة من دول الشرق الأوسط. يضاف إلى ذلك ضرورة تفهم الحاجة للتشريعات والقوانين التي تحدد كميات ونوعية ووسائل استعمال المياه وتسعيرها وما إلى ذلك مما يفرضه التطور المعاصر وما يرافقه من وعي بيئي وأساسه علاقة الإنسان بالمياه. ومن البديهي هنا بأن هذا النوع من الإجراءات يفترض وجود أنظمة حكم

تمثل الإرادة الشعبية وتخضع لمراقبة المجتمع عن طريق مؤسساته التمثيلية. فالمضمون الاجتماعي والسياسي لمثل هذه البرامج أو القرارات لا يمكن تحت اي ظرف أن يهمل أو يهمش، إنها في صميم العملية التنموية التي لم يعد من الممكن القيام بها بطرق لامسؤولة واعتباطية كما الفناها في دولنا حتى الآن.

وعليه، يمكن إجمال أسباب الاهتمام الدولي والمحلي بمياه الشرق الأوسط بما يلي:

١ـ شيحة ما هو متوفر او قلة ما هو متاح منها، قياساً بالزيادة السكانية الحاصلة والمتوقعة. إن كافة التقديرات الديمغرافية تؤكد أن عدد سكان المنطقة سيتضاعف خلال ربع القرن المقبل. وهذا يتطلب مضاعفة مصادر المياه على أقل تقدير في حالة افتراض استمرار مستوى الاستهلاك الحالي.

٢ـ تزايد المنافسة على المياه المشتركة بين الأطراف المتشاطئة، فالعديد من الدول تستهلك ما نسبته تسعين بالمئة (٩٠٪) أو أكثر من مواردها المائية المتجددة سنوياً (تصل هذه النسبة إلى ١٥٠٪ في قطاع غزة أي أنها تستهلك ما مقداره مرة ونصف قدر ما تحصل عليه طبيعياً).

٣ـ عدم وجود بدائل عملية وممكنة التحقيق في المناخ السائد اقتصادياً وسياسياً حتى الوقت الحاضر. فبالرغم من أن العملية السلمية أسفرت عن اتفاقيات مائية بين بعض الأطراف المعنية كالاتفاقية الاسرائيلية ـ الفلسطينية في عام ١٩٩٣ والاسرائيلية ـ الأردنية في عام ١٩٩٤، إلا أن التوقيع على هاتين الإتفاقيتين لا يعني أن المشكلة قد حلت نهائياً. إن ما جرى هو فقط إعادة بعض الحقوق المائية التي سلبت في السابق عن طريق القوة والاحتلال مع استمرار احتفاظ اسرائيل باليد الطولى في السيطرة على المياه المعنية وتوزيعها.

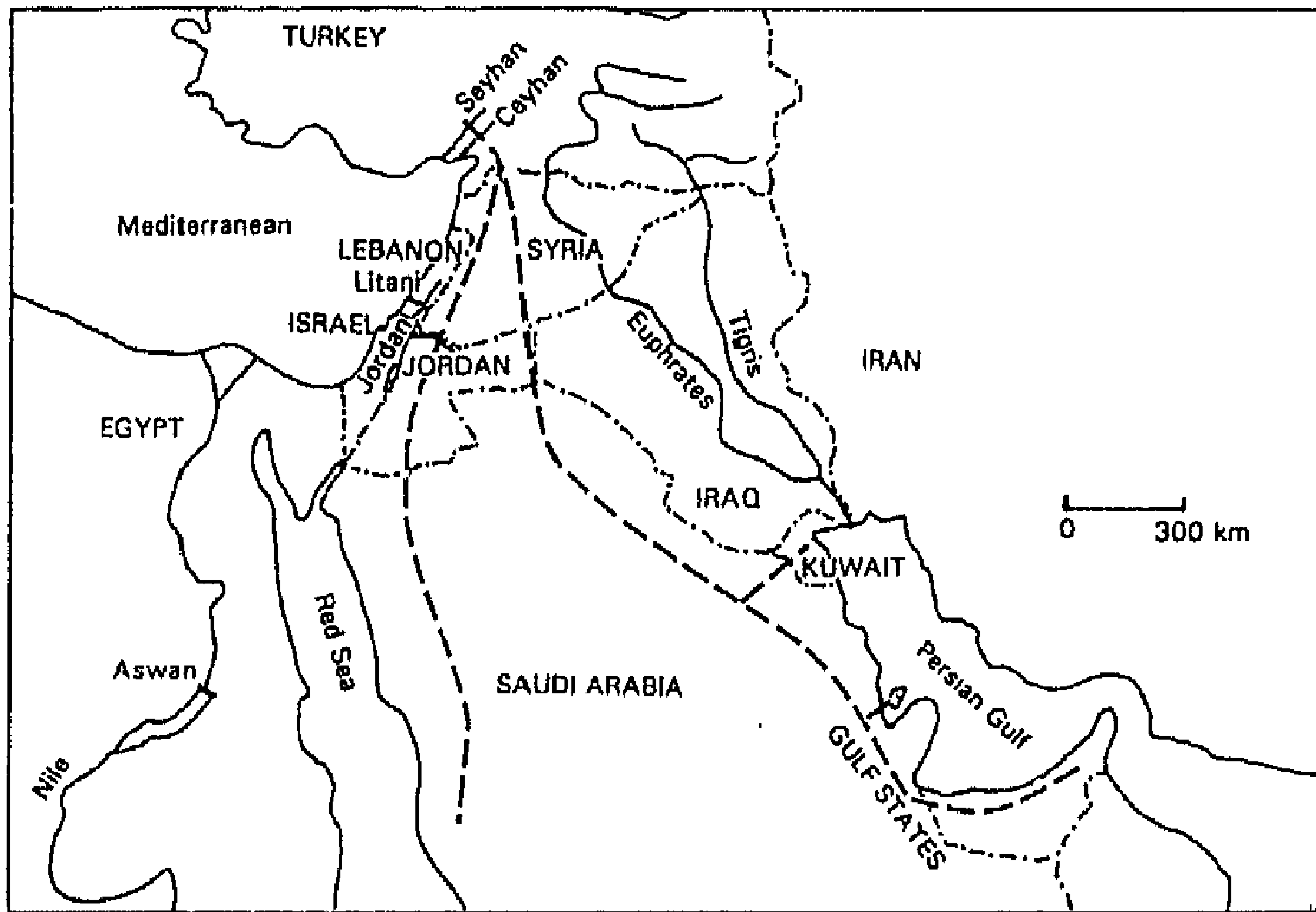
٤ـ تمثل مشاريع الصناعة المائية Water Industry في الشرق الأوسط ميداناً جذاباً للاستثمارات المالية الضخمة، ويأمل المستثمرون والرأسماليون تحقيق أرباح عالية في تنفيذها كما جرى في المشاريع المائية العراقية في السبعينات، أو النهر الصناعي في ليبيا (٢٥ مليار دولار أمريكي) ومشروع جنوب شرق الأناضول GAP التركي (١١ مليار دولار) ومشاريع تحلية مياه البحر في الخليج (١٥ مليار في المملكة السعودية وحدها)، وعشرات المليارات الأخرى لمشاريع المستقبل (والتي سنأتي على عرضها ومناقشتها قريباً على صفحات هذه المجلة).

٥ـ غياب التنسيق التكاملي على مستوى الحوض المائي الذي يؤمن مقاربة جماعية للمشكلة المائية ويضمن عدم لجوء أي طرف إلى القيام بأعمال وحيدة الجانب تؤدي إلى اضطراب الدورة الهيدرولوجية لمياه الحوض وإذكاء حالة التوتر بين دوله والذي يترافق مع جشع وانتهازية بعض الشركات الاحتكارية لجني الأرباح الكبرى تحت أي ظرف.

٦ـ الاهتمام بتطوير استراتيجيات بعيدة المدى كبديل لا مفر منه للسياسات المائية الارتجالية والحلول الآنية.

٧ـ جملة أخرى من الأسباب كالتطور النسبي في الوعي البيئي المعاصر وامتناع الأطراف المحلية عن تطبيق مبادئ التطور الايكولوجي المستديم Ecologically Sustainable Development في ميدان المشاريع المائية كالتوسع في الرقعة الزراعية أو بناء السدود وما شاكل، مما أوصل الوضع إلى حد الأزمة.

لقد تعددت الأنشطة في السنوات القليلة الماضية ذات الصلة الوثيقة بالأسباب التي ذكرناها آنفاً. فعقدت «الجمعية العالمية لمصادر المياه» ملتقى «الاعتبارات السياسية والمؤسساتية لمصادر المياه في الشرق الأوسط» وذلك في جامعة ايلنويس



مشروع «أنابيب السلام» الذي اقترحه اوزال عام ١٩٨٧.

بأمريكا في خريف ١٩٩٣. ساهم بهذا اللقاء أكثر من ٩٠ خبيراً وأكاديمياً من دول مختلفة وبحضور سياسيين عرب (ولي العهد الأردني). كما رعى البروفيسور الشهير توماس ناف مؤتمراً عالمياً وعلمياً آخر في جامعة بنسلفانيا في ابريل من عام ١٩٩٤ تمخض عن إنشاء منظمة مختصة بشؤون المياه في الشرق الأوسط تهدف إلى التعاون السلمي المثمر في مجال استغلال المياه سميت بشبكة معلومات المياه في الشرق الأوسط MEWIN (-Middle East Water Information Net work) يمكن التعامل معها عن طريق شبكة الاتصالات الالكترونية العالمية (انترنت) وكانت اللجنة المختصة بالمياه الدولية والتابعة للجمعية العالمية لمصادر المياه وبالتعاون مع «جامعة الأمم المتحدة» قد دعت إلى موتمر دولي هام في القاهرة برعاية برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة وصندوق السلام الياباني (ساساكاوا) وحضرته شخصيات مختصة عديدة بعضهم ممن ساهم في المفاوضات الإسرائيلية مع الأطراف العربية. أصدر المؤتمر كتاباً (هو موضوع مساهمتنا هذه) يضم المداخلات التي قدمت ونوقشت أثناءه*. كما انبثقت عن المؤتمر مفوضية مياه الشرق الأوسط والتي تبنت لنفسها أهدافاً طموحة أهمها:

- النظر في «العوائق» المائية لعملية السلام.
- تحليل ودراسة الحلول التقنية والسياسية والاقتصادية والبيئية المحتملة وتعقيداتها المختلفة.
- القيام بمحاولات لدى الدول المعنية والوكالات الداعمة أو المساهمة مادياً في المشاريع المائية لاطلاعها على طبيعة المشكلات المعلقة.

أشرف على تنظيم المؤتمر وإصدار الكتاب رئيس الجمعية العالمية لمصادر المياه الدكتور Asit Biswas. يقع الكتاب في ٢٢١ صفحة ويتضمن سبعة فصول (دراسات) بضمنها مداخلة الدكتور مصطفى طلبة المدير العام (آنذاك) لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة. تركزت المداخلات الأخرى على خمسة أحواض مائية هي الفرات ودجلة والنيل ونهر الأردن والليطاني. أما المداخلة الأخيرة فألقت الضوء على التقدم المعاصر في إدارة المصادر المائية الدولية.

كان نصيب حوضي الفرات ودجلة ثلاث مداخلات. واحدة منها لخبير تركي والاخريان لخبيرين امريكيين. ركزت مداخلتا الأمريكيين على التطور التاريخي لمشكلة الحوضين والصعوبات العملية في إدارة مياه الفرات. أما المداخلة التركية فقد قدمها أوزدن بيلين وهو مسؤول تركي كبير وركزت على التعاون التقني المأمول

بين دول الحوضين. من اللافت للنظر أن الأتراك يصرون على اعتبار حوضي دجلة والفرات حوضاً واحداً، فيسوّقون وجهات نظرهم الجشعة فيما يخص مستقبل المياه في الرافدين. وبالرغم من أن السيد بيلين يحاول التظاهر ببعض الموضوعية في تركيزه على الطابع التقني للتعاون فإنه يفترض، كتحصيل حاصل، حق تركيا بالتصرف بمياه الحوضين بالطريقة التي تراها هي، كما ويبالغ بتقدير إمكانيات العراق المائية خاصة من روافد نهر دجلة، كمبرر للأعمال التركية الرامية إلى تحويل مياهه. ويرفض الإقرار بأن تركيا تستخدم مشروعها المسمى بالـ GAP لتركيع وابتزاز جيرانها، ويدعو علناً لتفهم حاجاتها للمشروع الخطير هذا. كما يحاول أن يكون دبلوماسياً في اقتباس تصريحات تورغوت أوزال وسليمان ديميريل حول مياه الفرات وإليكم ما قاله ديميريل وأوردته مداخلة الخبير التركي المذكور: «إن مياه تركيا كنفط العرب، وطالما لا نستطيع نحن المطالبة بنصف بترولهم فلن يمكنهم بالمقابل المطالبة بما هو ملكنا»، وأظن أن الخبير يتبنى هذا الموقف أيضاً. ويجدر الانتباه إلى قوله إن تركيا قد غضت النظر عن سد قرقاميش على بعد ثلاثة كيلومترات عن الحدود التركية مع سوريا، غير أن الأنباء الأخيرة حملت لنا الاتفاق النمساوي التركي على إقامة السد المذكور (راجع Water Briefing 13Dec. 1995)، ومعلوم أن سداً آخر يبعد ١٥ كلم فقط عن قرقاميش يجري الإعداد لتنفيذه أيضاً، وهذا جزء من المشروع GAP سيء الصيت.

هذا وضم الكتاب مداخلة مصرية مهمة عن نهر النيل وبذلك يحقق المصريون تفوقاً على نظرائهم العرب في مخاطبة الرأي العام الدولي إلى جانب وجهات نظرهم فيما يخص حقوقهم بمياه النيل. ومن المؤسف أن غياب خبراء عراقيين وسوريين عن مثل هذه الأنشطة يساهم في إكساب المواقف التركية مصداقية معينة أمام الرأي العام، وهذا يضاعف مهمة الوطنيين من البلدين في تحويل قضية الفرات ودجلة إلى مصاف المهام الملحة وطنياً وقومياً والتي يجب عدم نسيانها أو إهمالها أو التنازل عنها تحت أي ظرف.

سيدني ٥/١/١٩٩٦

* International Waters of the Middle East From Euphrates-Tigris to Nile, edited by Asit K. Biswas, Oxford University Press, 1994.

التنمية البشرية لعام ١٩٩٥
اعداد برنامج الأمم المتحدة الانمائي*

عرض د . مجيد مسعود

■ *هذا هو سادس تقرير من نوعه ، حيث صدر الأول عام ١٩٩٠ وتوالى اصداره في كل عام،وكانت مواضيع هذه التقارير السنوية على التوالي كما يلي : مفهوم وقياس التنمية البشرية، تمويل التنمية البشرية، الأبعاد العالمية للتنمية البشرية، المشاركة الشعبية، الأبعاد الجديدة للأمن البشري، ثورة من أجل تحقيق المساواة بين الجنسين.*

فالرسالة الواضحة والمحورية لتقرير هذا العام هي : ان التنمية البشرية يجب «تجنيسها» بمعنى اذا كان المقصود بالتنمية ان توسّع الفرص لجميع الناس، فان استمرار استبعاد المرأة من فرص كثيرة في الحياة يعوق عملية التنمية فتصدير هذا التقرير يقول : «ان خطى التنمية ــ رغم عدم هوادتها في العقود الخمسة الماضية ــ قد اقترنت بتزايد التفاوت داخل الأمم وبين الأمم. ولقد كان اكثر هذه التفاوتات استمراراً هو التفاوت بين الجنسين ، رغم وجود كفاح لا يلين من أجل تحقيق تساوي الفرص بين المرأة والرجل . فما برحت المرأة تمثل ٧٠٪ من فقراء العالم،وثلثي الأميين في العالم. وهي لا تشغل سوى ١٤٪ من الأعمال التنظيمية والادارية، و١٠٪ من المقاعد البرلمانية ، و٦٪ من المناصب الوزارية . ومـازالت لا

* تولى تنسيق فريق العمل المكلف بالتقرير د. محجوب الحق، وصدر في القاهرة بحوالي ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير عن «دار العالم العربي للطباعة والنشر».

تتمتع بالمساواة في كثير من النظم القانونية . وكثيراً ما تعمل ساعات أطول من ساعات عمل الرجل، ولكن قدراً كبيراً من عملها يظل بلا تقييم ولا اعتراف ولا تقدير. ويخيّم خطر العنف على حياتها من المهد الى اللحد.»

وهناك ثلاثة مكونات اساسية لتوسيع خيارات الناس، هي :

١ ـ المساواة في الفرص المتاحة لجميع الناس في المجتمع.

٢ ـ استدامة هذه الفرص من جيل الى الجيل التالي .

٣ ـ تمكين الناس لكي يشتركوا في عمليات التنمية ويستفيدوا منها .

والمساواة في حقوق الانسان ذات ابعاد كثيرة ، منها :

أ ـ المساواة في امكانية الحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية، ومن بينها التعليم والصحة.

ب ـ المساواة في فرص المشاركة في صنع القرارات السياسية الاقتصادية .

جـ ـ المساواة في الأجر مقابل العمل المتكافئ.

د ـ المساواة في الحماية بموجب القانون.

هـ ـ القضاء على التمييز حسب نوع الجنس وعلى العنف ضد المرأة .

و ـ المساواة في حقوق المواطنين في جميع مجالات الحياة ، سواء العامة ـ مثل مكان العمل ـ أو الخاصة ـ مثل المنزل .

إن الاعتراف بالحقوق المتساوية للمرأة، والتصميم على مكافحة التمييز القائم على أساس الجنس، هما انجازان يضاهيان في الأهمية الغاء الرق ، والقضاء على الاستعمار ، والنص على المساواة في الحقوق للأقليات العنصرية والعرقية .

والتحرك صوب المساواة بين الجنسين ليس هدفاً تكنوقراطياً ـ بل هو عملية سياسية. فهو يتطلب أسلوباً جديداً في التفكير تحل فيه ، محل قولبة المرأة والرجل، فلسفة جديدة تعتبر جميع الناس، بغض النظر عن نوع الجنس، عناصر فاعلة أساسية للتغيير نحو الأفضل.

ان ازالة التفاوتات بين الجنسين لا تتوقف على وجود دخل مرتفع، وتؤكد ذلك مقارنة الترتيب حسب دليل (مؤشر) التنمية المرتبط بنوع الجنس وبمستويات البلدان من حيث الدخل . فالصين ترتيبها أعلى من المملكة العربية السعودية بمقدار عشرة مع ان دخلها يبلغ خُمس السعودية .

لقد ضاقت بسرعة في العقدين الماضيين التفاوتات بين الجنسين في مجالي التعليم والصحة ، وحقق كل بلد تقدماً في تنمية قدرات المرأة، ولكن المرأة والرجل

مازالا يعيشان في عالم يفتقر الى المساواة. فبينما انفتحت أبواب فرص التعليم والصحة أمام المرأة بسرعة ، فإن أبواب الفرص الاقتصادية والسياسية لم تنفتح إلا بالكاد.

ومن الأدلة الرئيسية للتجاهل ان مساهمات كثيرة للمرأة في الاقتصاد تُبخس قيمتها بشدة، أو لا تعطى لها قيمة على الاطلاق . ولكن مشاركة المرأة على أعلى مستويات صنع القرارات في الحياة السياسية والاقتصادية هي التي يمكن ان تدفع التغيير من أجل تحقيق مزيد من المساواة بين الرجل والمرأة. واذا قُيّم عمل المرأة غير المأجور تقييماً صحيحاً فمن الممكن تماماً ان يتضح ان المرأة في معظم المجتمعات هي العائل الرئيسي ـ او انها على الأقل عائل على قدم المساواة مع الرجل ـ وذلك نظراً لانها تنفق في العمل ساعات أطول من الساعات التي ينفقها الرجل .

ومن العناصر الرئيسية الأخرى للتمييز دونية موقع المرأة بشكل غير مقبول في المجتمع مع استمرار التمييز القانوني والعنف ضد المرأة . والثورة نحو المساواة بين الجنسين يجب ان تدفعها استراتيجية ملموسة للتعجيل بالتقدم. ولابد من تدخل الحكومات من خلال اجراء اصلاحات في السياسات ومن خلال اجراءات ايجابية لصالح المرأة .

ينبغي تشجيع الرجل على المشاركة في رعاية الأسرة ، بان يتاح للعاملين فرصة تنظيم ساعات عملهم بمرونة ، ليكونوا اقدر على ان يجمعوا ما بين العمل المأجور ومسؤولياتهم الأخرى . وقد ابتكرت بعض الدول مثل المانيا واليابان ممارسات وأساليب لتمكين العاملين لديها من التوفيق ما بين الاحتياجات الأسرية والبرامج الانتاجية . ويسمح أرباب العمل أيضاً، بدرجة متزايدة، للعاملين بان يعملوا في المنزل ، أو بإحضار المنزل الى مكان العمل، أي بتوفير رعاية الطفل في مكان العمل.

وبعد العرض العام، تناول تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥ في الفصل الأول منه، حالة التنمية البشرية، وتضمن كشفاً لحساب التنمية البشرية في مناطق عديدة من العالم، ونكتفي هنا بايراد ما يخص المنطقة العربية .

حصيلة حساب التنمية البشرية في الدول العربية

الصحة

في ١٢ بلداً من بلدان المنطقة عددها ١٩، يتجاوز العمر المتوقع ٦٥ عاماً، بالمقارنة بمتوسط قدره ٤٥ عاماً في سنة ١٩٦٠. ولكن يحصل اقل من ثلاثة أخماس

سكان الريف على مياه مأمونة . ويحصل النصف فقط على مرافق صرف صحي.

التعليم

خلال العقدين الماضيين تضاعف تقريباً معدل معرفة القراءة والكتابة بين البالغين، بحيث ارتفع من ٣٠٪ في عام ١٩٦٠ الى ٥٤٪ في عام ١٩٩٢.

زاد القيد الاجمالي في التعليم الابتدائي والثانوي معاً بنسبة ست مرات تقريباً، من ٨ ملايين الى ٤٦ مليوناً، خلال الفترة من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٩١.

مازال زهاء ٨٠ مليون شخص أميين .

يوجد تسعة ملايين طفل خارج المدارس الابتدائية، و١٥ مليوناً خارج المدارس الثانوية.

الدخل والفقر

بين عامي ١٩٧٤ و١٩٩٢ ، ارتفع الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي بنسبة ٤٠٪ تقريباً.

كان معدل النمو الزراعي ، البالغ ٤,٧٪ سنوياً خلال العقد الماضي، أعلى معدل في المناطق النامية.

كان حوالي ٧٣ مليون شخص يعيشون ـ دون خط الفقر ـ في عام ١٩٩٠ ، وكان أكثر من ١٠ ملايين شخص يعانون من نقص التغذية .

زادت نفقات الدفاع ـ من ٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٦٠ الى ١٢٪ من الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٩١.

المراة

خلال الفترة من عام ١٩٧٠ الى عام ١٩٩١ انخفضت الفجوة بين الجنسين في القيد في المرحلة الثانوية من ٥٤٪ الى ٣٢٪ وانخفضت الفجوة في التعليم العالي من ٦٥٪ الى ٣٥٪ ـ وهذا يمثل أسرع سد لهاتين الفجوتين في العالم النامي.

حوالي ٣٠٪ من النساء المقيدات في التعليم العالي يدرسن العلوم الطبيعية والتطبيقية.

ولكن لا تشارك سوى نسبة ١٧٪ من النساء العربيات في القوة العاملة الرسمية.

تمثيل الاناث في البرلمانات لا يتجاوز ٤٪، وهي نسبة تقل كثيراً عن المتوسط البالغ ١٠٪ في العالم النامي.

الطفل

خلال الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٩٢ ، انخفض معدل وفيات الرضع بما يتجاوز ثلاثة أخماس ، بحيث بلغ ٦٤ حالة وفاة لكل الف مولود حي بعد أن كان ١٦٥ حالة وفاة.

أكثر من ثلاثة ارباع الأطفال الذين بلغوا من العمر سنة ملقحين.

ولكن مازال معدل وفيات الأطفال الذين لم يبلغوا من العمر سنة، وقدره ٨٣ حالة وفاة لكل الف مولود حي ، أعلى من المعدل في البلدان الصناعية خمس مرات.

البيئة

خلال الفترة من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٩٢ ، انخفض معدل استهلاك الطاقة مقابل كل ١٠٠ $ من الناتج المحلي الإجمالي بمقدار الثلثين، بحيث أصبح يعادل ٧٦ كيلو غراماً من النفط بعد أن كان ٢٢٨ كيلو غراماً . ولكن مع وجود أقل من ١٠٠٠ متر مكعب من المياه للفرد الواحد في كل عام، يعاني حوالي ٥٥٪ من الناس من شحة شديدة في المياه.

الوضع السياسي

منذ عام ١٩٩٠ اجرت ثلاثة بلدان (الأردن ولبنان والمغرب) اصلاحات سياسية لتعزيز نظم التعددية الحزبية فيها .

في نهاية عام ١٩٩٣ كان أكثر من مليون شخص لاجئين.

وركز الفصل الثاني من تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥ على حقيقة عالمنا المعاصر، مفادها بأنه : مازال عالماً يفتقر الى المساواة ، حيث بين بالوقائع والأرقام الاحصائية المستمدة من بلدان عديدة شملتها الدراسة ، بأن المرأة لا تتمتع في أي مجتمع الآن بنفس الفرص التي يتمتع بها الرجل،حيث يتبين من المرفق الاحصائي لهذا الفصل التقدم النسبي المحرز في تحقيق المساواة بين الجنسين من خلال المؤشرات التالية :

أ ـ القيد في التعليم الابتدائي والثانوي والعالي بلغ للاناث ٤٦٪.

ب ـ نسبة المرأة العاملة من اجمالي القوة العاملة بلغت ٣٨٪

جـ ـ ونصيب المرأة من المناصب الادارية والتنظيمية نحو ١٤٪

د ـ وحصة المرأة في المقاعد البرلمانية مازالت في حدود ١٠٪

هـ ـ وعضويتها في المناصب الوزارية مازالت محدودة ٦٪

وفي الفصل الثالث ، اجتهد واضعو التقرير بصياغة منهجية قياس عدم المساواة بين الجنسين مقترحين لذلك مقياسين مركبين لالتقاط التفاوت بين الجنسين.

يقيس دليل التنمية البشرية متوسط انجاز البلد من حيث القدرات البشرية الأساسية، ويشير الدليل الى ما اذا كان الناس، يحيون حياة طويلة صحية، ويتعلمون ولديهم معارف، ويتمتعون بمتسوى معيشة لائق، ويتناول الدليل بالفحص متوسط حالة جميع الناس في أي بلد : اما نواحي عدم المساواة التوزيعية فيما يتعلق بشتى فئات المجتمع ، فهي يجب ان تحسب على حدة .

ويقيس دليل التنمية المرتبط بنوع الجنس، الانجاز من حيث نفس القدرات الأساسية التي يقيسها دليل التنمية البشرية، ولكنه يراعي انعدام المساواة في الانجاز بين المراة والرجل، وتفرض منهجيته عقوبة على انعدام المساواة، بحيث ينخفض الدليل عندما تنخفض مستويات الانجاز لكل من المراة والرجل في أي بلد، أو عندما يزيد التفاوت بين انجازهما . وكلما كبر التفاوت بين الجنسين في القدرات الأساسية انخفض دليل التنمية المرتبط بنوع الجنس الخاص بأي بلد بالمقارنة بدليله الخاص بالتنمية البشرية . فهذا الدليل هو ببساطة دليل التنمية البشرية مخصوماً منه ، أو مُعدلاً بخفضه ، لمراعاة انعدام المساواة بين الجنسين.

أما مقياس التمكين المرتبط بنوع الجنس، فهو يفحص ما اذا كانت المراة وكان الرجل قادرين على المشاركة بنشاط في الحياة الاقتصادية والسياسية وعلى الاشتراك في عملية صنع القرار. وبينما يركز دليل التنمية المرتبطة بنوع الجنس على توسيع القدرات، يعنى هذا المقياس باستخدام تلك القدرات من أجل الاستفادة من فرص الحياة . وقد قام واضعو التقرير وفقاً لهذه المنهجية بحساب هذه الأدلة والمقاييس استناداً الى مؤشرات مختارة لعدد من البلدان بلغ (١٣٠) بلداً، متدرجين بها من الأفضل (السويد) الى الأقل حظاً (أفغانستان) في هذا المجال، أي حسب أدائها من حيث تحقيق المساواة بين الجنسين.

والفصل الرابع من التقرير تناول تقييم عمل المراة ، حيث يقرر بان قدراً كبيراً من عمل المراة يظل بلا تقدير وبلا تقييم،وهذا أمر يترك أثراً على مركز المراة في المجتمع. ومع ان المراة تعمل ساعات أطول من ساعات عمل الرجل ، كما تبين من دراسة أوضاع العديد من البلدان، فان معظم عمل المراة هذا ، يظل بلا أجر وبلا تقدير ومبخوس القيمة. حيث تقدر نسبة العمل الذي تقوم به المراة ويندرج ضمن

نظام الحسابات القومية بحوالي ٣٤٪ ، و ٦٦٪ الباقية من عملها لا يندرج ضمن هذا النظام، بينما يندرج ٧٦٪ من عمل الذكور في نظام الحسابات القومية ، والنسبة الأقل من عملهم ٢٤٪ لا تندرج ضمن هذا النظام.

ويوجه الفصل الخامس من التقرير الدعوة : نحو المساواة ، مؤكدين على ان المساواة ليست هدفاً تكنوقراطياً ـ بل هي التزام سياسي جامع . ولا ينبغي بذل اي محاولة لطرح نموذج عالمي للمساواة بين الجنسين فلكل بلد ومجتمع خصوصياته التي ينبغي مراعاتها . ومن الممكن لمنظمة رصد نسائية عالمية ان تسد فجوة هامة داخل الدول وعلى الصعيد العالمي في هذا الميدان.

والفصل السادس كثف الجدل القائم بشأن التنمية البشرية ، ومن عناوينه البارزة : في الثمانينات كان ثمن عملية موازنة الميزانيات هو عدم موازنة حياة الناس. وما هو معنى النمو اذا لم يُترجم في حياة الناس. لقد فتح نظام الترتيب الخاص بدليل التنمية البشرية الباب لحدوث تنافس صحي بين البلدان من أجل تحسين وضعها من حيث التنمية البشرية . ولقد حفزت عدة مقترحات بشأن السياسات وردت في تقرير التنمية البشرية ، على اجراء حوار عالمي بشأن السياسات، وان النمو ليس نهاية التنمية ـ ولكن غياب النمو كثيراً ما يكون هو نهايتها ـ وتمكين الناس ، ولا سيما المرأة، طريق أكيد للربط بين النمو والتنمية البشرية . وكل قضية في نماذج النمو التقليدية يجب معالجتها من زاوية أفضلية الناس .

وتضمن التقريرملاحظات فنية وشرحاً للمعادلات الرياضية المستخدمة في حساب عدد من المؤشرات التي تضمنها التقرير . وأخيراً أورد التقرير مؤشرات التنمية البشرية لـ (١٧٤) بلداً.

ومن سمات تقريرهذا العام ، المساهمات المقدمة له من سبع رئيسات حاليات لدول أو حكومات، وتعرض فيها كل منهن رؤيتها للتحديات التي تواجهها والسُبل التي تقترحها لتحقيق قدر أكبر من المساواة بين الجنسين في بلدها .

وهذه الأفكار المكثفة المستلة من التقرير لا تغني عن الرجوع الى هذه الوثيقة الهامة، مع خالص التقدير للفريق الذي أعدها وعلى رأسه وزير المالية والتخطيط السابق في باكستان والمستشار الحالي لمدير برنامج الأمم المتحدة الانمائي، ولكل معاونيه.

رأي حول عودة نفط العراق الى الأسواق

د . فلاح العامري

يتميز الاقتصاد العراقي، كما هو معروف ، بالاعتماد الكبير على الايرادات المتأتية من صادرات النفط الخام. لقد أصبحت درجة اعتماده عليها شبه كلية لتصل الى ٩٨٪ من مجمل صادرات البلد. لذلك فان انتعاش أو ركود الاقتصاد العراقي يتأثران بكمية وسعر النفط المصدر . في نفس الوقت فان انخفاض ايرادات النفط يؤثر على سياسة الحكومة داخلياً وخارجياً. أضف الى ذلك فان توقف صادرات النفط، كما حدث بعد احتلال الكويت سنة ١٩٩٠ قد أدى الى انهيار العديد من الأنشطة الاقتصادية. ومما يفاقم الآثار الآنية والبعيدة أن العقوبات الدولية تشمل بقية الصادرات وكذلك الواردات ، باستثناء الغذاء والدواء.

كان انتاج العراق النفطي قد بلغ ذروته في أيلول ١٩٨٠ (عشية اندلاع الحرب العراقية الايرانية) ليصل الى ٣,٨ مليون برميل يومياً . ثم انخفضت معدلات الانتاج خلال سنوات الحرب ليقف عند ٢,٧٤ مليون برميل عشية انتهاء الحرب. ثم بدأ الانتاج بالارتفاع من جديد ليصل الى ٣,٥ مليون برميل يومياً عشية احتلال الكويت. يعني ذلك ان العراق من الدول المنتجة الكبيرة . فهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد المملكة العربية السعودية على نطاق اوبك ، والمرتبة الرابعة على نطاق عالمي ـ لذلك فان لغياب النفط العراقي من السوق العالمية أو عودته اليها تأثيراً هاماً ولكن يمكن تلافيه عالمياً . فقد عوضت السعودية بزيادة انتاجها حصة العراق من صادرات النفط التي فرض عليها الحظر الدولي. (باستثناء الكمية المصدرة الى الأردن بموافقة مجلس الأمن).

إن أهم ما يميز سوق النفط العالمية في الوقت الحاضر هو الركود النسبي وانخفاض معدل الأسعار وحساسيتها تجاه الأحداث السياسية في منطقة الخليج . فعلى سبيل المثال ، ادى مرض الملك فهد وتولي الأمير عبد الله ادارة شؤون المملكة الى ارتفاع طفيف في أسعار النفط العالمية. إن عودة العراق لانتاج كميات هامة من النفط سوف تؤدي الى اغراق الأسواق العالمية بالنفط وفقدان التوازن القلق من السوق ،وذلك بحصول زيادة في المعروض تسبب انهياراً في الأسواق . ان نسبة هبوط الأسعار تكون مرتبطة بالكمية التي يصدرها العراق من جهة وتكيّف دول اوبك تجاه تلك الزيادة من جهة أخرى. لذلك فان التنسيق، المستمر بهذا الخصوص بين الولايات المتحدة الامريكية والأمم المتحدة ومنظمة الاوبك جعل احتمال رجوع العراق بهذه الطريقة أمراً مستبعداً.

لقد قامت دول اوبك، وخاصة المملكة العربية السعودية ، التي تستحوذ على نسبة ٧٥ ــ ٨٠٪ من حصة العراق قبل فرض الحظر النفطي، بتعويض النقص الحاصل في سوق النفط العالمية الناتج عن غياب النفط العراقي.

ان عودة النفط العراقي سوف تؤدي الى انخفاض أسعار النفط ما لم تَقم دول اوبك وخاصة المستفيدة من غياب النفط العراقي، مثل ايران، السعودية والكويت ، بتقليص انتاجها. ولكن تلك الدول أيضاً بحاجة ماسة الى ايرادات نفطية متزايدة للحفاظ على مستواها الاقتصادي الذي تأثر الى درجة كبيرة بحربي الخليج وانخفاض ايرادات النفط نتيجة انخفاض الأسعار ،وكذلك لتمويل مشاريع التنمية ، وهذا يجعل من الصعب اقناع تلك الدول بتقليص حصصها الانتاجية الحالية لاستيعاب الكمية التي يصدرها العراق وذلك من أجل المحافظة على المستوى الحالي للأسعار. ففي حالة رفع العقوبات وقيام منظمة اوبك باصدار قرار بتخفيض حصص انتاج تلك الدول تخفيضاً يساوي مجموعه انتاج العراق المسموح به بموجب قرار المنظمة، فان تطبيق هذا القرار ربما يواجه صعوبات ويخلق مشاكل بين الأعضاء لان كمية النفط التي يمكن ان يطالب بها العراق ليست بأقل من مليوني برميل في اليوم في المرحلة الأولى من عودته الى سوق النفط ، وهي كمية كبيرة تؤثر على الأسعار. لكن قرار اوبك يمكن ان يكون فعالاً اذا ادركت تلك الدول ان تخفيض انتاجها بما يناسب كمية الصادرات العراقية افضل من تدهور أسعار النفط على نحو خطير ، وربما يصل الأمر الى تهديد مستقبل المنظمة وبالتالي مصالح أعضائها.

أما اذا كان قرار أوبك يقضي بتخفيض انتاج كل الدول الأعضاء بنسبة موحدة فسوف ترفض تطبيق هذا القرار دول مثل الجزائر، اندنوسيا ، قطر والغابون لاعتقادها بان التخفيض يجب ان يكون فقط في حصة تلك الدول التي استفادت مباشرة من غياب النفط العراقي. ان مثل هذا القرار ربما يقود الى حرب انتاج وأسعار بين الأعضاء وخاصة المنتجين الكبار.

ثم ان تدهور الأسعار يؤدي أيضاً الى احجام المستثمرين عن توظيف أموالهم في الاستثمارات الضرورية لصناعة النفط ليس لدول اوبك فقط، وانما للدول النفطية المنتجة خارج اوبك ايضاً، لانها تعتمد في تمويل صناعتها النفطية على شركات النفط في الدول الصناعية الكبرى. اذن ما هي الآلية التي قد تواجه عودة تصدير النفط العراقي مع فرض ضوابط محددة ؟ ويمكن أن تتخذ الآلية شكل واحد من ترتيبين :

الأول : الرفع الشامل للعقوبات الاقتصادية

ان رفعاً شاملاً للعقوبات وربط كمية تدفق النفط العراقي بالزيادة الجديدة على طلب النفط عالمياً، ونفط اوبك بصفة خاصة ، من شأنه المحافظة على مستوى التصدير الحالي لاعضاء اوبك وتخصيص الزيادة في الطلب العالمي للعراق لكي يصل انتاجه الى المستوى الذي كان عليه قبل احتلال الكويت . لذلك فان مستويات الانتاج العراقي سوف تعتمد على رفع العقوبات وعلى نمو الطلب على نفط اوبك. ولكن سلبيات هذا الترتيب تكمن في :

أ ـ ان رفع العقوبات لا يمكن تحديد موعده بدقة لارتباطه بموقف امريكا، وذلك تبعاً لمصالحها السياسية والاقتصادية في المنطقة .

ب ـ ان زيادة الطلب على نفط اوبك غير معروفة . فعلى سبيل المثال توقعت وكالة الطاقة الدولية في بداية ايلول الماضي ان الطلب على نفط اوبك في عام ١٩٩٦ سينخفض عن مستوى انتاج المنظمة السائد في ١٩٩٥ وذلك لتزايد الانتاج النفطي والقدرة الانتاجية في معظم الدول المنتجة خارج اوبك. وهذا يؤدي الى انخفاض الأسعار خلال السنوات القليلة المقبلة.

الثاني : بيع النفط العراقي بكميات محدودة باشراف الأمم المتحدة

بموجب هذا الترتيب يسمح للعراق بتصدير نفطه عندما يوافق النظام على تطبيق قرار الأمم المتحدة المرقم ٩٨٦ القاضي بالسماح للعراق ببيع كمية من النفط قيمتها مليارى دولار كل ستة اشهر.

ان هذا الترتيب يمكن أن يؤدي الى :

آ ـ منع نظام صدام من التصرف المطلق بايرادات النفط لحين البت برفع العقوبات.

ب ـ ربط تصدير النفط العراقي بنمو الطلب على نفط أوبك لضمان استقرار الأسعار.

ان الترتيب الأول تفضله اوبك لانه يجنبها الأمور السياسية في حين ان الترتيب الثاني تفضله الولايات المتحدة الامريكية . لكن الترتيبين ليسا في صالح النظام على المستوى القصير، ولا لصالح الاقتصاد وصناعة النفط العراقيين وأي نظام جديد على المدى البعيد.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل ان استقرار أسعار النفط هو الاعتبار الرئيسي المتحكم بآلية اعادة نفط العراق الى السوق العالمية ؟ بالرغم من ان الأمم المتحدة هي المسؤولة رسمياً عن تحديد الوقت والشروط التي يتم رفع العقوبات عن العراق بموجبها ، فان الولايات المتحدة الامريكية ، وبمساندة بريطانيا، لها الدور الرئيسي في تقدير رفع أو بقاء هذه العقوبات . أما فرنسا وروسيا فتريدان رفع العقوبات لخدمة مصالحهما الاقتصادية والسياسية، ولكنهما تتخذان موقفاً مزدوجاً نتيجة التطورات الاقتصادية في روسيا والاتفاقات الجديدة بين فرنسا والمملكة العربية السعودية والكويت ، وموقف الولايات المتحدة الامريكية المتشدد. فمن جهة، تساندان النظام في مطالبته المستمرة برفع العقوبات والسماح لشركاتهما النفطية بعقد الاتفاقات معه، ومن جهة أخرى تأييد الولايات المتحدة الامريكية التي تربط رفع العقوبات بوجوب تطبيق النظام لكل قرارات الأمم المتحدة .

هذا من الناحية الرسمية . أما من الناحية الفعلية فهي تستخدم سياسة تأخير رفع العقوبات الاقتصادية كسلاح فعال لاضعاف النظام العراقي . ومن المفارقة أن سلاح النفط الذي نادى به النظام في السبعينات ضد اسرائيل وحلفائها يستخدم الآن ضده من قبل الولايات المتحدة الحليف الرئيسي لاسرائيل ، ولعل الأهم من ذلك ان الولايات المتحدة تريد استقرار أسعار النفط وتحقيق أهدافها السياسية في المنطقة . فمن المستبعد ان توافق على رفع العقوبات بشكل كامل . فهي تفضل زيادة الصادرات العراقية تدريجياً وتحت اشراف الأمم المتحدة كونها الوسيلة الأكثر فاعلية .

ففي حالة السماح للنفط العراقي بالتدفق دون اشراف الأمم المتحدة فان النظام الحالي أو المستقبلي سيعملان على زيادة تصدير النفط. لكن أي نظام جديد لابد أن يتبع سياسة نفطية عقلانية مستندة على الحوار والتنسيق مع الدول المعنية، وخاصة مع دول الخليج. وعليه فان الولايات المتحدة ترى ان عودة النفط العراقي يكون أسهل في حالة قيام نظام جديد حليف لها ومقبول من دول الخليج .

لكن امريكا ليست تواقة جداً لعودة النفط العراقي في الوقت الحاضر، فالبرغم من الضغط السياسي الذي تمارسه منذ حرب الخليج على النظام العراقي، الا انها فضلت استهداف شخص صدام وليس نظامه الدكتاتوري. ولكن أصبح من الواضح ان نتيجة هذه السياسة هي تجويع الشعب العراقي وتدمير اقتصاده الوطني مع بقاء صدام في السلطة. فلو كانت الولايات المتحدة معنية بتطبيق قرار الأمم المتحدة ٦٨٨ المتعلق بحقوق الانسان واجراء انتخابات حرة باشراف الأمم المتحدة في العراق لايقاف معاناته المأساوية الطويلة لربطت رفع الحظر الكلي أو الجزئي للعقوبات بتطبيق ذلك القرار.

ان رفع الحظر النفطي بدون شروط سوف يؤدي الى عودة العراق الى سوق النفط العالمية بكمية قدرها مليونا برميل في اليوم على أقل تقدير في البداية . وربما تزيد الى ثلاثة ملايين في اليوم خلال الستة أشهر الأولى. ان هذه الكمية تفرض على اوبك بشكل عام والملكة العربية السعودية بشكل خاص اتخاذ اجراءات عملية سريعة للحفاظ على الأسعار ربما على حساب صادرات النفط السعودية .

ان تقليص صادرات نفط السعودية المثقلة بالديون الخارجية والمرتبطة بعقود أسلحة مع الولايات المتحدة وبريطانيا سوف يضعها في مأزق كبير . والولايات

المتحدة تدرك خطورة المأزق السعودي ، لذلك فهي تحاول منع أو تأجيل عودة النفط العراقي الى التدفق بحرية وتعمل على ان يعود النفط العراقي وفق أحد الترتيبين المشار اليهما أعلاه.

لقد جازف بعض الكتاب بتخمين موعد محدد لرفع العقوبات لكن الواقع لم يزكِ توقعاتهم . فالمصالح الاقتصادية والسياسية الدولية والاقليمية لعبت دوراً حاسماً في اطالة العقوبات رغم ان المتضرر الأول منها هو الشعب العراقي.

مطبوعات وردتنا

صدى السنين في ذاكرة شيوعي مخضرم،
ذكريات
زكي خيري

بلاد مجنحة،
شعر، دار المنفى - السويد
سلام صادق

ارتقب رائحة الزيزفون،
شعر، دار الكنوز الأدبية - بيروت
علاء حمد

جوانب من حياة اليزيديين في سنجار

ميرزا حسن الدنادي

لقد أعجبني كثيراً أسلوب (د. نيلدا فوكارو) في مقالتها المنشورة بمجلتكم الغراء (العدد ٢٦٥) في تعبيرها عن بيئة سنجار الاجتماعية والتنافسات القبلية، وتحليلاتها الرائعة حول قبائل سنجار. وسأكون سعيداً لو استطعت الاتصال بها للاستفادة من معلوماتها ورسالتها الخاصة عن ايزديه سنجار. وباعتباري احدهم ، ومن المهتمين بتاريخ وتراث الايزدية، أود أن أبدي ملاحظاتي حول الموضوع لتبيان بعض الحقائق والنقاط الهامة الغامضة التي لم تذكرها الباحثة أو أخطأت فيها.

القطبان القبليان:

عزت الكاتبة انقسام عشائر سنجار السياسي الى اسباب اقتصادية، واختلاف وسائل المعيشة بين (خوركا وجوانا). اذ ان أفراد خوركا اعتمدوا على تربية الماشية في حياتهم بينما مالت عشائر (جوانا) الى الاستقرار والزراعة. ورغم انني لا استبعد هذا الاختلاف الا ان هذا لا يعتبر سبباً كافياً لخلق الخلافات والنزاعات والكثير من الحساسية، حتى ان التزاوج كان صعباً للغاية بينهم بسبب تطرف (جوانا).

ان سبب ذلك يعود الى خلافات شبه مذهبية يرجع تاريخها الى عهد الشيخ عدي بن مسافر ، والنزاعات العائلية بين أسرتي (شيشمس) و (شيخسن) أو بالأحرى بين العائلة الشمسانية والعائلة القاتانية حتى ان الخلافات قد وصلت الى حد القتل.

المهم هنا ان (جوانا) من مريدي ومؤيدي (شيخسن وابنه شرفدين) أما (خوركا) فهم مريدو (الشيشمس) وعائلته.

ومن هنا بدأ الصراع وكان في عهد (شرفدين) قمة الصراع في سنجار. والجدير بالذكر هنا ان (جوانا) قد أطلقوا اسم (خوركا) وتعني (الغير صابئين) على خصومهم ، نظراً لانهم لم يتبعوا حكم (شرفدين) بل أيدوا (شيشمس).

تقسيمات العشيرة:

أخطأت الكاتبة في تقسيم العشيرة الى الأسرة، برا، وباڤك. اذ إنها فسرت كلمة (برا) على انها تعني (الأخ) وجعلت من (برا) وحدة اجتماعية أصغر من (باڤك) ويعني (الأب). فكلمة (برا) غير صحيحة ، بل هي (بَره Bere) وتعني (الفخذ) والترجمة الحرفية هي (الجبهة) ، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من أُسر متحالفة تحت شعار واحد.

أما باڤك أو (بابك) فيقصد بها عائلة واحدة تفرعت من جد واحد لا يتجاوز الجد السابع وهم بالتالي أولاد أعمام واولاد أولاد الأعمام الخ.

وبهذا أصبح انقسام العشيرة الايزدية (كالكثير من العشائر الأخرى) بالشكل الآتي:

أ ـ الأسرة: (مال) مجموعة من أفراد.

ب ـ بابك : مجموعة من أُسر .

جـ ـ بَرَه : مجموعة من بابك.

د ـ العشيرة : مجموعة من (بَرَه).

ونذكر هنا ان حادثة القتل مثلاً تكون عواقبها على جميع أفراد العشيرة وأفخاذها، بينما حادثة جرح شخص غريب او الحاق خسارة به (كأن يدفع تعويض له) فان عواقبها تتحمله الـ (بَرَه) التي ينتمي الجاني اليها.

وهناك علاقات خاصة بين عشائر الايزدية. تسمى (هڤال بندي) وتعني التحالف. يتحمل الطرفان المتحالفان كافة العواقب والمشاكل المترتبة على الطرف الآخر، وعادة كانوا يقسمون بينهم (البراته) المقدسة عند الايزديه للدلالة على الاخلاص والعهد.

عشيرة مندكا:

لا أعرف من أين جاءت الاسطورة القائلة بان مندكا كانت عشيرة مسلمة واستقرت في جبل سنجار.. فهذا ادعاء غير صحيح تماماً.

اذ ان هذه العشيرة قد هاجرت من منطقة زوزان وهضبة سروج بتركيا في القرن

السابع عشر ، وهاجر قسم منهم الى ارمينيا وجورجيا، وهم يعتبرون فخذاً من عشيرة الدنادية، فكل المندكا في ارمينيا يقولون انهم دناديون هاجروا من زوزان. وقد التقيت أكثر من مرة ببعض كبار السن في العشيرة فأكدوا هذا. أما عن وجود بعض افخاذ العشيرة مسلمين فذلك ليس غريباً اذا ما عرفنا ان أغلب الأكراد المسلمين كانوا ايزدية في الأصل.

حمو شرو :

ينتمي الى عشيرة الدنادية ومن فخذ (كشكوكا). والده شرو قد هاجر من قريته في شرقي دجلة الى قرية الفقراء قرب (جدالي) وتزوج من أخت الفقير (حسن جندي) فأُجبِرَ على اطلاق لحيته والذوبان في بيئة فقراء الايزدية. ولا يخفى ان الكثير من فقراء الايزدية قد أصبحوا كذلك عن طريق الاكتساب لا التوارث، أي حملوا اللقب بعد اطلاق اللحى والزهد.

وحول كيفية تزعم (حمو) لسنجار، وعلى الفقراء بالذات، أخطأت الباحثة في نسبه الى زعماء الدنادية.اذ ان زعماء أو أغوات الدنادية معروفون هم عائلة (كوك آغا). وفي عهده كان (بشار اغا) وأولاد عمه (خليل اغا) يحكمون العشيرة في مناطق غربي دجلة (أي ويران شار وهضبة سروج وصولاً الى سنجار)، وهي مناطق تواجد عشيرتهم.

اما شرقي دجلة ، بعدما انقرضت عائلة (عفدي اغا) الذي حكم هو ووالده (نمر سحو) الدنادية هناك، لم يبق أي زعيم يوحد كافة أفخاذ الدنادية في منطقة (دوبانادنا). فانقسم نظام السلطة في العشيرة على رؤساء الأفخاذ وكانوا عبارة عن مختارين بصيغة الانتخاب لا التوارث. ورغم ذلك فان حمو شرو لا ينتمي الى عائلة أحد رؤساء الأفخاذ.

وبودي أيضاً أن اشير الى ان الكاتبة قد أخطأت في عزوها اعطاء فضل انشاء (عشيرة الفقراء) الى حمو شرو اذ ان الفقراء كانوا متماسكين كوحدة اجتماعية وسياسية منذ تاريخ أقدم بكثير . فقد تزعمت (داي زرو) أي الأم زرو عشيرة الفقراء في حدود منتصف القرن التاسع عشر.

أما كيف تزعم حمو الفقراء وأصبح فيما بعد وكيل الحكومة البريطانية في سنجار، فذلك يعود الى انه قام بحماية المسيحيين الأرمن والآشوريين من البطش العثماني حينما صدر (فرمان) بابادتهم من الباب العالي في اسطنبول ، أواخر القرن التاسع عشر.

وكانت الحكومة البريطانية قد منحت (حمو) السلطة لفضله هذا، اضافة الى ان حمو قد قام في عام ١٩١٩ باتلاف السجلات العثمانية ووحداتها الادارية في سنجار ، نظراً لحقد الايزدية على العثمانيين الذين قاموا بابادتهم أكثر من مرة ، كما تشير (المس بل) في تقريرها الى المفوض السامي البريطاني .

هذا ولم يكن (حمو شرو) زعيماً دينياً ، كما تذكر المؤلفة ولم يكن له مريدين اذ ان طبقة (الفقير) هي أساساً جزء من طبقة (المريد).

عائلتا (شيخ خلف و شيخ خدر) :

ينتمي شيخ خلف الى عائلة (ميرسجادين الشمساني) وعشيرته (هسكا Hes-ka) من مريدي (ميرسجادين) ولهذا فانه (شيخ خلف) هو الشيخ الديني للعشيرة. وبالتالي ينتمي الى العشيرة، اذا ما عرفنا انه ليس للشيخ أو البير عشيرة مستقلة .. فهو ليس كما اعتبرته المؤلفة غريباً آتياً من منطقة الشيخان وتولى حكم العشيرة بسبب سلطته الروحية أو الدينية.

وكذلك الحال مع (شيخ خدر) الذي ينتمي الى عائلة (ملك فخردين) ويعتبر شيخاً دينياً لعشيرته (قيراني) من مريدي (ملك فخردين) . انهما فعلاً قد جاءا من منطقة الشيخان لكن هذا لا يستبعد ان يكون أجدادهم قد سكنوا شيخان لأسباب دينية باعتبار المنطقة هي المركز الديني للايزدية. كما لا يغيب عن بالنا الهجرات والتنقلات المستمرة للعشائر وبقاء بعض الأفخاذ أو هجرة البعض منها من العشيرة والعودة اليها..

ملاحظات أخرى:

أ ـ يرد ذكر أسماء (هسكا) و (قيراني) وكذلك (حمو شرو) خطأ في المقالة. وكذلك اسم طبقة (پير) الدينية تذكرها المؤلفة بـ (البرات) (ص٩٢).

ب ـ تذكر المؤلفة ان تاريخ حملة (الفريق عمر وهبي باشا) على ايزدية سنجار هي ١٨٩٤. غير ان معظم المراجع التاريخية تؤكد ان الحملة قد جرت في عام ١٨٩١، أما بداية مجيئه الى الموصل فكان عام ١٨٩٠ مرشحاً من الباب العالي لاجراء اصلاحات ادارية واخضاع الايزدية.

د ـ العدد التقريبي للايزدية يصل الى (٧٥٠ الف نسمة) في القطر العراقي فقط ومركز الثقل السكاني في منطقة سنجار . ويبدو ان الاحصاءات القديمة كانت غير دقيقة اذا ما علمنا ان الكثيرين كانوا يتهربون من تسجيل انفسهم في السابق .


أدب وفن

حوار

مع

نجم والي

(يهمني رسم مصائر بشرية تتقاسم كعكة الموت على مائدة يأس واحدة)

حاوره : جنان جاسم حلاوي

الحرب التي تلاحق نجم والي أينما حل وارتحل « انما هي لعنة ما برحت تطارد العراقيين بالضرورة » فكأن لأماكنه جحيماً خاصاً ولأبطاله سمة الانكفاء الداخلي ، يتساءلون في أعماقهم عن سبب كل ما حاق بهم ، باحثين عن مصائرهم بصورة فطرية ، في زمن لا يرحم وأمام قوة عمياء ساحقة ، ليتحول كل ذلك في النهاية الى سخرية مرّة ، بل عبث ولا جدوى ، حتى يتصيّر الفعل البشري كُموناً انسانياً مندهشاً من مصيره المفاجئ ، في مصادفات لا معقولة أحياناً . ذاك ما نقرأه في أغلب قصصه المنشورة في الصحف والمجلات ، وأخيراً في روايته « الحرب في حي الطرب » الصادرة عن دار صحارى في بودابست . ان تركيز هذا الكاتب بموهبته وتجربته الخاصة على مأساة عصر الخراب العراقي هذا ،وبأسلوب مرن ، حيوي ، متدفق ، وجذاب ، ليجعله في طليعة القاصين العراقيين ، الآن . عن طقوس عوالمه المؤثرة ، والمميزة كان لنا معه هذا الحوار .

▪ لأبطال قصصك ميزة التداعي الحر ، المونولوج الداخلي ، والانزواء ، حبذا لو حدثتنا أكثر عن عوالم شخصياتك القصصية .

■■قبل الحديث عن عوالم شخصياتي ينبغي الحديث عن الشخصيات ذاتها . أصبت حين وصفتهم بالانزواء ، فربما لهذا السبب يتميزون بالتداعي الحر والمونولوج الداخلي . لكن لنترك ميزاتهم جانباً ولنتحدث عنهم مباشرة . انني أستلهم من الوسط في المجموع . هم متواجدون في كل مقهى ، في كل باص يقلّ جنوداً ، أو ربما يتمشون جنبك في الشارع ، وعلى الأغلب تجدهم في البارات أيضاً ، لانها برلماناتهم الوحيدة . بهذا المعنى اكشف عنهم . أليست مهمة الأدب هي الكشف كما عرّفها سارتر في « ما الأدب ؟ » ألم نجلس مجاميع على مائدة خمر واحدة ، وفي الوقت نفسه كل منّا مرمي في مونولوجه الداخلي ؟ علمتني الحياة الاستدلال عليهم ، لأنني أستطيع شمّهم ، لمسهم ، معايشتهم . أما كافكا فعلمني جلبهم الى الورق ، الى تلك المساحة الصغيرة التي من خلالها يمكن تخييل ومعايشة ليست في الحسبان . اعترف بتعلّمي المبكر على كافكا الذي فهم عندنا بصورة خاطئة جداً . يقيناً لعب اكتشافي لماركيز ، تباعاً ، دوراً مهماً . وليس صدفة أن أقرأ قبل أيام مقالا لميلان كونديرا عن كافكا يذكر فيه ان ماركيز باح له في عام ٧١ ، ان كافكا معلمه الأول .

■البصرة ، مدينة وأمكنة ، تختارها غالباً لرسم أحداث قصصك ، وحتى أحداث روايتك « الحرب في حي الطرب » تدور في هذه المدينة الملتهبة ، لماذا الاصرار على البصرة ، بالذات ، مكاناً وعوالم ؟

■■البصرة ليست مكاناً وعالماً فقط . انما هي المتخيل أيضاً . فعندما اندلعت الحرب أول ما « لاحت » البصرة وبهذا المعنى كفت البصرة ان تكون البصرة . فأنت تعرف ماذا تعني الحرب ، ولا أعتقد أن مدينة في العراق تضررت مثلما تضررت البصرة . لا أقول ذلك من باب المقارنة ، وانما على سبيل الاستذكار . من هنا تكون البصرة حاملاً تاريخياً لما انقطع ، باعتبارها المدينة الكوسموبوليتية الأولى ، وذلك طبيعي كونها الميناء ، وأيضاً على اعتبار ما تكون عليه لو تطورت ضمن تداعي التاريخ الحر . تخيّل البصرة دون زياد بن أبيه والحجاج وابن العوجة وكل جلاديها . البصرة في هذه الحالة حامل لما هو جميل ، حينها لا تكون الحرب نيران مدافع ودبابات بل تبدأ قبل ذلك ، من تلك المحاولات لتحطيم كل ما هو جميل . واذا كانت البصرة تستعيد بهاءها في روايتي ، فلانها معرضة على الدوام للاختراق . حالها حال امرأة جميلة ،

وديعة وسط قطيع من الذكور . ألا تتذكر ؟ فلم يكتف العفلقيون بتدميرها انما راحوا يتعمدون اغاظتها ، فعلى طوال سنين الحرب كنت تسمع تلك الأغنية السافلة تتردد في اعلام بغداد (البصرة غدت جنة يا بصراوي اتهنّه) لم يقولوا (تكريت غدت جنة . .)

■ تركز على الحرب كحدث دائم ، ما هو قدر أبطالك خارج هذا الحدث ، بالحرب وبعدها ؟

■■ لا أبالغ القول اذا اعتبرت ٢٢ / ايلول / ١٩٨٠ هو بداية خروج العراق الحقيقي من التاريخ . منذ ذلك اليوم يكون تأريخ العراق على أساس ما بعد ٢٢ ايلول وقبل ٢٢ ايلول . على هذا الأساس يمكن النظر الى قدر أبطالي الذين هم ليسوا أبطالاً ، اذ هم خارج الحرب أناس عاديون ، لهم نساء ، أخوات ، أطفال ، اخوان ، عشيقات . . الخ لهم أحلامهم المتواضعة ، وحتى كجنود لا يحلمون بغير الاجازة ، ربما من أجل مصاحبة من يحبون ، أو الذهاب الى المتنزه ، أو السينما ، أو ربما الجلوس في المقهى فقط ، أو الشجار مع الجيران . لا يهم ، هم بشر كباقي البشر ، وليسوا أبطالاً تُوزع عليهم المداليات والنياشين ، لم تهمني مقولة «الجيوش الباسلة» التي يتغنّى بها الساسة ليسمنوا كروشهم . كما ليس هناك «شهداء مقدسون» انهم بشر يُرمى بهم الى رصاص . أتذكّر عندما كنت جندياً ، ويأتي الهلال الأحمر لجمع تبرعات بالدم ، كانوا يأتون كل أسبوع وكنا نحصل على اجازة بعدها . كل البطارية / الوحدة كانت تحاول التبرع بالدم كل أسبوع ، وكانوا عبثاً يحاولون اقناعنا بضرر التبرع كل أسبوع ، بالطبع انني أتحدث هنا أكثر عن الجنود المكلّفين .

■ ألتجاربك الشخصية فعلٌ ما ، في كتابة قصص الحرب ، أم هي تجارب آخرين ؟ وكيف تنظر الى الحرب كحدث في القصة / : قدر بشري ، أم عنف سياسي أعمى ، أم لعنة تاريخية ؟

■■ لو لم أكن خدمت في الجيش لمدة ٢٤ شهراً و ١١ يوماً لما كتبت بالتأكيد «الحرب في حي الطرب» وقصصاً أخرى . تصوّر انني لم أنسَ مدة خدمتي ، وربما لأنني من الخريجين القليلين الذين كانوا يعصون الأوامر ، لذلك كان عليَ ان أخدم

زيادة . على أية حال لحسن حظي تسرحت قبل الحرب العراقية الأولى بستة أسابيع . ولكن من طرف آخر فكل ما كتبته عن الجنود ، هو بسبب معايشتي لهم ، اضافة الى المتخيل . على هذا الأساس تصبح الحرب كحدث في القصة ليست مجرد قدر بشري انما عنف سياسي ، ليس أعمى ولعنة تاريخية على الفرد مواجهتها . لذلك فان شخوصي ليسوا أبطالاً . كان يؤرقني السؤال ذاته الذي أقلق ريمارك وجعله يكتب « كل شيء هادئ في الميدان الغربي » وهاينريتش بول وغونتر غراس ، وهنري باربوس ، أقصد السؤال البسيط لماذا يذهب الناس الى الحرب على الرغم من عدم ايمانهم بها ؟ وليست غايتي ايجاد الجواب ، بقدر ما يهمني رسم مصائر بشرية ، تلتقي هناك عند جبهة واحدة ، تتقاسم كعكة الموت على مائدة يأس واحدة .

■لا تعقيد في أسلوبك ، ولغتك بسيطة مرنة ، أقرب الى القماشة الصحفية ، ولا تعمد الى تخييل اللغة ، أياً كان موقف أبطالك ، أيعني اقترابك من الايحاء القصصي المموارب ، خطوة تحاذر الاقتراب من الفانتازيا ؟

■■على العكس فالبساطة في اللغة وعدم التعقيد هي خطوة باتجاه الاقتراب من المتخيل والفانتازيا ! هل كان كافكا معقداً ؟ وما يكتبه ماركيز هل له علاقة بالانشاء ؟ أنا لا أعمد الى تخييل اللغة ، انما الى تخييل الصورة القصصية . حريص على القص ، الامتاع ، على التوغل في البسيط ، اليومي ، فالأدب هو متعة ومعرفة . لا يهمني «الانشاء الرفيع» الذي يُسمى عندنا جهلاً «اللغة» واذا كنت حذراً قبل سنين ، وعند بداياتي في الكتابة ، فانني أمارسه الآن بقناعة ، لاسيما بعد اطلاعي على الأدب بلغته الأصلية ، اذ أجيد وبطلاقة الألمانية والاسبانية . تلك مفارقة كبيرة . اذ ان كاتباً شعبياً كماركيز نُقل الينا بلغة مفخّمة ليست لها علاقة بأدبه لسبب بسيط : ان المترجمين عندنا تعلموا اللغة على مقاعد الجامعة ، وليس في البارات ، المقاهي والشوارع . كيف تعرف ان « خريف البطريرك » هي تجميع لأغاني البحارة وسوّاق التاكسي عند سواحل الكاريبي في كولومبيا والتي لا يفهمها الكولومبي ذاته بسهولة ؟ باختصار يمكن تشبيه اللغة الأدبية عندنا بسيارة (الروز رايز) الأنيقة التي تتجنب كل ما هو قذر ، أما لغتي فهي كسيارة « نيرن » أو « جيب » تذهب حيث العكر والطسّات والمياه القذرة . انها بسيطة بساطة الحياة ومعقدة مثلها .

■ تبدو المصادفات أحياناً في بعض قصصك وفي روايتك «الحرب في حي الطرب» ناتئة ، ومركّبة ، الا تلاحظ معي ان ذلك يضعف السرد ويخلخل حاسة الاقناع لدى القارئ ، كيف تفسر ذلك ؟

■■ سأقص عليك بعض الحكايات :

١ ـ أحدهم يحاول الخروج من العراق بأي صورة وبعد حصوله على تأشيرة الخروج واستعداده للسفر ، تُستدعى مواليده لأداء الخدمة العسكرية / الاحتياط في ليلة سفره .

٢ ـ رغم ذلك يخرج ، وعلى الحدود يرى الجندي نفسه الذي كان يراقبه في الكتيبة ، ولكن بملابس مدنية ، وكرجل استخبارات على الحدود .

٣ ـ احدهم يركب المترو في لندن يوم وصوله هناك ، وفي محطة ما يقطع رحلته ويقرر الخروج لشراء ساندويتش وعند الشارع يلتقي وجهاً لوجه بصديق لم يره منذ ١٦ سنة .

٤ ـ أحدهم يقف عند الحاسبة في (السوبر ماركت) في مدريد ، يريد ان يدفع وفجأة تناديه امرأة خلفه ، ينظر اليها فاذا هي صديقته السابقة التي انفصل عنها في المانيا قبل سنة ولم يرها منذ ذلك الحين .

٥ ـ الشخص نفسه بعد سنين في مدريد يزوره أحد الأصدقاء الشعراء فيأخذه الى بارات المدينة وفي أول مقهى يدخلانه يرى صديقته الألمانية أيضاً ، والتي كان انفصل عنها .

هل تعرف من هو هذا الشخص ؟ لا حاجة لذكر اسمه ، ولكن لو كتبت كل ذلك في الأدب لدخل أيضاً في باب المصادفة والابتذال ، طبعاً أعرف المصادفات في الأفلام الهندية والمصرية والهوليودية والمكسيكية ! ولكن لا تضحك اذا ما قلت لك ان حياتنا كفلم هندي ولكن من غير غناء ، بعض الأحيان لانك ربما ستصادف قاتلك . مرة وأنا أصعد الباص الرقم ٤ في شارع الرشيد ، في بغداد ، رأيت جلادي الذي كان يعذبني في سجن الاستخبارات في وزارة الدفاع ، يقوم بلطف ليعطي مكانه لامرأة عجوز مخاطباً اياها «تفضلي أمي» فنزلت من الباص غاضباً . قد تقول لي : هذا ما يمكن ان يصوره الأدب ، ولكني رغم ذلك لم أستطع كتابة هذا المشهد ، أو مشهد تعذيبي .

■ نهايات قصصك مفتوحة غالباً على عدة احتمالات ، أتخاف من شرك نهايات الأبطال القصصيين ؟ وهل معنى ذلك ان الاختيار في الحياة ، ليس بالضرورة خياراً قدرياً في القصة ،والعكس ؟

■■ منذ ان بدأت القراءة وأنا أنبهر بالنهايات المفتوحة . ألا تتذكر شهرزاد ؟ كنت عندما أغلق الكتاب ، كانت نهاية القصة تصاحبني ، حينها أبدأ بنسيج قصة جديدة . يقيناً ظل هذا الهاجس يصاحبني حتى في كتاباتي ، يهمني جداً ترك فسحة للقارئ . والا ما معنى ان نقرأ ؟ القارئ له الحرية لان يُشكّل ما يريد . وبالتالي للنهايات المفتوحة اغراؤها مثل الشبابيك التي تنسحب ستائرها فجأة بعد تعرّي رجل وامرأة خلفها . ألا تتذكر متى كانت تتصاعد انفعالات بطل « الجحيم » لباربوس عندما تمتنع عليه الرؤية بعد دخوله الحدث . طبعاً ان النهاية كفضاء مفتوح هي بالتالي محاولة لطرح سؤال الحرية ضد خيارات يراد لها ان تكون قدرية ، وأعتقد انك قرأت مقالتي التي كنت أتحدث فيها عن شرك الرواية والذي أرجعه الى اللاهوت : ايكاروس محطم الجناحين ، اوديب أعمى ، كليوباترا تتسلم سم الأفعى ، موسى لا يدخل الأرض الموعودة ، المسيح مصلوب على الصليب . ليس هناك عفو عن المجازف والمغامر . انني أسمي هذا بالشرك وأحاول مقاومته . وأكون سعيداً اذا ما نجحت . ولكن الأمر ليس سهلاً دائماً ، فالحياة تقلّد اللاهوت أيضاً .

نجم والي في سطور

- ولد في جنوب العراق / ١٩٥٦ .
- غادر العراق / ١٩٨٠ ويقيم في هامبورغ منذ ذلك التاريخ .
- صدرت له باللغة الألمانية روايته « الحرب في حي الطرب » ١٩٨٩ ، ثم صدرت بالعربية عن دار صحارى / بودابست .
- ستصدر له بالقاهرة روايته « الطريق الى كميت » ، ومجموعته القصصية « صهيل بشري » .
- كما صدرت له مجموعة قصصية بالألمانية بعنوان « هنا في تلك المدينة البعيدة » ، ١٩٨٩ .

دراسة

التحليل النفسي والأدب والفن

مازن يوسف

شهدت بدايات هذا القرن ازدهاراً عظيماً للتحليل النفسي وذلك في أعقاب نشر فرويد مؤلفاته ، منها « ثلاث رسائل في نظرية الجنس » و « معالم التحليل النفسي » و « خمس حالات من التحليل النفسي » وغيرها من الكتب والدراسات الكبيرة لاسيما كتابه المهم « تفسير الأحلام » .

ان مجمل الجهود العظيمة التي بذلها فرويد وآخرون أمثال يونغ ، ادلر وغيرهم أتاح للتحليل النفسي ان يتحول الى علم قائم بحد ذاته . وقد جاءت النتائج التي قدمها هذا العلم بمثابة كشوف كبرى في ميادين الحياة المختلفة ، لاسيما في الفن والأدب تحديداً .

لقد تأثر بهذه المفاهيم عدد كبير من الفنانين والأدباء والكتاب والنقاد . فعلم النفس بوصفه الدراسة العلمية للسلوك عُني بدراسة الانسان وما يترشح عنه من أنماط سلوكية مختلفة . والأدب ، في جانب منه ، انما هو صورة للسلوك . فشخصيات العمل الأدبي ، سواء كانت قصة ، رواية ، مسرحية ، شعر . . والخ ، هي شخصيات يتميز كل منها ببناء نفسي سلوكي يختلف باختلاف الظروف والعوامل التي يتشكل بموجبها هذا العمل ، كما تختلف باختلاف المواقف والأحداث عبر رؤيتها للكون والحياة . وسواء كانت هذه الشخصيات منقولة عن الواقع بطريقة المحاكاة ، أو كانت مبتكرة داخل العمل الأدبي ، فانها في كل هذا وذاك تشكل صدى الواقع والنموذج الانساني في أي زمان ومكان .

واذا كان علم النفس يعنى بالسلوك في جانبه الواعي فان التحليل النفسي يركز بشكل أساسي على الجانب الآخر وهو اللاشعور أو اللاوعي . لرصد حالة اللاشعور ودراستها وتحليلها استعان التحليل النفسي بمنهج التداعي الحر لمعرفة الأسباب وتشخيص الحالة . والطرق الأساسية في التحليل النفسي هي : التداعي الحر ، تحليل الأحلام ، العصاب(١) ، التفسير واعادة التعلم ، بالرجوع لمرحلة الطفولة وحل مشكلاتها الانفعالية بنقل المادة اللاشعورية (المكبوتة) الى مستوى الوعي لتنكشف أمام الشخص ، ويقوم المحلل النفساني بتفسيرها على أساس علاقتها بأعراض الحالة ومفهوم الشخص عن ذاته وعلاقاته بمجمل ما يحيطه .

والتحليل النفسي لم يعنَ بالتركيبات النفسية والظواهر المرضية الفردية فقط ، بل انه منهج حاول من خلال مؤسسه الكبير فرويد استغراق معظم الظواهر الانسانية والاجتماعية ، وترك آثاره في مجال الأدب والنقد الأدبي والفن وعلم الاجتماع وبعض الظواهر الانثروبولوجية المتعلقة بالحضارة الانسانية .

على أن أشد التأثيرات لذلك الفكر بروزاً كانت في مجال الأدب . وتجسد ذلك بظهور المذهب السوريالي الذي اعتمد الفكر الفرويدي ـ اللاشعور في عملية الخلق الأدبي . كما ظهر تأثيره في الرسم (التعبيرية والتكعيبية) ، وقد وجد السورياليون على اختلاف اتجاهاتهم في اللاشعور اكتشافاً عظيماً لأعماق النفس البشرية يقودهم الى اكتشاف معاني الكلمات ، المفردات ، وطاقتها المتميزة بشحنتها المتعددة المستويات في ميدان الشعر ، ويرى فرويد ان الصراع هو أساس الابداع الفني ، والفن (بكل أنواعه) هو شكل تحرير للطاقة الغريزية المكبوتة (لاشعورياً) عن طريق الرمز .

بيد اننا نسأل : كيف يمكن ان يحدث ذلك التحرر ؟ وهل بامكان أي فرد أن يطلق العنان لغريزته فيحررها عن طريق الفن ؟

يجيب فرويد ان ذلك مرتبط بالقدرة على التسامي ـ الاعلاء(٢) وهذه القدرة ليست متاحة للجميع بل لذوي التكوين النفسي الخاص الذي يمكنهم من الاتيان بمثل هذا الفعل .

فالتسامي هو عملية تحويل الدافع الجنسي عن هدفه المباشر نحو أهداف أكثر سمواً وملاءمة للقيم والمثل العليا للمجتمع بتجريدها من شحنتها المحسوسة . ولذا يقول فرويد : (ان الموهبة الفنية والاستعداد للخلق متصلان اتصالاً صميمياً

بالتسامي) . وفي معرض دراسته لشخصية دافنشي يقول فرويد لو ان شخصاً غير دافنشي قد تعرض لنفس المؤثرات فانه قد لا ينجح في سحب القسم الأكبر من الطاقة الحيوية والجنسية (الليبدو) من أهدافها الأصلية الى المعرفة ومن الممكن ان يعاني ايذاء مستمراً لعمله العقلي أو أن يقع فريسة للعصاب القهري .

وانطلاقاً من هذا الادراك للدينامية النفسية يتيح لنا فرويد ان نلحظ الترابط القوي بين الفن والعصاب ، انه ترابط وظيفي وحسب ، اذ ليس هناك ما يشير الى وضع الفن والعصاب في اتجاه واحد .

ان عبقرية فرويد أتاحت له الفهم العميق لواقع الحضارة الحديثة بما تحويه من متناقضات مختلفة يضطر معها البعض الى الانسحاب ، فالشعور بالشقاء يدفع للبحث عن مخرج للخلاص من الأزمة التي يعيشها الانسان ، مما دفع فرويد للاعتقاد بحقيقة ارتباط الفن بالعصاب .

ولفهم النمط السلوكي المتأسس على هذا الانسحاب (السلوكي) للذات ينبغي علينا فهم مكونات الشخصية (مفرداتها) التي تتحدد من خلال تلك الأنماط ، وهكذا فان الصراع يدفع بعض الأفراد الى الفن ليخلق منهم شعراء أو كتاباً أو فنانين ، في ذات الوقت الذي يندفع فيه آخرون بحثاً عن أشكال من اللذة الحسية ، وهكذا تتجه كل شخصية باتجاه سلوكي يتناغم مع سماتها وقيمها ومثلها العليا كاستجابات نفسية ازاء المثيرات المتعددة ، ويقوم الصراع باذكاء تلك الاستجابات .

ان المحاور الأساسية التي تلتقي عندها هذه الأنماط السلوكية هي المعاناة والأزمة والتناقض الحاد الذي تنطوي عليه وما يترشح من حالات الكبت(٣) والاحباط الأمر الذي يصعد حالة التوتر الى الحد الأقصى مما يوجب تحرير الطاقة كحاجة ملحة ، وبخلافه يكون الطريق سالكاً نحو العصاب .

وبذلك يتضح أثر الشخصية في تفادي الصراع وتحويله باعتماد بدائل أرقى للاسقاطات النفسية . فيكون التسامي أفضل ميكانزم تتخذه «الأنا» لتخفيف حدة الصراع . فالعملية ، والحالة هذه ، بحسب فرويد ، تكون شكلاً من أشكال السلوك النكوصي(٤) فالتناقض بين المبدع (الأديب ، الفنان) والواقع يقوم على العمق والشدة بقدر التزام المبدع بقيمه ومثله العليا ، وبالتالي فان تجاوز ذلك الواقع أو تغيره يتم من خلال الانتاج (الأدبي ـ الفني) وهكذا يلجأ المبدع الى حل تلك التناقضات للوصول الى أفضل حالة ممكنة من الاستقرار النفسي .

ان الكبت هو السبب الكامن وراء عملية التسامي التي تجد فيها« الأنا » امكانية تجاوز تقاطعات الاندفاعات الايروسية(٥) (الغرائز الجنسية) مع الواقع .

فبقدر ما استطاع الانسان تحقيق كبح الدوافع الغريزية البدائية استطاع أن يحقق معطى حضارياً راقياً .

فلغرض تحقيق حالة الابداع لابد من التضحية بـ « مبدأ اللذة » . وهذا ما أدركه الرهبان ، المتصوفون ، البوذيون فيما يخص ازدواجية الحياة الانسانية المتركبة من نقيضين « الجسد والروح » حيث يكون عمل الواحد على حساب الآخر .

هكذا اذن تكون العلاقة العضوية بين تلبية الحاجات الغريزية والابداع في الأدب والفن علاقة عكسية مطردة .

أما العالم النفساني يونغ Young فينطلق من فكرة اللاشعور الجمعي الذي يمثل الموروث المتعلق بالصورة والرموز والأخيلة البدائية التي يرثها الانسان عن أسلافه ليلعب دوراً مهماً في العصاب والأحلام والأدب والفن والسلوك برمته . ويرى ان الابداع في الفن يتأتى من « النفس العليا » التي تنطوي على كل ما هو رفيع في الحياة الانسانية ، ويرى ان هذا الجانب منفصل تماماً عن الجانب الآخر « النفس الدنيا » ويؤكد يونغ أيضاً على الذاكرة الجمعية وما تلعبه من دور في عملية نقل المخزونات وتحويها وتطويرها .

أما ادلر فيؤكد على القصور العضوي أي الشعور بالنقص (عاهة) . وهكذا يكون الابداع عند ادلر بمثابة القدرة على تجاوز الذات لتحقيق حالة التفوق ، كما حصل مع عدد من الأدباء والفنانين الذين يعانون من اخفاق في قدرة جسدية معينة . ويقوم التحليل النفسي بدراسة المبدع بوصفه نموذجاً من خلال دراسة آثاره ، كذلك دراسة عملية الابداع من وجهة نظر نفسية وذلك باخضاع عملية الخلق للتحليل النفسي . ان من شأن البحث النفسي أن يفسر لنا طريقة الفني وان يكشف لنا العوامل التي تجعل من الانسان فناناً مبدعاً . كما يقوم النفساني بالبحث في الأنماط والقوانين التي تتوفر عليها الأعمال الأدبية ليتخذ منها شواهد على أحكامه الكلية .

ويقوم علم النفس أيضاً بتحليل تأثير الأدب في الناس/ القراء ، ويقاس تأثير أفكار كتاب معين بمدى شهرته وانتشاره بين القراء .

وهناك دراسات نفسية كثيرة للأدب مثل دراسات لعلم الأمراض العقلية قام بها علماء الطباع والسلوك ودراسات التحليل النفسي للأدب . ولعل هذا النوع من

الدراسات كان ذا جدوى وأهمية واضحة للأدب لاسيما الدراسات التي استلهمت أفكار فرويد ، يونغ ، ادلر في الانتاج الأدبي الذي يتعاطى المفاهيم أو الحالات النفسية .

إن الأدب والتحليل النفسي منهجان متوازيان وليسا متداخلين ومن يعمل على الربط أو الملاقحة بينهما بمقدوره أن يحقق نجاحاً كبيراً . ومن نافلة القول ان الأدباء قد ولجوا ميدان النفس البشرية دون اعتماد وسائل البحث العلمي . فقد عرفوا الشعور واللاشعور وبعض الحالات المرضية التي تنتاب النفس البشرية كالقلق ، الفصام ـ الهستيريا . . الخ فبرعوا في صياغة أعمالهم الأدبية . ولنا في ديوستوفسكي وكافكا وسارتر وغيرهم مثلاً طيباً . فقد عُدّ ديوستوفسكي من الأدباء البارعين في مجال التحليل النفسي .



الهوامش :

١ـ العصاب Neurosis
اضطراب انفعالي بسبب صراع داخلي وتصدع في العلاقات الشخصية ، أهم سماته القلق . وينشأ القلق العصابي من الشعور بعدم الأمن الناتج من المواقف البيئية الضاغطة .

٢ـ الاعلاء أو التسامي SUBLIMATION : حيلة دفاعية تفرغ بها الطاقات الغريزية في أشكال سلوكية غير غريزية . وتشتمل العمليةعلى نقل الطاقة من النشاطات والموضوعات الأولية الى الموضوعات الأقل غريزية وتحويل نوعية الانفعالات المصاحبة للنشاط بحيث تفرغ مضمونها الجنسي ومضمونها العدواني . وتشتمل بعض التعريفات على عنصر اجتماعي اي ان يكون التسامي الحقيقي مقبولاً اجتماعياً . ويعتبر حب المعرفة نوعاً من التسامي بولع النظر والتطلع SCOPOHILIA حيث انه حب استطلاع ولكنه موجه نحو موضوعات غير جنسية ولذته غير جنسية . ومفهوم الاعلاء أو التسامي يقدم لنا تفسيراً للارتقاء من « الوظائف الدنيا » الى الوظائف العليا . والتسامي عند أصحاب حب الاستطلاع الفكري يجيء بعد كبت حب الاستطلاع الجنسي في فترة الطفولة . وكل أنواع التسامي تتوقف على الترميز SYMBOLIZATION ويتوقف تطور الأنا على التسامي ، والغرائز التي يمكن ان تتسامى هي غرائز مندرجة قبل تناسلية أكثر منها غرائز

جنسية راشدة . وتدرج أنا فرويد التسامي كدفاع (لكنه دفاع السوي وليس العصابي) بحجة انه يقدم حلاً تقدمياً للصراعات الطفلية التي كان من الممكن لولا التسامي ان تؤدي الى الاصابة بالعصاب .

٣ـ الكبت Repression

حيلة دفاعية لاشعورية ، يدفع بها الدافع غير المقبول الى اللاشعور وميز فرويد بين الكبت الأولي primary repression وبه يمنع الظهور البدني للدافع الغريزي والكبت الثانوي secondary repression وبه تستبقى مشتقات وشواهد الدافع المقنعة لاشعورية .

٤ ـ النكوص Regression :

الارتداد الى مرحلة باكرة أو نمط باكر وهو حيلة دفاعية يتجنب بها الفرد القلق (الجزئي أو الكلي) بالعودة الى مرحلة باكرة من مراحل التطور اللبيدي والأنوي . ومن ثم فان النكوص تتبعه اجراءات دفاعية أخرى هدفها حماية الأنا من آثار هذا القلق .

٥ ـ إيروس أو غرائز الحياة Erose' Life instincts

ايروس اله الحب عند الاغريق ، وطفل افروديت من زيوس وآريس هرمز ، ويصور في شكل طفل مجنح ، وكان الاغريق يرونه رمز القوة المبدعة في حياة البشر وباني المدن وموثق الصداقات . . الخ . واعتبره الاغريق القدامى اله الرغبة الجنسية ولذلك وصفوه بالقسوة والصلف والاعتداد . وتصوره الرومان طفلاً مجنحاً يحمل سهام الرغبة الجنسية يصوبها أنى شاء وأطلقوا عليه اسم كيوبيد . واستخدم فرويد اسم ايروس ليرمز الى قوة الحياة والغرائز الجنسية .

كما استخدم اسم ثاناتوس اله الموت ليرمز الى غريزة الموت كمقابل لغريزة الحياة . واستخدام فرويد للاسم استخدام مجازي شعري يستمد أصالته من ان ايروس أو كيوبيد كان يحب بسيشه Psyche الفاتنة حباً والهاً . واسم بسيشه في أحد معانيه ، يعني الروح أو العقل أو النفس الأمر الذي يجعل المجاز كاملاً ، والصورة الشعرية رائعة ، والمعنى السيكولوجي واضحاً . وكان دور ايروس في حكومة الالهة ، تنظيم عناصر الكون وهو الذي كان يحل التناسق محل الفوضى ، وكان دائماً يزهر الحياة ويبعث فيها التناغم والخلق .

مصدر التعاريف : د . عبد المنعم الحنفي : موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٧ .

طقوس

رمضان والعيد في البصرة خمسينات القرن العشرين

مهدي محمد علي

لا أكاد أتذكر «رمضان» حتى أتذكر حرّ الصيف نهاراً (برودة السلالم العتيقة... والغرف نصف المظلمة والسراديب البعيدة، والنعاس اللذيذ الذي يداهمنا، ونحن على مقاعد الدراسة)... مثلما أتذكر عذوبة السهر ليلاً، فعلى الرغم من أن شهر رمضان «القمري» يتراجع كل عام أحد عشر يوماً، فيصادف الشتاء في بعض السنين، فإنني لا أتذكر رمضان «الشتوي». ولقد دهشتُ حقاً حين تكشّف لي معناه الموافق لذاكرتي وانطباعي، إذ أنه مشتق من (الرمضاء) التي تعني ذروة القيظ في الظهيرة... غير أنني دهشت «أكثر» حين قرأت في «مختار الصحاح» قول الرازي: «... إنهم لمّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رَمَضِ الحرّ فسمي بذلك» ـ أي (رمضان)!

إن هذا التفسير يسعدني رغم غرابته، لأن رمضان شهر «قمري» ولا يتوافق مع تبدّل فصول السنة التي تتبع تحولات الشمس في أبراجها، ولا تنقّلات القمر في منازله!

ربما لا أتذكر أي رمضان «شتوي»، لأنه ـ وبلا شك ـ لا يحفل بالألعاب في الشوارع ليلاً، أو النوم على السطوح!

* فصل من كتاب «البصرة . . جنة البستان» .

تأتي تباشير رمضان بـ(الكِرگيعان) الذي يصادف منتصف (شعبان) ، حين يدور الأطفال ، وبعض من النساء المنذورات ، أو الناذرات لاستجداء (الكرگيعان) الذي هو « خلطة عجيبة من السكريات والموالح » .

... نبدأ بالطواف في الأزقة والدروب بُعيد الإفطار ، كلّ منا يحمل كيساً من القماش معلّقاً في عنقه يجمع فيه ما يحصل عليه من (كرگيعان) البيوت التي نهزج أمام أبوابها :

گرگيعان... وگرگيعانْ

كلّ السنة... والليعانْ!

انطونا... الله ينطيكمْ

بيتْ مكّه... يودّيكمْ

يا مكة المعمورة

بيها الذهب والنّورة

گْريگْشون... گريگشونْ

الله يخلّي الزّغَيْرونْ

... وهنا ينفرد « الرّيِّسْ » بالقول ، ويردد الباقون بعده « آمين » :

الله يخلّي راعي البيت... آمين

الله يخلّي أم البيت... آمين

الله يكثّر نعمتكم... آمين

وحين لا ينفتح الباب ، ولا نسمع صوتاً يستبقينا ، نطلق التنبيه الأخير :

يا أهل السطوحْ!

تنطونا ، لو نروحْ ؟!

فإن لم يعجّلوا بالجواب وفتح الباب ، أو صاحوا جزعين : « روحوا »! فإن الدعاء لهم ينقلب دعاءً عليهم :

خزى الواوي بْعَتبَتكمْ... آمين

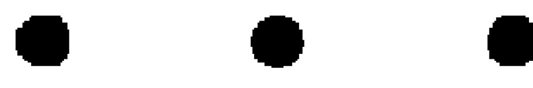
الله يطيّر بْركتكمْ... آمين

حين ينفتحُ الباب مواربا ، وأم البيت تحمل بيدها إناء الكرگيعان ، تمتد إليها غابة من الأيدي ، كل يد تسعى لأخذ حصتها . وأحياناً لا توفّق أم البيت في تقديم ذلك دون مشاكل ، فتنسحب إلى الداخل ، فنلحق بها صارخين : خالة نطيني... خالة...

خالة! وبعضنا يقول : أنا «الرّيْسْ» أي الرئيس الذي يأخذ جميع الحصص ، ثم يوزعها بالتساوي ، وقد يهرب بها إذا كانت مغرية!

وثمة طائفة من شُقاة الصبيان لا يُتعبون أنفسهم بالطواف ، مثل الناس ، لجمع الكركيعان ، بل يلجأون إلى القرصنة... إنهم يحملون شفرات حادة ، يشقون بها الأكياس ، فتندلق محتوياتها في أحضانهم .

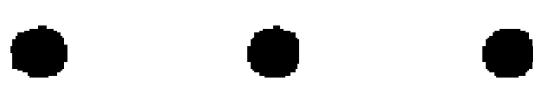
إن هذا الكرنفال يكون أكثر بهجة ومرحاً حين يعاد متألقاً في منتصف رمضان نفسه... يأتي وقد غمرنا الشهر بخيراته من المأكولات والألعاب الليلية : (الرّوّة) والـ(ولّي جاكْ) و(المحيبس) وما إليها .



للإفطار في رمضان أكلات خاصة ، بعضها لا يقدّم في غيره من الشهور ، مثل : الهريسة (أو الهريس) وهي حساء القمح المهروس مع اللحم ، والذي يوضع عليه ، وهو في الأطباق ، السمن المغلي يُرشّ عليه مسحوق (الدّارْسين ـ القرفة) مع السكر... وهناك (المحلّبي) وحلاوة (العَنكوچ بيچ)... أما (الباچة) فتلك أكلة لها نكهة وتقاليد رمضانية خاصة : نكهة الثوم ، وأذن الخروف ، وثريدها لا يطيب إلا مع الخلّ المنزلي المعبّأ بالثوم المبروش!

أمي المسكونة بالتقاليد ، مثل لداتها ، كانت تقول : «إن الباچة...» ـ وهي لا تلفظ هذا الاسم إلا في النهار ، أما في الليل فيكفون عن ذكر اسمها بـ«أمّ عليوي»... وحرام عندهم و«مو زين» أن ينطقوا اسم (الباچة) ليلاً!

إن الباچة ـ تقول أمي ـ لا يجوز أن تعمل خلال (شهر الله) ـ كما يحلو لأمي أن تسمي رمضان ـ إلا مرة واحدة ، أو ثلاث مرات ، أو سبعاً ، ولذا فإن أمي لا تخاطر بطبخها مرة رابعة ـ مثلاً ـ والعيد بعد ثلاثة أيام... لأنها ستكون مجبرة على إكمال المرات السبع قبل حلول العيد!!



قبل موعد الإفطار بثلاث ساعات تنهمك الأم في المطبخ لتطرق الهريسة : القدر كبيرة ، أمي تحتضن القدر ، وتمسك بالمطرقة الخشب تهرس بها حبات القمح المسلوقة مع قطع اللحم هرساً كاملاً... فأحسن أنواع الهريسة تلك التي لا تصادف فيها

حبة قمح غير مهروسة ، أو هدبة لحم مهما صغرت... بل ينبغي أن يُهرس كل شيء هرساً متقناً!

إنهم يشتغلون في إعداد طعام الإفطار منذ الصباح حتى ساعة الغروب وآذان الإفطار وصوت المدفع الذي يلعلع في أرجاء المدينة كلها ، فثمة أكثر من مدفع على تخوم البصرة ، تطلق أصواتها مع اتجاهات الرياح نحو المدينة!

إن بهجة الإفطار في البيت ، تسبقها نكهة غامضة من الانتظار والسكون الذي يصبح ضجيجاً داخلياً مكتوماً في الشوارع والبيوت... فالأزقة تشهد عودة الرجال في وقت وشيك لموعد الافطار ، يحملون باقات (الفجل) وأكياس (الزلابية والبقلاوة)... أو (شربت الزبيب) ، منهكين من عمل اليوم والصيام ، ولكنهم يبدون كما لو كانوا منتشين بما يحملون ، وما ينتظرون من أطايب الأكلات الرمضانية ، مسرعين رغم بطء الايقاع في المشي ، منتشين رغم لهاث الأنفاس!

وتقفر الدروب ساعة الافطار ، وتسودها السكينة التي تشهد ضجة الصحون والملاعق وأصوات الارتشاف في أعماق البيوت... سكينة الدروب تلك ، لا يشهدها سوانا ـ نحن الصغار ـ حين نُكلّف باصطحاب من هم في سن الرضاع إلى الشارع ، كي نمنح الأهل فرصة لافطار هنيء! (ولكننا قبل ذلك ، غالباً ما كنا نمضي إلى مشاهدة مؤذن « جامع فقير » كيف يبدأ الآذان ، ثم يرفع جرة الماء ليشرب منها ، ثم يتابع الآذان!) .

وتكون مائدة الافطار المنوعة جاهزة قبل الموعد ببضع دقائق ، ونحبس الأنفاس انتظاراً للأذان وصوت المدفع... وحين تضجّ أصوات الأطفال بعد صوت المدفع ، يرتفع صوت الأذان من أماكن متعددة... وتمتد الأيدي حائرة بين صنوف الطعام المختلفة ، وتتكرر وصية الأم ـ كل يوم ـ للصائمين بألا يكثروا من الطعام كي لا تتأذى البطون... ويتكرر القول بأن خير ما ينبغي أن يفتح به « الريق » هو تمرتان وقليل من ماء اللحم ، ثم القليل القليل من كل صنف ، فبعد ساعتين يمكن تناول وجبة خفيفة في طقس يدعى « التّعتومة » بين الإفطار والسحور .

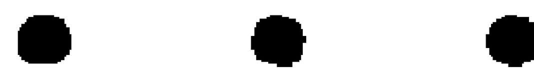
ثمة خارج البيت أكلات من الحلويات تزخر بها المدينة هي الزلابية والبقلاوة... وما إليهما... تزهو بها محلاتها في هذه الليالي على نحو استثنائي وبأنوار ساطعة إضافية ، لجلب الانتباه وإضفاء البهجة .

... الألعاب الشعبية كثيرة في ليالي رمضان ، ومعتنى بها أكثر من ألعاب الأيام الاعتيادية... أشهرها لعبة (المحيبس) التي تستوجب مجلساً لفريقين متقابلين : يخفي

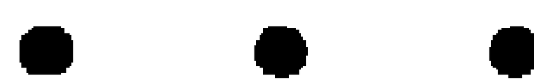
أحد الفريقين (المحبس ـ الخاتم) في يد واحد من الفريق ، وعلى الفريق الآخر أن يرشح واحداً للعثور على المحبس في أيدي الفريق الخصم... إن قوة الشخصية والحالات النفسية للاعبين لها دور كبير في هذه اللعبة التي تعتمد اعتماداً أساسياً على الفراسة والذكاء... أما لعبة (الرّوّة) فهي على ساحة واسعة ، تُخطط قبيل دخول رمضان ببضعة أيام بواسطة النفط الأسود... مستطيل كبير على عرض الشارع في المحلة ، يشبه مضمار الكرة الطائرة ، ولكن بدون شبكة ، يُقسم قسمين متساويين ، لكل فريق قسم... يبدأ اللعب بدخول لاعب إلى مجال الفريق الآخر ليلمس أحد لاعبيه ويعود إلى حيز فريقه دون أن يمسكوا به ، ودون أن ينقطع نَفَسه بالصوت الذي يطلقه : « طوط... طوط... » وغالباً ما يتجمع عليه كل الفريق ، ولكنه لا يُعتبر خاسراً مادام صوته مستمراً بنَفَس واحد ، فإذا انقطع وهو في حيّز الفريق الخصم فإنه يعتبر خاسراً ، ويستعد فريقه لهجمة مماثلة .

عند مرور سيارة ، أو مجموعة من الناس ينبغي توقف اللعب ، إذ يصيح أحد اللاعبين : « شيگا ـ بيگا » وهو مصطلح يعني : ليتوقف اللعب!... هذا التوقف يأتي أحياناً إنقاذاً لمن حصره الخصم وشدد عليه القبضة!

كل المحلات والدروب تزخر بهذه الألعاب حتى منتصف الليل .



كل يوم نلح على الأهل أن يوقظونا وقت (السحور) ، ولكنهم يعانون كل مرة في إيقاظنا... وحين نفيق صباحاً ، فنتذكر أننا لم نتسحّر ، نقلب البيت رأساً على عقب ، فيحاولون إقناعنا بأننا لم نستيقظ رغم كل المحاولات ، وحين نفيق ، عند السحور ، مثقلين بالنعاس ، فإننا نحس بنكهة النوم والأحلام والكوابيس في الرز وشوربة العدس اللذين يقدّمان باردين نعسانين أيضاً!



... ويأتي العيد!

عيدان خلال شهرين وبضعة أيام... عيد الفطر وعيد الأضحى ، يليهما شهران للحداد ، هما المحرّم (عاشوراء) وصفر ، (وقد جئتُ إلى الدنيا ، كما تخبرني أمي ، في اليوم الأول من عيد الأضحى لعام ١٩٤٥ ـ أو ١٩٤٦)!

تبدأ التحضيرات للعيد قبل قدومه بأيام... شراء الملابس الجديدة ، وما إليها... غير أن السرور الذي لا يدانيه سرور ، هو سرورنا بالحذاء الجديد ، فمهما يوفر لنا الأهل من مستلزمات العيد ، تظل ناقصة نقصاً مقلقاً ، مادام الحذاء الجديد لم يحضر!

... إننا لا نستطيع النوم ، ليلة العيد ، إلا والحذاء الجديد تحت المخدة ، فنغيب في النوم ، ونحن نحلم بجدته ولمعانه ، فلطالما سرنا حفاة مع أهلنا في الشوارع والأسواق ، ونحن نتقافز من لسع أعقاب السجائر غير المطفأة... ننام حالمين بالحذاء دون سواه من ملابس العيد وهداياه... نلمسه اللمسات الأخيرة ، وربما لثمناه ، فهو نظيف وجديد ولامع ، ثم نضعه تحت المخدة ، استعداداً لنقش «الحنة» على راحات أكفنا وأقدامنا ، إذ بعدها لا يمكن لمس أي شيء ، كي لا يتشوّه النقش ولا يتسخ ما نلمسه ، فنسكن على هذه الحال بانتظار أن يُغسل في الصباح ، فيبدو لونه ثابتاً على الكفين والقدمين (تُشدّ أكفنا وأقدامنا ببعض الخرق ، وننام ساكنين حتى صباح العيد)... إذ نفيق مبكرين ، رغم سهرنا ، ليلة العيد ، فترتيبات العيد لا تدعنا ننام : حلاقة العيد... حمّام العيد... وشطف الحوش وتنظيف كل شيء .

نصطف عند الحلاق منتظرين دورنا لارتقاء الكرسي ، إذ يضع (الحلاق) خشبة على مسندي الكرسي ، كي تكون رؤوسنا الصغيرة في متناول يده... وتروح يداه بالمقص والمشط قصاً وتمشيطاً... وثمة تكتكة لا تكفّ مادام المقص غير ماضٍ في تلافيف الشعر ، ونخاف من حركته قرب الأذنين ، أو على الرقبة ، فنحن لا نستطيع حتى مراقبة ذلك من خلال المرآة الأمامية بواسطة المرآة الخلفية التي لم تكن قد ظهرت بعد ، باعتبارها من مستلزمات صالون الحلاقة الحديث... ونظل طوال وجودنا في دكان الحلاق ـ منتظرين كنا أم جالسين على الخشبة بين يديه ، ونحن ملفوفون بالقماش الأبيض ـ نظل نتحسس «الدرهم» الذي في جيبنا ، خوف أن يضيع ، فكيف نصنع مع الحلاق ؟!

كل شيء جديد ، حتى أجسامنا نحسّها جديدة ، فحمام العيد يختلف عن أي حمام اعتيادي ، والأم تستغرق وقتاً طويلاً لتنظيفنا بدقة وإلحاح غير اعتياديين .

يتجهّز كل بيت بمستلزمات العيد : (الچكليت والچرزات) وماء الورد الذي يوضع في (المرشّ) وهو الابريق البرونزي أو الفضي المنقوش ، فضيف العيد يتلقى ـ بعد تبادل التهاني ـ بضعَ رشات من الطيب ، ثم يقدَّم له الحلاء والشراب ، ثم

الموالح... كنا نرتبك عند تلقينا رذاذ الطيب خوف أن تبتل ملابسنا الجديدة ، ولا نصدق أنه يتبخر بعد دقائق قليلة... لقد صرنا نتعلم من الكبار كيف نتلقاه بالأكف ، كي نتصرف به حسب مشيئتنا ، نبلل الكفين ، ثم نمسح على وجهنا وشعر الرأس .

وتشهد ليلة العيد كرنفالاً في تنظيف البيوت ، كل الأبواب مشرعة ، والمكانس الخوصية توشوش بالماء على الأرضيات المبلطة بالطابوق (الفَرْشي) ، وتحتشد (الدرابين) باشعاعات البيوت : ماء وأنوار تقطعها ، بين الحين والآخر ، أسراب النساء والفتيات والبنات الصغيرات ، بالعباءات أو بدونها ، يحملن على رؤوسهن صواني (الكليچة) ذاهبات بها إلى الأفران أو عائدات بها من هناك... أصوات وأصوات... أصوات المكانس بالماء على الطابوق... أصوات الصواني والقدور... والنداءات المختلفة... والأغاني .

... نفيق في الصباح الباكر ، والنعاس مازال يأخذ بعيوننا ، فنمضي ـ مستعجلين متعثرين ـ إلى الاغتسال ، من أجل ارتداء الملابس الجديدة ، فينبهنا الكبار إلى ضرورة تأجيل الارتداء إلى ما بعد تناول الفطور ، فنعلن تنازلنا عنه ، ولكنهم يلحّون علينا بذلك (لأن الأم لا تسمح ، في الأيام العادية ـ أصلاً ـ بخروج أحدنا على ريقه خوفاً من العين ، فكيف تسمح له بذلك في اليوم الأول للعيد ؟!)... وتحت إلحاح الأهل نكتفي بلقمة صغيرة ، ندّعي الشبع بعدها مباشرة ، على غير عادتنا اليومية في المطالبة بالمزيد من الطعام أو السكّر... إنه العيد الذي تكثر فيه المأكولات وتتنوع ، وتكثر فيه الفلوس وتناول الطعام خارج البيت... نختصر الفطور بلقمة ، ونركض لارتداء الملابس الجديدة... وحين نكمل تجهيز أنفسنا بإهاب العيد... تقبّلنا الأم وتدسّ في جيب كل واحد منا كيس ملح صغيراً ، في أضيق جيب أو في أقلها استعمالاً ، وذلك لدفع الحسد ، وحين نتضايق من ذلك ، أو أن الأم لا تجد لها المكان الذي يضمن للملح أن يبقى مستقراً وخفياً عن الأنظار كي يحفظنا حقاً ، فإنها تعمد إلى تثبيته بدبوس خاص في مكان خفي داخل الثياب!

كل الثياب بكفّة ، وحذاء العيد بكفّة!

إننا نحيطه بعناية خاصة أكثر من الملابس ، ولا نتحرّج من مسحه باليد إذا ما أصابه شيء من تراب أو شراب (!!)... أما بعد الخروج من (الدواليب ـ أي ميادين العيد) الزاخرة بدواليب الهواء والفرّارات والألعاب السحرية ، والخيول المتجولة في المكان ، فإن طبقة من الغبار تعلق علينا من قمة الرأس إلى القدم ، ولكننا لا نحفل

بشيء ـ بعد تلك الجولة ـ أكثر من الحذاء ، فنعمد إلى مسحه وإعادته ثانية إلى تألّقه «الحبيب»!

«أفلام العيد» في «سينمات العيد» كانت تستقطب كل «أجواء العيد» وتلخصها على نحو غريب... ندمن على السينما لمشاهدة أفلام المغامرات التي ندخل من خلالها إلى طقس خاص بالعيد ، فهو ، رغم مفارقته لأجواء بيوتنا ، يحدد لنا نكهة خاصة حتى للأطعمة والظلال وأثاث البيت... إننا نشاهد تلك الأشياء المألوفة في إهاب مختلف وجديد ومثير للخيال : أفلام «القرصان الأحمر» بطولة بيرت لانكستر و«الأخرس» المحبوب ، وكذلك فيلم «الشعلة والسهم»... و«كابتن كيد»... وأفلام «فلاش غوردن»... و«الملاك الطائر» و«ابن الحداد» و«زورو» الملثّم... وثمة أفلام «طرزان» التي لا يستقيم عيدٌ بدونها!

تضجّ صالة السينما بضجيج العيد!

ضجيجنا بالملابس الجديدة ، والأحذية ذات الصرير واللمعان ، والجيوب المعبّأة بالنقود... فمع أننا ندخل السينمات ذاتها التي سبق لنا أن شاهدنا فيها أفلاماً كثيرة ، ولكنها ليست كما هو الحال أيام العيد .

... كلما انتهى عرض ، خرج الأطفال لتناول «لفّة» سندويش وزجاجة (بيبسي كولا) ، ثم الدخول ثانية لمشاهدة فيلم آخر ، أو الفيلم نفسه!

وحين نعود إلى البيت ظهراً ، نحسّ أن للبيت نكهة أخرى خاصة ، ربما تأتت من ظلال الأفلام التي شاهدناها ، فيشفّ أهلنا الكبار أشخاصاً بأبعاد أخرى... وحين يحاولون أن يهيئوا أجواء القيلولة قبل معاودتنا المضي نحو السينما ، لا تسعفهم أجواء العيد الاستثنائية لتهيئة أجواء النوم... فهناك الضيوف من الأقارب والأصدقاء... إنهم أنفسهم لا يقيلون في اليوم الأول والثاني من أيام العيد .

ونخرج ثانية تحت شمس حارقة ، ماضين إلى السينما من جديد!

... حين نغادر صالة «سينما الحمراء» العتيقة الشتوية يكون «نادي الاتحاد الرياضي» مركز جذب لنا ، فنمضي إلى هناك ، حيث مهرجان النادي : ألعاب مختلفة ومسابقات أهمها لعبة (الدونبلة) التي لا نشارك في غيرها ، لأن لعبة (اللكْو) وما شابهها تعتبر نوعاً من القمار المحرّم كما تربينا... ونخرج من النادي ، فنمر بمدرسة (أمريكان) فنرى في ساحتها جمعاً من الصغار يتأرجحون بآلات الجمناستيك تحت شمس العيد... الأمر واضح... إنهم أجهزوا على كل ما في حوزتهم من نقود في

« دواليب العشار » المقابلة للمدرسة ، فلجأوا إلى هذا الاستمتاع المجاني ، رغم حرقة الشمس!

... نواصل السير باتجاه (باور هاوس) لنستقل سيارات الأجرة نحو بيوتنا في البصرة القديمة... نسير على الرصيف ، فنحن نفاجأ في كل لحظة بفتى يطرد بحصانه خارجاً من « دواليب العشار » .

ومع هبوط الظلام ، وفي اليوم الأخير للعيد ، يشهد طريق العودة من العشار ، حيث السينمات والنوادي والحدائق ، إلى البصرة القديمة حيث البيوت ، يشهد هذا الطريق أسراباً من الأطفال الراجعين إلى البيوت سيراً على الأقدام ، فقد أنفقوا كل ما لديهم من نقود ، فلم يبق عندهم ثمن العودة بالسيارة ، ولا حتى بباص « الأمانة »... إنهم يجرجرون أقدامهم ، بعد أن كانوا قد خرجوا من بيوتهم في الصباح بكامل النشاط والتألق ، والجيوب المخشخشة بالنقود الورقية والمعدنية!

ثمة ألعاب تنتشر في كل مكان ، سواء في الميادين الخاصة للاحتفال ، أم في الأزقة... من تلك الألعاب ـ لعبة (الفلس بأربع فلوس) : يوضع طبق من الخزف تُرمى فيه قطع النقود المعدنية من بعد ثلاثة أمتار ، فإن استقرت في الطبق ربحتْ أربعة أضعافها ، ولكن أنى لها أن تستقر وهي مقذوفة من ذلك البعد ، وعلى الخزف الصيني(؟!) إنه احتمال نادر حقاً .

أو تلك اللعبة التي تقوم على جرة فخارية ومخدة وعصا وقطعة نقود! الجرة توضع على فوهتها مخدة صغيرة ، وعلى المخدة قطعة النقود المعدنية ، والرابح هو من يضرب المخدة أفقياً فلا يجعل قطعة النقود تسقط في الجرة (!!)... إن ذلك نادر وشبه مستحيل ، ولقد عرفنا بعد سنين غير قليلة أن قطعة النقود ـ حسب قانون القصور الذاتي ـ تظل ساكنة ، حين تنقذف المخدة من تحتها بفعل ضربة العصا الجانبية ، فتسقط في الجرة (حين تجد نفسها في الفراغ) بعد ابتعاد المخدة عنها... وكلما حاول اللاعب أن يبعد احتمال سقوط قطعة النقد في الجرة بضربة قوية وسريعة يوجهها للمخدة ، ظناً منه بأن المخدة ستحمل معها قطعة النقد... كلما جرى هذا ، كان سقوط قطعة النقد حتمياً في الجرة ، بفعل ذلك القانون... إن هذا لم يكن ليدور في ذهننا ، ونحن صغار ، ولذا فقد كانت تلك اللعبة تشكل تحدياً سحرياً غريباً!!

حلب ١٩٩٥/١٢/١٧



في الوقت الذي اشكر فيه للثقافة الجديدة نشرها الحوار الذي أجراه معي الأديب (جنان جاسم حلاوي)، وشكري له سابق... أود، بكل حب، إبداء ملاحظتين.. أولاً: إن العنوان الذي وضعه للحوار (هناك طنين في رأسي)، وهو بالطبع مقتطع من كلامي، لا يبدو - كما هو المطلوب في العناوين - زبدة الحوار، بل إنه يوحي بأن هذا «الطنين» مازال قائماً عندي حتى ساعة الحوار، وهو أمر مخالف لمسار الحوار ومساري... ثانياً: إن آخر جملة لي جاءت هكذا: «وعلى الله الاتكال»، في حين أنني قلت وكتبت: «وعلى الله التكلان»! الأمر الذي ضيّع الإيقاع الذي أردته، فقد تقصّدت مفردة (التكلان) لما لها في نفسي وجيلي من ظلال عميقة، إذ هي وردت هكذا في كتب الطفولة والحكايات الموروثة... وهذا ما أردته قصداً، وتحديداً، وبالضبط، وبالعمق، وعلى نحو شديد.

أكرر الشكر لصديقي جنان... ولمجلتي (الثقافة الجديدة)، ومعذرة لكلٍ، وللقراء.

مهدي محمد علي

حكاية للصغار

سانتا كلوز*

ابراهيم الحريري

انحنى سانتا كلوز يعقد رباط حذائه ، عندما دهمته آلام الظهر . كاد يصرخ متوجعاً ويلقي بجرابه جانباً ، مستكيناً إلى الدعة والراحة بعد عناء عمل النهار قرب الكور ، لكنه عندما تذكر أصدقاءه الصغار الذين ينتظرونه محملاً بالهدايا ، تحامل على نفسه ، شد قامته ، عدّل جراب الهدايا الكبير على كتفه ، فتح الباب فلسعته نفحة باردة ، انفتل خارجاً .

كانت الريح الشتوية تصفر تصفر ، والصقيع يُقعد الناس خلف الأبواب الثقيلة المزلجة ، يتحلقون خلف المواقد ، والجدات الطيبات يحركن الحساء في القدور التي يتصاعد منها البخار ، يتقافز بين أرجلهن الصغار الأشقياء ، يشدون أذيال أثوابهن ، فيكدن يهوين لاعنات الصغار الذين عيل صبرهم في انتظار عشاء العيد وهدايا سانتا كلوز وحكايا الجدات الثرثارات الطيبات حول موائد العشاء ومواقد الشتاء .

أسرج سانتا كلوز حصانه العجوز : « هيه يا صديقي ، تنتظرنا الليلة رحلة شاقة . أعرف أنك مثلي ، متعب ، لكن ما العمل مع هؤلاء الصغار الأشقياء » .

خاطب سانتا كلوز حصانه ، وهو يلقمه اللجام ، همهم الحصان محتجاً ، أطبق شدقيه ، لكنه سرعان ما فتحهما على سعتهما ، مستسلماً ليد صاحبه الحانية ، تربت عرفه ، تدس بين شدقيه ، مع اللجام ، قطعة سكر .

---

* كتبت في الأصل بالانكليزية كتمرين مدرسي ، أعيدت كتابتها بالعربية مع بعض التحوير .

وهو يربط السيور الجلدية إلى الزلاجة ، مسح سانتا كلوز كفلي الحصان بكفيه العريضتين متمتماً : «لكم تعبنا يا صديقي ، من أجل أن ندخل الفرح إلى قلوب الصغار . آخ يا صديقي العجوز! » .

أطلق الحصان الهرم حمحمة بدت أقرب إلى الأنين ، كأنها شكوى .

المشتكى إلى الله ، رد سانتا متنهداً .

ألقى جرابه الثقيل في مؤخرة الزلاجة ، اعتلى مقدمتها ، صفر ، رفع سوطه فاستقر لسعة خفيفة على كفل الحصان ، بالكاد أحس بها ، لكنها كانت كافية لتحفزه على المسير ، صهل محتجاً ، لكنه ، واهناً ، انطلق يخب تجلجل حول عنقه الأجراس الصغيرة .

«ليلتنا بيضا » فكّر سانتا وهو يسرّح بصره في السهب الجليدي الممتد . لكنه عندما تذكر قنينة النبيذ الحمراء التي كان دسها في جرابه ، انفرجت أساريره ، استل القنينة ، فتح السدادة بأسنانه غب جرعة كبيرة توجه إلى الحصان : «للصغار الهدايا ، لك السكر ، ولعمك سانتا كلوز العجوز النبيذ الأحمر» . كرع جرعة كبيرة أخرى ، مسح فمه وشاربيه الكثين بظاهر كفه ، أعاد السدادة إلى فوهة القنينة ، دسها ثانية في الجراب ، لسع كفل الحصان بطرف السوط .

ردد ضاحكاً : «ليلتنا حمرا! ليلتنا حمرا! .

كاد سانتا يستسلم للنعاس والخدر اللذيذ ، عندما صرّ خلف أذنيه منبه لجوج ، التفت ، كانت سيارة رمادية كبيرة تلتصق بزلاجته تكاد تدهمها والسائق يصوّت المنبه ، جفل الحصان ، صرخ سانتا كلوز ولوى العنان جانباً ، كادت الزلاجة تنقلب حاذته السيارة للحظة ، بالكاد ميّز خلف زجاجها المغبش وجهاً مستطيلاً شاحباً تكاد تنفر منه عينان زجاجيتان جاحظتان . مرقت السيارة بجانبه طائرة ، جللته بنثار الثلج والوحل ، صرخ سانتا كلوز :

«ملعون أبوك! » .

«ليلتنا طين» جمجم سانتا كلوز .

انزلق معدلاً الزلاجة المائلة ، مربتاً رأس الحصان الجافل . كاد يعتلي الزلاجة مستأنفاً رحلة المساء عندما حاذته السيارة مرة أخرى .

بسمل سانتا وحوقل ، دمدم «زبون العوافي! »

ـ العوافي! قال سائق السيارة . وهو يطل من خلف الزجاج المغبش .

ـ « الله لا يعافيك » أراد سانتا أن يرد لولا أنه آثر العافية ، رد بغيظ كتيم « خير ان شاء الله » .

ـ خير يصيبك ، قال الرجل معتذراً ، لكن قل لي ، أردف متصنعاً الإشفاق « ماذا تفعل خارجاً في هذا الزمهرير ؟ » .

ـ والوحل ـ أيضاً ـ بفضلك ، كاد سانتا كلوز يصرخ وهو يصرف أسنانه المطبقة غيظاً ، إلا أنه رد متبرماً « أوزع الفرح على الصغار » .

ـ وهل يستأهلون منك هذا العناء ؟ تساءل الرجل مشككاً .

ـ « كان يمكن أن يكون الأمر أقل عناء لولا وحلك ولجاجتك » فكر سانتا مقطباً .

ـ « عادة تعودتها ، توارثتها أباً عن جد ، يعني يمكن تقول : ميراث عائلي! لا أريد أن أتخلى عنه » قال سانتا كلوز ، وهو يهم باعتلاء الزلاجة .

ـ « ميراث الفقر » رد الرجل وعيناه الزجاجيتان تشعان نصلاً بارداً ، « أبوك مات حداداً ، كذلك جدك ، أنت أيضاً ستموت » مستدركاً « بعد عمر طويل إن شاء الله ، أنت أيضاً ستموت حداداً » .

ـ « هذا إذا لم تدهمني سيارة مسرعة مثل سيارتك » فكر سانتا كلوز .

ـ « وهل عوضك الصغار عندما كبروا ؟ » تساءل الرجل ساخراً .

ـ « إشاعة الفرح تعويضي... إنه فرحي! » أراد سانتا أن يصرخ ، لولا أن برق ظهره ، شله الألم ، تسلل من أسفل ظهره إلى فخذه فساقه ، حتى أطراف أصابع قدمه .

ـ « حلّ عني » صرخ سانتا كلوز « تكفيني آلام الظهر والكبر والوحل والشتاء » إلا أن الرجل ترجل . قاد سانتا إلى مقعد السيارة الخلفي . أطبق عليه الباب ، طارت السيارة تنهب الأرض نائرة الوحل على أبواب البيوت .

ـ « تعبت يا سانتا » قال بنبرة الظافر « وبدل أن توزع الفرح مجاناً على من لا يستأهل ، ستوزعه بأجر لكن لمن يدفعون » توقف الرجل أراد أن يسمع من سانتا كلوز .

لم يجب سانتا ، حزن وتعب هائلين اعتصرا قلبه . التفت ، من وراء زجاج المقعد الخلفي ، كانت بيوت القرية وكوره وزلاجته والحصان العجوز يغمرها الثلج والوحل ، خيل له أنه يسمع صهيلاً أقرب إلى النواح ، أراد أن يستوقف السائق ، لكن السيارة كانت تطير ، ولم يكن يبين ، ثمة ، سوى مزيج العتمة والثلج .

انحدرت على خدي سانتا كلوز دمعتان .

في الصباح قاده الرجل إلى عمارة كبيرة عالية يحتل طابقها الأرضي مخزن هائل ، ثم اختفى .

تناوشته الأيدي المدربة والابتسامات المصنوعة المشدودة والعيون الزجاجية . نضت عنه ، مشمئزة ، مئزر العمل وثيابه ، جاست العيون والمخالب الجائعة جسده المتعضل المتوفز حتى ارتخى ، دعكته ، رشت فوقه العطور ، فركت خديه بالبودرة ثم صبغتهما بالأحمر الفاقع . ألصقت فتائل القطن فوق عارضيه حتى أسفل حنكه ، وضعت فوق رأسه طرطوراً أحمر بحواف بيضاء ، حشرته في سترة ضيقة حمراء بأردان بيضاء تتخللها أزرار نحاسية لامعة ، أدخلوه ـ عنوة ـ في سروال أحمر وحزموه بحبل أبيض غليظ ، دفعوه خلف واجهة زجاجية تطل على الشارع ، قالوا بلهجة حاولوا أن تبدو حانية عطوفاً « هز رأسك ابتسم هز رأسك ابتسم » وعندما تردد سانتا كلوز نخسه كبيرهم مردداً بحزم « هز رأسك ابتسم نحن ندفع لك من أجل ذلك ابتسم! ابتسم » .

قضى سانتا كلوز وقتاً ، بدا له دهراً ، يهز ، خلف الواجهة الزجاجية رأسه ويبتسم . في الشارع كان يتوقف الآباء والأمهات مصطحبين أطفالهم المعلوفين جيداً ، يشيرون إليه يضحكون . بعض الصغار كان يغافل والديه ويشير له بإصبعه أو يده إشارة بذيئة ، ثم جميعاً كانوا يدلفون إلى المخزن ضاحكين . تعب سانتا كلوز ، تشنجت رقبته ، تصلب ظهره ، توقف عن الحركة ، لكن وخزة حادة اخترقت أضلاعه وصوتاً آمراً صر خلف أذنه « هز رأسك! ابتسم! ابتسم! نحن ندفع! هز! ابتسم! » تذكر سانتا كلوز الكور ، الزلاجة ، بيوت القرية ، الجدات الثرثارات الطيبات ، الصغار الأشقياء ، بخار الحساء الشهي ، النبيذ الأحمر صديقه الحصان العجوز .

احتبس في صدره صهيل كل خيول العالم ، اندفع إلى الواجهة الزجاجية ، رفسها بقائمتيه ، شق له بين الحواف الحادة التي تناوشت ثيابه ولحمه طريقاً إلى الشارع العريض .

انطلق يخب ويصهل ، يضحك ويبكي وينزف .

عاد سانتا كلوز إلى كوره ، كان قد انطفأ ، عبثاً نكش رماد الموقد بحثاً عن بقايا جمر متقد .

أما الاصطبل فكان خلا من العلف الطازج وبخار الروث وصهيل الحصان العجوز .

تهالك على مقعد مكسر قديم قرب الموقد الخابي . أغمض عينيه .

سمع صوت أجراس بعيدة تقترب ، صهيل حصان وكركرات صغار بدا له كأن ضلفتا الباب تصران ، وتنفتحان ، ويدخل مع الريح الباردة الصهيل والأجراس والكركرات .

أحس وكأن عشرات الأصابع الطرية الصغيرة تدغدغ خاصرتيه « عيب! » كاد يصرخ إلا أنه قفز من على مقعده ضاحكاً مصهصلاً ، تناوشته الأيدي الصغيرة الحانية ، دفعته إلى حلة حمراء فضفاضة جديدة زاهية ، ألقت فوق كتفه جراباً ثقيلاً ، تدافعته إلى البوابة فالزلاجة .

كان ثمة مهر فتي يحمحم ويصهل ، تصلصل حول رقبته وبطرف عرفه وذيله ، عشرات الأجراس الصغيرة .

تكوم الصغار خلف سانتا كلوز ضاحكين ، نخسوه فانفجر مقهقهاً ، تحسس قنينة النبيذ ، رفع السوط الجلدي الرفيع ، بالكاد لامس كفل المهر المتوتر الفتي .

توفز المهر ، انتصبت أذناه ، رفع قائمتيه الأماميتين مطلقاً صهيلاً مزبداً أبيض... ثم انطلق يعدو!

قصة

أنطونيو ماريوس سانتو

هاتف الجنابي

ليست هذه حكاية رجل دون غيره ولا سيرة فنطازية ، غير أنه الواقع الذي شاء أن يتجلّى في الخيال ، والخيال الذي احتكم إليه الواقع . لقد بحثتُ عنه في « الأطروحة الفنطازية » لعلي الشوك فلم أجده ، وفي « مئة عام من العزلة » لغارثيا ماركيز ولم أتباهَ بالعثور عليه . قرأتُ مرة أخرى « حكايات أندرسن » وسواها ، لأجد وجه مقاربة وخفت أن أتهم بالتخلف لمقارنتي هذه .

القضية وما فيها أن هذا الشخص المدعو « أنطونيو ماريوس سانتو » لم يطمح ذات يوم أن يصبح بطلاً ولا باطلاً ، حتى أنه لم يشأ التفكير ، مجرد التفكير في ذلك .

لم يكن شاباً وسيماً (كان أكبر زملائه سناً) حتى يجدَ لنفسه كوة في هامش إعلامي دعائي لإحدى الشركات ، وليس قبيحاً بما فيه الكفاية كي يتبرع بصورته إلى المخرج الإيطالي (أنطونيوني) ، على الأقل لتشابه الإسمين ، (وأسرّكم بأنه من بعيد يشبه مجاهداً أفغانياً) . إن وضعتَه في العراق ، فلن يفكر عراقي ما بأجنبيته نظراً لفصاحته ودماثة أخلاقه (ليس دائماً) وحبّه للتمر واللبن ، كان يحب لبن أربيل مقابل وزارة الدفاع/ على الخصوص ، وإن وضعته في البرتغال أو ما شابهها فلن يتردد أهلها باعتباره واحداً منهم ولكن بشرط أن يطلق شاربيه الحليقين ويبقى مستمعاً فقط ، لأنه لا يعرف البرتغالية! .

دارت الدنيا على صاحبنا دورتها ونظراً لأن الشمس على أبناء جلدته أخذت

ومنذ عشرات السنين تغيب ، حيث تشرق على الآخرين ، فإن صاحبنا قرر الهرب بجلده من وطنه ليس كما فعل جلجامش في بحثه عن الخلود ، وإنما هو استغل شروق الشمس خارج الحدود بحثاً عن مأوى .

وجد نفسه ذات ليلة محلية ونهار أجنبي في «القاع يعوي» كما ذكرت الأخبار .

حاول من هذه القيعان السحيقة أن يطل على زمن شاسع زئبقي فظن أن بحر العرب سينقذه غير أنه لم يجد هذا ولا ذاك ، ولم يلتق امرأ القيس ولا طرفة بن العبد ، لم يعثر حتى على أثرٍ لأصحاب الأخدود ، لكن بعض الرواة ذكر أنه توسل بالشاعر سعدي يوسف وهو على ظهر سفينة عتيقة مبحرة شمالاً باتجاه الشام لكي يأخذ معه صورة تذكارية . وبعد أخذ وردّ رأفَ به شاعرنا فوافق بشرط أن لا تُنشر الصورة . فتبين أن ركاب السفينة بما في ذلك الربابنة كانوا عراة . غير أن صاحبنا لم يهدأ لحظة وظل على عناده وكبريائه المألوفين في مثل هذه الأوساط . صار يقفز وينطح حيزوم السفينة برأسه المدور الكبير ، وظل على هذا المنوال حتى صرخ به الشرطي ، الشرطي الوحيد على ظهر السفينة العتيقة المبحرة شمالاً .

حدق صاحبنا بالشرطي مستاء ، مطّ شفتيه ثم زمّهما ، رغم أن الشرطي قد أدار ظهره مباشرة وأخذ ينظر إلى العراة الآخرين . أخذ صاحبنا يتمتم : لابد من عقد مقارنة ما بين شرطي الداخل وشرطي الخارج . وقرر وهو يتطلع إلى أسماك القرش المتقافزة المحيطة بالسفينة ، أن يواصل دراسته في التربية المقارنة حالما تسنح له الفرصة . قال لنفسه : لابد من دروس في التربية . غير أنه ومنذ تلك اللحظة أطبق شدقيه وانتهى الأمر .

لم يستطع أحدٌ فتح شدقيه إلا بعد أن شكلت المعارضة في المنفى لجنة خاصة مهمتها الأساسية إنقاذ صاحبنا من محنته ؛ من براثن الصمت المطبق . خافت المعارضة بكل ألاعيبها وأحابيلها وتجلياتها ، بكل قواها بعُربها وكردها ، أن تساهم بإنقاذ هذا العنصر الصامت (طبعاً بعضهم خاف من صمته حقاً) .

وبقدرة قادر وبعد حرق كميات هائلة من البخور وقراءة الأدعية وبعض الآيات القرآنية ، فتحوا فمه ، وإذا به يردد قول الجواهري :

يا ابن الفراتين قد أصغى لك البلد   زعماً بأنك فيه الصادحُ الغردُ
إذا تخلصتَ من همٍ أطحت به   شبّت همومٌ على أنقاضه جددُ

قال أحدهم : (شكو فتحتوا بوزه) ، ورد آخر : (لا شغل عنده ولا عمل) ، ومن بعيد ابتسم ثالثهم وقال بأعلى صوته (صلوات على محمد وآل محمد) .

حينئذ ألحقهم صاحبنا بالبيت التالي :

كأنّ نفسَك بُقيا أنفسٍ شقيتْ — وكل ذنب ذويها أنهم وُجدوا

عندها انفضّ الجمع عنه تماماً خوفاً من نبي جديد ، أو مجنون لا طاقة لهم في المنفى أن يتحملوه . اضطر صاحبنا مواصلة إقامته وتحقيق أهدافه (إن وجدت له أهداف محددة) في مدينة تقع شرقي العاصمة وتبعد عنها ثلاث ساعات بالقطار على الأقل . ولقد برر اختياره هذا على الوجه الآتي : هذه المدينة بملامحها البسيطة وبناياتها الخفيضة تذكره بـ(علاوي الحلة) وأحياناً (بساحة أم البُروم) في البصرة ، بينما يذكره الجزء العلوي المشرئب منها قليلاً والمدور بقلعة أربيل . لكن سرّ الأسرار في ابتعاده عن العاصمة كما ذكر (أحد الخبثاء الضليعين بمثل هذه الأمور) هو لسهولة مواصلة دراسته من جهة ، والتدرج في قيادة الناس من حيث لا يتوقعون من الجهة الأخرى . وما أن مرت الأيام حتى أخذ القادمون الجدد على الخصوص يخافون صاحبنا ، لطول لسانه وحدّته حتى أنهم تنازلوا له عن قيادة بعض المجموعات . كان صاحبنا يكرر على مدى سنوات مقولته الشائعة : «اللجوء عار وخيانة ، اللجوء هروب من الأصل ، ثمة مخطط يقضي تشريد الشرفاء عن مواجهة (أبو طَبَر)» .

وكلما قلّ عدد المستمعين حوله (بسبب لجوئهم) ، قلت وخفت كلمات وشهية صاحبنا ، حتى أن أحد الرواة القلائل سمعه ذات يوم يقول : «يمكن للإنسان أن يلجأ ، ولكن ليس إلى المناطق الباردة...» .

كانت تحولات هذا العنصر متواصلة على كافة الأصعدة : النفسية والفكرية والايديولوجية والاقتصادية والجنسية . ضبطه شخصٌ ما في ليلة ما يحزم حقائبه وكتبه المغبرة وهو يبكي ، وحينما داهمه بسؤال : ماذا بك ؟ قال : إنني أغنّي . يا أخي كنتَ تبكي قال له هذا الشخص . حينئذ انتصب صاحبنا وقال ، مسكّناً أواخر الكلمات ، مُحركاً بعضها : ألم تسمع بما قاله أحد المغنين العراقيين حينما سأله شامي : لماذا أغانيك حزينة ؟ أجابه المغني : (مو زين آني أغنّي!) . ومن أجل إنهاء الموضوع واللقاء قال صاحبنا لزميله Bye, Bye بلهجة متأمركة!! . ضحك زميله على إثرها وقال له وهو يتجه صوب باب الغرفة الخانقة : (شنو هاي . صاير أمريكي) .

كم أُحب التلقائية ، أخرب على التلقائية ، أموت على التلقائية ، قالها صاحبنا لنفسه عدة مرات . لكن هذه التلقائية هي المفتاح الذهبي لتحولاته التالية . لبسَ صاحبنا بدلته الوحيدة الأنيقة وفرّش حذاءه ونفخ في يديه باغتباط بعد أن دسّ تذكرة الطائرة في جيبه وقال فلنتوكل على الرب الجليل (كانت هذه هي المرة الأولى التي لفظ فيها اسم الجلالة) .

ومنذ ذلك اليوم لم يشاهد هذا العنصر في تلك البلاد الأوروبية...

لقد صفا عليه الماء ، غطس في العمق وللعمق وحتى العمق . صفتَ مع الطيور أو صارَ طيراً سقط مثل عباس بن فرناس ، في أعماق البحر أو تبخر في الفضاء ، لا أحد يدري لا أحد يسمع لا أحد...

بعد أشهر مرّت متثاقلة وخانقة وبصعوبة بالغة على الجميع ، وكعادة أبناء جلدته في رصد أحدهم الآخر ، تم رصد صاحبنا في أثينا وهو يدخن هذه المرة . وحينما سألوه : ماذا تفعل هنا ؟ قال : اتجهتُ جنوباً للمرة الأولى بعد مغادرتي الباخرة العتيقة المبحرة شمالاً لكي أكون قريباً من ملاعب الصبا والطفولة . كما وأنني (أضاف قائلاً) أنوي القيام ببحث مقارن ما بين التربية العسكرية في اسبارطة و«الجيش الشعبي» في بلدي .

قاطعه السائل مفاجئاً : طيب ولكن هل تعرف الاغريقية أو اللاتينية ؟ أجاب صاحبنا : لا ، لا ، ولكني في أسوأ الأحوال سأعدّ بحثاً عن الشاعر (يانيس ريتسوس) .

وآخر ما تلفّظ به صاحبنا هو Ok, Ok بلهجة أمريكية محسنة هذه المرة ، ثم غاص بعدها في الزحام .

مضت الليالي الأولى خفافاً سراعاً ، حافلة بالأمل والترقب والانبهار . غير أنها أخذت بعد أشهر ، تهش في داخله وتصيء ، وصارت للشوارع أحذية وأيدٍ وسجائر تشتعل وتنطفئ في جسده المربوع المتداعي... حتى أنه ، وبعد أكثر من سبعة شهور انصرمن ، راح يتساءل مع نفسه : طيب إذا كان المنفى مثل عذاب الداخل وأكثر ، فلم لا أعود إلى حيث ولدت ؟

لكنه تراجع مباشرة عن فكرته قائلاً : لن أفرط بحريتي البتة .

صار صاحبنا خبيراً بتسقط الأخبار من كل مصدر بسبب أرقه وتضاؤل إمكانية تقوية لغته الأمريكية التي طالما عوّل عليها . يا له من ختم لعين! لعنة الله على كل

الأختام ، والخاتمين . أخرُجْ من القمقم . لقد اتسعتَ للملايين وتوقفتَ بعيداً عني . هكذا خاطب صاحبنا بحسرة ختم التأشيرة الذي كان يسكن على مقربة (٢٠٠) متر منه ، خلف رفّين من البنايات السامقة ، مجرد أن تستدير نحو اليمين ثم مرة أخرى باتجاه اليمين ، دائماً باتجاه اليمين! وستشم حبره الأحمر . امبرياليون! ما علاقتكم باللون الأحمر ؟ صاح صاحبنا من على سريره ثم قفز منه ودخل المطبخ للحس ما تبقى في صحن الباقلاء .

شرب نصف كأس من الماء الأبيض وفتح المذياع بتلهف ، وإذا بالمفاجأة... لقد هجم العالم على ما تبقى من أحلامه ليمزقها ، على الشوارع والدكاكين ، على الأشجار وكل ما هو فوق أو تحت . بعد أيام معدودات تأكد له أن البنايات أخذت تتناطح وما هي إلا لحظات وتقوم الساعة . أدرك صاحبنا منذ البداية ، أن الخاتمة ليست أفضل من البداية ، وأنها لا تليق برضيع وهو يواجه الوحش ، فما بالك بجلجامش وأنكيدو!!

وبقدر ما امتلأت السماوات والبراري بالحشرات المجنحة والأنياب الالكترونية الطويلة المدببة جداً جداً ، امتلأ جسد صاحبنا بغازات وكلمات وشهقات غريبة حتى اختلط عليه الحابل بالنابل .

في تلك اللحظات بعد أن سُدّت الحدود وكل الفتحات تماماً ، وانفض الناس عنه سقط صاحبنا بسرعة وعنف في قاع نفسه السحيق فالتوت أحشاؤه وأصابه مغص حاد لحقه غثيان ، ونسي حتى فكرة قراءة بعض المآسي الاغريقية ، وأخذ يقتنع بفكرة طالما رفضها ، بفكرة رددها عليه أحد معارفه الجدد : أطلْ شاربيك واحلق ذقنك فأنت من الآن وإلى إشعار آخر أنطونيو ماريوس سانتو البرتغالي .

أنطونيو ماريوس سانتو ، أنا ، معقولة ؟ أطلِقْ شاربيك واحلق ذقنك ؟

أنطونيو يا ابن الكلب ، يا زنيم ، يا جلاد نفسك ، يا صائد الحمام والطيور والأرانب يالذي قضّيت زهرة شبابك في توزيع أو قراءة المناشير ، أيها المُستمني حُلمياً وثقافياً وسياسياً ، يا تافه ، يا مسكين ، كن من تكون ، انجُ بجلدك فأنت أصغر اخوانك ، وعليك أن تحافظ على الذرية .

دخلت الفكرة الأنطونية في مخه ومساماته وكبريائه وعناده ، اخترمته من كل الجهات .

أخذ يردد ، إذا كان لا مفر لك ولابد ، فما عليك إلا أن تطل على مشارف الصحراء ، لكن يا أنطونيو ، من أقصى الشمال الصقيعي هذه المرة .

أخذ أنطونيو يلمّع حذاءه التقليدي من جديد ، بصق على بوزه ثم مسحه بربطة عنقٍ عتيقة ، قذفها إلى المزبلة بعد أن بال عليها ثم بصق سبع مرات .

عليه من الآن فصاعداً أن يدافع وبلا هوادة عن أنطونيو ماريوس سانتو الذي أخذ يردد ولعدة مرات عبارتين جديدتين : «إن شاء الله» و«هل حياتي من الريش ؟» .

أغمض عينيه وفتحهما ثم أغمضهما لفترة أطول هذه المرة وإذا بشرطي المطار الخاص بمكافحة الإرهاب يوقظه ، اسمح لي مستر أنطونيو عليك أن تتبعني . تبعه مستر أنطونيو وردد بخوف انتابه «إن شاء الله» و«هل حياتي من الريش ؟» . سأله المحقق سؤالاً واحداً محدداً : يا سيد هذا الجواز غير حقيقي ، لابد وأن تعود من حيث أتيت .

حينئذ قرر أنطونيو أن يحرق كل السفن خلفه وينسف الجسور . يا سيد أنت تهينني وتحقّر شعبي وحكومتي ، اسمح لي أن أتصل بسفارة بلادي في عاصمتكم (طز بها ، قالها أنطونيو لنفسه) . أنتم تريدون دخول ، دخول السوق الأوروبية المشتركة بإهانة أحد أعضائها! .

لقد أمطر المحقق بوابل من الكلمات العرجاء بلغة لا هي انجليزية هذه المرة ولا أمريكية . هدّأه المحقق وسلّمه جوازه واعتذر منه وأركبه الطائرة المتوجهة نحو الأعالي ، باتجاه سفوح العالم البيضاء . وما أن هبطت الطائرة في أحد مطارات الشمال النائي حتى فاجأه رجلان مُعبسان طويلان ضخمان ، وسرعان ما اقتاداه كشاةٍ بدون كلام إلى أقرب طائرة . عندها أعيد أنطونيو إلى المحقق ذاته الذي رحّله بدوره بدون كلمات أيضاً إلى بلدٍ ثان ومنه إلى ثالث فإلى إحدى مدن (امبراطورية الفقراء المتداعية) ، إلى أن أعيد للمرة الثالثة إلى مطار الشمال النائي . كيف يعاقب أنطونيو على عناده وإصراره على اختلاق صفات بطولية وإنسانية أضافها لنفسه كأسباب مباشرة لتشرده والتي سبق أن تنازل عنها طوعاً ذات يوم . كان ذلك ما قاله أنطونيو لأول شرطي يقتاده إلى المكان الموعود . هكذا ألفى أنطونيو نفسه يعوي في القاع .

عوى في قاع العالم الشمالي شهرين قمريين . لم يعرف به أحد ولم يكن يدري ما كان يجري حوله . في تلك اللحظات بالذات حيث ينام العالم كانت طفولته أرضها وسماؤها ومياهها تقاد طواعية وبخطة معدة بإحكام للسلخ ، معصوبة العينين واليدين واللسان . في تلك الدقائق عوى أنطونيو بكل قواه ، صار نفسه عواءً ماردا هزّ التلفاز

والصحافة وأيقظ النائمين والسكارى وبعض الموتى . ازداد المتفرجون... أريد مذياعاً . إنكم تقتلونني . الكل يقتلني . كان ذلك آخر ما قاله أنطونيو وهو يرجّ القضبان الحديدية الملونة ليخرّ تحت أقدامها حيث لبط اللبطة الأخيرة قبل أن يغلق شدقيه بإحكام للمرة الثانية .

خرج أنطونيو ماريوس سانتو من قمقمه بعد محاكمته والاعتراف بمشروعية بقائه طليقاً في غابات الشمال النائي . كان بالامكان التعامل مع أنطونيو على أنه أقل مرتبة من الدلفين وأعلى بقليل من القرد . فثمة دليل قوي يدعم مشروعية مثل هذا التعامل ألا وهو الصمت المطبق لأنطونيو .

حاول أنطونيو إعادة ما تهدّم من علاقاته وكلماته وهيئته . أول ما همس به أنطونيو لنفسه وهو يتلفّت يمنة ويسرة : لعنة الله على هذه المسافات المنفسحة ، كم من الوقت سيمضي لكي أعيد تجميع أوصالي المبعثرة ، وأسلاكي المتقطعة ؟ وأجلو كلماتي التي كساها الصدأ والغبار!! كم من الوقت سيمضي ؟ وعيناي المجهدتان الغائرتان كيف لهما أن تُطلا على ما تركته خلفي . فما بعد الشمال شمال...

وما هي إلا ثوان حتى غطّ أنطونيو في شخير متقطع .

حدّث أحد الرواة قال : التقيتُ بمحض الصدفة ، في إحدى مدن العالم بأنطونيو ، كان ذلك في اليوم الأول من العام ١٩٩٢ . وقد كان التعب عليه بادياً . قلت له لابد من تعميم تجربتك على الآخرين يا أنطونيو . فرد عليّ : لا داعي ، إنهم لا يستحقون .

قلت له : إنك حققت في شمال العالم النائي ما تبتغيه . قال أنطونيو كلمته الأخيرة وهو ينظر بعيداً إلى ما وراء الأفق ، باتجاه جنوبٍ قصيّ : ليس هذا هو المقصود .

شعر

السائح المشوي،

يوركن هابرماس، صلاح عبد اللطيف، فيديريكو فيليني، الأطفال المترعرعون بفعل جيناتهم*

أنور الغساني

أنا الروح العراقية التائقة إلى مثوى
سأوظف الوقت للفم الصغير
بريقه طلاء عضوي في وجه في البدر تراءى
لنا « مشية المخمور » في نظرية الاحتمالات
الترنح فقط رغم التغذي وتضامن القطط عند الطلق .
في « فضة النساء » ذكّرنا صلاح عبد اللطيف
بنسوة عراقيات ، بالفطور الكامل
بنسوة يخفين ودهن ، سهمهن من الثقافة
نداؤهن في ذلك اليوم
رعش السماء فوق مدن وقرى العراق :
« صلوات على محمد صاير رجال »
احتفين بطفل وأذعن أخبارنا

* مقطع من « أناشيد الروح العراقية الهائمة » ١٩٩٣

فتأسست لنا دار من رماد
في فجر «الحياة العذبة» لفيليني
المرافق لأعصابنا مذ حدثت
تلك السباحة في سكن العالم الغجري
قبل أن تشوي الصاعقة البريئة السائح في الماء .
ابحثوا لنا عن هابرماس ليدرس الاتصال والإعلام
بين (...) و(، ، ،)
والآن : السائح المشوي ، وأنت يا هذا ، ويوركن هابرماس ،
وصلاح عبد اللطيف ، والأطفال المترعرعون بفعل جيناتهم ،
وفيليني ،
كلنا ، نستكنه عالم الصباح أمام المحولات الكهربائية .
بين حاضر وآخر ؛ الساعة تُشغلني ،
الهادمة لزمني المطلق
ولزمن العراقيات ، النبتات المرهفات
مالكات عوالمي حيث جبروت السيارات فيضٌ
والكف هي الرمز والأمل في تلقي الصاعقة
«الصُندقجات» سنحفظها أيها الأخرق الودود
حتى وإن لم تعد طيورها تزقزق
النشاز حال الصوت الذي نريده ، أما اليقين
فلدى الأطفال الذين بذّروا قواهم في الضحك .
كلهم ونحن ، الشفاعة ستكون لنا إن شئنا
عند زيارة الإله الصديق
مزحاً سيستغفلنا قائلاً :
«أنا هنا ، أنا هنا ، أنا الذي تُحبون» . ■ ■

شعر

أوراق زهرة الغردينيا

كريم ناصر

أراهم في كل مرة يركنون إلى خاتمة العنف ،
مشاكسين دمَ القرنفلةِ ،
لهم عفن الجثث وبقمصان رمادية .
أقدامهم تطأ زهرة الغردينيا
مصوبين سهامهم نحو حدقات الطيور ،
أعناق تذبّ عن أسلافها فكأنها تتحصن لتنكّل بالزوبعة .
مدنٌ مضروبة بالصواعق
والنجم مخضبٌ بقفافيز الغياب
ها هو النخلُ المجلل بهلوسات الغربان
ها هو ذا المعلق على الجدار
يتّقدُ اتزانهُ* .

أراهم في كل مرة يمرقون على عوسجة
مهرقين أحلامهم

لهم رائحة الخشب المحروق
وقاماتهم لها لون الرماد

ترى
بماذا يتوعدون النهارَ ؟
وبماذا يحجبون الأمسية ؟

لقد استوى الطريق الطويل
أنيناً يبدد فوضاه للمتاهة

من يقطف لي قمراً لأتدفأ هذا المساء ؟
من يشاطرني الحرائق في المدن الميتة بالرمل ؟**



التلويحات :

* قد يُكبح جماحُ فرسي بالغبار
قد أتخيل السلالم أنشوطةً مختومة بالجثث
لكن عروق الأرض تنتظر مستدلّةً بالنيران

** أين النخلةُ كي أتفيأ بظلالها ؟
أين ثمار الطير ؟

شعر

قصائد

سلام صادق

١ - الريح الغريبة :

لم نك نفتحُ للعاصفة أبوابنا
ونلوذ خلفها
لم نكُ نوصد النوافذَ
بوجه النسيم
ونسدل الستائر
كنا لا هذا ولا ذاك
مصاريع مشرعة على جهاتٍ
لا تحتمل الريح تأويلها .

٢ - فوات الأوان :

انتفضت أجنحةٌ وانطفأت
خطفت أبصارنا
خيوط ضوء وفرّت

متأخرون كنا كالعادةِ
في تزويج النور للأشجار .

٣- بلادما:

بلادٌ حالكة كغابة خيزران
خلف كل غصن يختبئ جلاد
وتحت كل برعم تتنفس جريمة
وفي كل جذر يلتفّ اخطبوط
وفي الطين تتجذر التهم
وتزهر المكائد
مسقيةً بماء الشبهات
فتثمر فصول الجَلدِ
جثثاً تتدلى كفاكهة
وحطباً يتقمص نسغَ ربيع قادم .

٤ - المسافة:

لتباعد المسافات
تعوزنا قبلاتٌ نفاثة
لتقارب القلوب
كان لابد من اصطدام
يجمعنا في طريق .

٥ - التحليق :

ورغم أن لكم
هبوب دمٍ تحت جوانحي
فمن العسير
بأن أطير
في ليل خوفٍ
عاصفٍ ومطير .

٦ - الطائر:

طائرٌ في قفصٍ
بكاؤه زغردة
تتحلق حوله ملائكةٌ
تُضحي بأجنحتها
بعيداً عن السماء
في غرفة ضيقة .

١٩٩٢ السويد
من مجموعة «الذي لا يقال»

شعر

حلمٌ قصيرٌ

أسعد البصري

عاشقان على البحر
ميتون من الصحراء
أيدٍ وأسلحة

لهذا
لا شيء ينهضُ
حين نرقص عاريين
من كل ما يسدّ الطريق

الآن يتسع البكاء
ثم تنهض ابتسامة
من النعش
المبلل

(عندما جلست «تانيا»
في الظل
كنت شجرة كبيرة
وخسارتي أنه
لا ظل لي)

هذه محنة أغصاني

كلما تساقط الجمال
(الأسود)
من أعالي الوجه
إلى أقاصي النهدين
تساءلت
كيف يمكن أن أسد النور
وهو يجنّ إلى حدائقك

أنا
سفحٌ من سفوح الانحدار

«تانيا»
حلمٌ قصير ، لكنه هائل

٢٤ تموز ١٩٩٥

متابعة

أحزان العشب والكلمات

صالح ياسر

ضمن سلسلة «أصوات الراهن»، التي يشرف على إصدارها اتحاد الكتاب الجزائريين، صدر الديوان الشعري البكر للشاعر والمبدع الجزائري المعروف إدريس بوديبة، بعنوان «أحزان العشب والكلمات»* . إدريس بوديبة، في ديوانه هذا، الذي كان يمكن أن يكون ديوانه الشعري الثالث أو الرابع لو أن ظروف النشر تجاوزت آليتها القاتلة لكل حس إبداعي، يسعى لصياغة مشروعه الابداعي بحرفية شعرية بالغة الوضوح، ناحتاً فضاءاته الشعرية، فجاءت قصائده محكومة بدهشة الكلمات وقدرة اللغة على تجاوز معانيها المباشرة. إنه في محاولته هذه يسعى للبحث عن نص جديد، هو بحسب تقديم اتحاد الكتاب الجزائريين للديوان «نص مضاد للمألوف في معناه الابتذالي، وغير مهادن إبداعياً، وغير خاضع لإغراءات السياسي والايديولوجي في معناه المباشر والقاتل».

في قصيدة بعنوان «أناشيد رؤيوية»، مكتوبة عام ١٩٨٢ يرسم الشاعر بوديبة لوحة شعرية للمشهد السياسي الجزائري الراهن، حيث يتنبأ بما يحدث الآن، إذ يكتب قائلاً:

إحزن أو لا تحزن
فالسنوات القادمة
أقسى سنوات العمر

* إدريس بوديبة: أحزان العشب والكلمات. شعر. مطبوعات اتحاد الكتاب الجزائريين ١٩٩٤.

وأقسى من كل التأويلات
ومن كل أقاويل الصحف الأولى
هي نفسك
لا يفجئك الوجه القادم
... انهمو آتون!

وفي قصيدة أخرى بعنوان «القلب العالم» ، وبكلمات تحمل في ثناياها مناجاة دافئة ، يرسم إدريس مشهداً آخر ، ينبض بدهشة اللغة الصوفية وفضائها الروحي الجميل ، فتراه يكتب :

لمَ ترحلين ؟
وفي القلب ما تشتهين
فهذي مغارة
لبيع الجنون
وأخرى لبيع خبايا الوتر
وتلك حديقة ،
مقاعدها من عبير وطيب

ضمن همّه الإبداعي يسعى إدريس بوديبة لنحت لغة شعرية تخلد مجد الشعر ومجد الناس . وضمن هذا المسعى ، وفي قصيدة بعنوان « السيف وطفولة الريح » ، يؤبّن إدريس مجموعة من أصدقائه الشعراء الجزائريين ، المتمردين على الواقع الجزائري ، ممن ماتوا انتحاراً ، في أوقات مختلفة من عقد الثمانينات ، الساخن بهباته وانتفاضاته وصخبه وأزماته ، على جميع الصعد . تراه هنا يكتب قائلاً :

تعب الرصيف من التسكع في شرايين المدينة
تعب الهواء من التوقف في محطات التثاؤب والضجر
تعبت ضلوعك من حصادات التشابه والفصول ،
تعبت خطاك من الوصول إلى الوصول
هرب المجرد من معانقة المجرد لليقين
هرب اليقين إلى اليقين .

وبعد هذا فإن القارئ ، بعد إكماله لقراءة نص إدريس بوديبة الشعري بفضاءاته البالغة التنوع والدهشة سيجد في كلمات قصائده المفعمة بالدفء وبالآمال والآلام و« المهووسة » بتوترات ودهشة الواقع الجزائري ، يجسد بعض الأوجاع واللغة والهموم المشتركة ، وهنا تكمن قيمة نص إدريس الشعري ، وكل نص إبداعي .

متابعة

نظرة على مهرجان لندن السينمائي التاسع والثلاثين

غالية قباني

انتهى ضجيج مهرجان لندن السينمائي في دورته التاسعة والثلاثين (٢ـ١٩ تشرين ثاني/ نوفمبر) والأزمة المالية التي كانت تحلق فوق رأسه منذ سنوات ، أسفرت عن ايرادات قاربت النصف مليون جنيه استرليني حققتها عروض ١٩٣ فيلماً . بعض هذه العروض سبقته شهرته مثل فيلم « كازينو » للمخرج مارتن سكورسيزي الذي اختتم المهرجان بشكل مثير وهو من بطولة روبرت دي نيرو . وفيلم « تحت الأرض » الذي أثار ضجة كبيرة أثناء عروضه في فرنسا والقاهرة ، بسبب ما نُسب الى مخرجه أمير كوستاريتا من تحيّز للصرب في معالجته لأزمة يوغسلافيا السابقة ، والتي دفعت به الى اعلان اعتزاله العمل السينمائي .

يطلق القائمون على مهرجان لندن السينمائي تسمية مهرجان المهرجانات ذلك أنه يسعى لجلب غالبية أفلام المهرجانات العالمية السابقة عليه في تلك السنة ، إن لم يكن كلها ، فعلى الأقل المتميز والملفت لنظر النقاد . كما أنه يفخر بتخلصه من سطوة المسابقة ولجان التحكيم ويكتفي بكونه فعالية تحتفي بالسينما وصانعيها وبجمهورها . هذا الجمهور الذي زاد عدده هذا العام عن مئة ألف متفرج بارتفاع ١٢٪ عن العام الماضي .

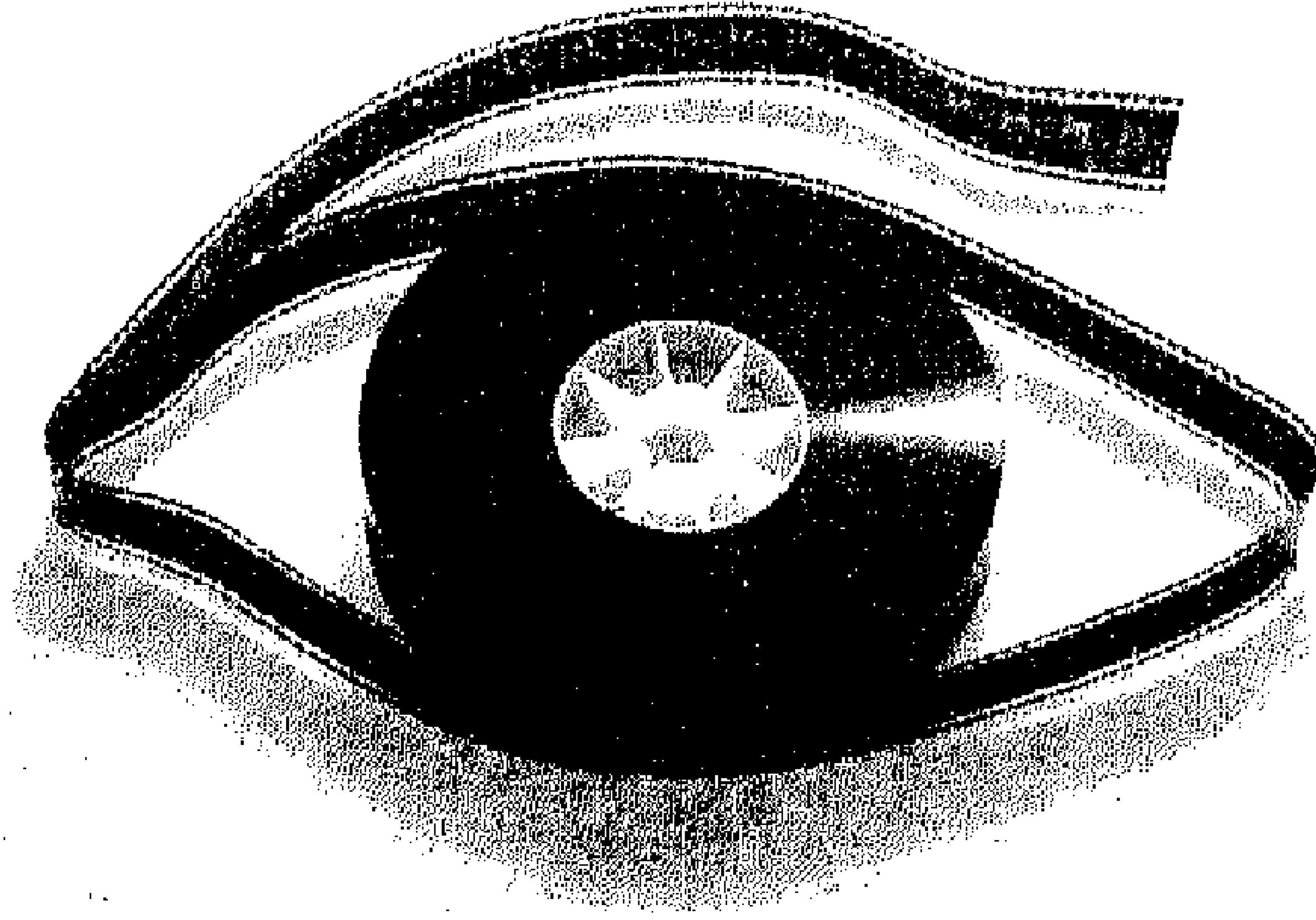
لا يحصل هذا المهرجان على تمويل من أي جهة رسمية في بريطانيا لذا فإن القائمين عليه يحصلون كل عام على دعم هيئات ومؤسسات عديدة ، بعضها اعلامي

شبه ثابت مثل القناة التلفزيونية الرابعة وصحيفتا الغارديان والاوبزرفر . هذا التنوع في التمويل هو سمة غالبية الأنشطة الثقافية الآن في هذا البلد ، بعد ان قررت حكومة المحافظين منذ خمسة عشر عاماً قطع الدعم عنها .

غلبة الأفلام الامريكية

كان للسينما الامريكية نصيب الأسد في المهرجان : أربعون فيلماً هي ما أنتجته الشركات الكبرى في هوليوود اضافة للانتاج المستقل الذي تغامر به بعض الاستوديوهات الصغيرة . وهو كمٌ غير مستغرب قياساً لحجم انتاج هوليوود الأكثر غزارة في العالم .

THE BRITISH FILM INSTITUTE PRESENTS





عرضت أفلام متميزة وجديرة بالمشاهدة كفيلم « كازينو » كما أشرنا في البداية وكانت هناك أفلام ذات توجه تجاري بحت . من العروض المتميزة فيلم « أفروديت الجبارة » آخر أفلام المخرج وودي آلن ويناقش فيه مفهوم الأبوة والبنوة والعلاقة بينهما وفيلم « جورجيا » بطولة الممثلة جنيفر جيون لي ، احدى أهم ممثلات جيلها في أمريكا الآن ، والتي تؤدي هنا دور مغنية تعيش أزمة نفسية في علاقتها مع شقيقتها المتزوجة والمستقرة عاطفياً ، بينما هي تدخل في علاقات فاشلة وتدمن على الكحول .

من ناحية أخرى ظهرت في المهرجان عدة أفلام تتناول قضايا المخدرات والشذوذ الجنسي ، مثل الفيلمين الأمريكيين clockers وهي احدى تسميات سماسرة المخدرات و« يوميات كرة سلة » وهو عن تورط تلميذ وزملائه في المخدرات ، وفيه يبرع الممثل برايان جولوب في تمثيله كواحد من أهم مجايليه .

لازالت الرواية تلهم صانعي السينما في العالم بعد أن كانت المرجع الرئيسي لهم في النصف الأول من عمر السينما التي أتمت قرناً كاملاً في كانون الأول الماضي . من الكلاسيكيات الروائية التي قدمت في المسرح والسينما مراراً رواية البؤساء للروائي الفرنسي فيكتور هوغو يقدمها المخرج الشهير كلود ليلوش من بطولة الممثل جان بول بولموندو وقد حاول المخرج التركيز على بعض القصص والشخصيات غير الأساسية في الرواية والتي لم تتناولها المعالجات السابقة لهذا العمل .

أما المخرجة الألمانية مارجريتا ڤون تروتا فقد اعتمدت على روايات مواطنها بيتر شنايدر لتقدم فيلماً عن جدار برلين وعن الانهيار الذي تعرضت له ألمانيا الشرقية ويستعرض الفيلم ثلاثين عاماً من حياة حبيبين : صوفي التي نجحت في الهرب من برلين الشرقية عام ١٩٦١ على أن يلحق بها حبيبها كونراد لكنه يفشل في ذلك فيقرر أن يرتبط بمؤسسات الدولة الشيوعية الجديدة كباحث علمي .

يلتقي الحبيبان في العقود الثلاثة التالية أربع مرات فقط تثور المشاكل بعدها بسبب وجود كل منهما في مكان ، فكلونراد يرفض أن يترك ما حققه من نجاح كعالم شهير ليلتحق بحبيبته وطفله لكن اللقاء يتم بعد سقوط جدار برلين .

سينما أوربية متميزة

اشتملت عروض المهرجان على مجموعة كبيرة من الأفلام الأوربية تصدرتها النتاجات الفرنسية من ناحية الكم ، وما كان ملفتاً منها فيلم « كراهية » للمخرج ماثيو كاسوفيتش الذي يتناول العنصرية في فرنسا وهو أول أفلام مخرجه الشاب الذي أثبت تميزاً وقدرة على كتابة السيناريو أيضاً .

من الأفلام الملفتة أيضاً « نيللي والسيد آرنو » للمخرج كلود سوتيه أحد المخرجين المشهورين حالياً في فرنسا والذي يركز عادة على العلاقات الانسانية يساهم سوتيه أيضاً في اخراج فيلم «أبناء لومبير» مع مخرجين آخرين ، وهو فيلم وثائقي يحاول أن يتجول في نتاج مائة عام من تاريخ السينما . الفيلم بمثابة تحية للأخوين لومبير مخترعي السينما وأول من صور فيلماً سينمائياً في العالم .

الأفلام الايطالية تنوعت ، وكان أهمها فيلم «وراء السحب» للمخرج الايطالي انطونيوني ، أحد الذين تربعوا على عرش السينما العالمية لعقود طويلة . وهو يطل على الجمهور هنا بعد صمت دام سنوات طويلة يعتمد الفيلم على أربع قصص حب اقتبسها من مجموعته القصصية التي أصدرها في أواخر السبعينات في هذا الفيلم يثبت أنطونيوني انه لازال يتربع على عرش السينما .

شاركت اسبانيا بستة أفلام أهمها فيلم « زهرة أسراري » للمخرج بيدرو آلمودوفار في أقوى وأجمل أفلامه حتى الآن ، وهو كاتب السيناريو أيضاً يناقش في فيلمه المشاعر الغامضة التي تجذب الناس بعضهم الى البعض أما الفيلم الآخر الملفت فهو « فلمنكو » للمخرج الشهير كارلوس سادرا . الفيلم موسيقي تسجيلي يقدم فيه سادرا باقة من فن رقص الفلامنكو المصحوب بموسيقى قوية وتصوير سينمائي يفتن المتفرج

السينما البريطانية . . أسماء شابة

أما السينما البريطانية فقد خصص لها المهرجان مساحة تميزت غالبيتها بانتاجات المخرجين الشباب الذين كتبوا سيناريوهاتهم بأنفسهم . وقد ركز بعضها على هموم الطبقة العاملة كفيلم « حياة الشارع » للمخرج كارل فرانسيس ، وهوعن معاناة امرأة عاملة في جنوب ويلز تحمل من صديقها المتزوج الذي يرفض تحمل عبء الطفل القادم فتضطر لقتل مولودها الجديد بمجرد ولادته يخرج الفيلم من مدرسة كين لوتش الذي اشتهر بأفلامه التي تعالج الطبقة العاملة في بريطانيا خاصة أماكن التجمعات الصناعية مثل مدينة ليڤربول .

ويتناول فيلم «النوم البري» للمخرج سكوت مايكل ظاهرة المتشردين في بريطانيا اذ يشهد ألن تيري جريمة قتل تحدث في لندن لشخص ايطالي تحت جسر البرج عندما يقررأن يخبر البوليس يكتشف ان المحقق المسؤول هو أحد القتلة فيتعاون مع مراسلة صحفية امريكية على كشف الفاعلين انه فيلم مليء بالاثارة صور بنظام السكوب وقد عرف المخرج كيف يستفيد من مدينة لندن كمواقع لمغامرات الأبطال

ولأن المهرجان خال من الجوائز النقدية ، فانه يفتح المجال للجمهور كي يمنح جائزته الخاصة ، التي لا تعبر بالضرورة عن مستوى الفيلم من ناحية فنية ، بقدر ما تعبر عن عناصر تجارية فيه مثل التشويق والاثارة

طلب من الجمهور هذا العام أن يستفتي على أفضل فيلم بريطاني في عروض المهرجان وقد فاز فيلم «ستون وول» للمخرج نايجل فينش بالجائزة للأسباب التي ذكرناها ، فهو عن تورط شاب في حياة مجموعات الشاذين في مدينة نيويورك .

لندن ، كانون الأول ١٩٩٥ .



فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر عشرة دنانير